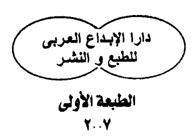


رقصة المعبد الأخيرة



دارا الإبداع العربى
للطبع و النشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

اسم الكتـاب : رقصة المعبد الآخيرة .

نـوع العمـل : رواية طويلة .

اسم المؤلف : إسلام عامر على .

الناشـــــر : دار الإبداع العربىً للطبع و النشر .

رقم الإيداع : ٨٤٧٥

سنة النشـر : ٢٠٠٧

رقم حماية الملكية الفكرية

S 102-7-006

دارا الإبداع العربى
للطبع و النشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

كلمة أ.د / سعيد سُليمان الماجد
أديب و كاتب من الكويت

مما لا شك فيه أن أدب الرواية هو من أمتع أنواع الأدب و كذلك أصعبه على الإطلاق ، لإحتياجه إلى قدر عظيم من التركيز و التفاعل مع شخصيات العمل الأدبى و تتبع سير الأحداث ، أما إذا تحدثنا عن ذلك النوع الأدبى (أدب الأديان) كما أطلق عليه صاحب هذا العمل ، و الذى أحسبه نارذا ندرة الماء فى الفيافى القاحلة لقلة مرديه ، فحسبى إنه دربٌ من الخطر والمغامرة ، و هذا ما نجده فى رواية الكاتب المصرى إسلام عامر على (رقصة المعبد الأخيرة) و التى جاءت متممة للعديد من الأعمال الأدبية التى تسير على هذا النهج ، الذى بات كأرض صخرية مليئة بالصخور الحادة التى تدمى قدم من يمشى عليها حثيثا ، و لشدة عجبى بقلم هذا الكاتب الذى يمتلك القدرة و الأدوات على التلاعب بعقل القارئ فنرى جده خيال و خياله جد ، حتى باتت عباراته جزء من واقع نتلمسه فى أعماله من جراء قوة التعبير و الوصف .

و حسبى أن هذا القلم الذى نحن بصدده يخط كلماته لفئة شديدة الثقافة فقط دون عامة القراء و لا أعلم أهذا عيب أم مزية تضاف لميزان أعماله و تواصله مع جمهوره ؟ .. فنجد أعماله تتميز بدرجة عالية من التعقيد و الإثراء الثقافى الذى قد يتسبب به لأضطراب عقلية القارئ ويصيبه بالتوتر و التخبط ، الذى يقوده بالإقتناع التام بما يقرأه حتى ولو كان ما يقرأه غير واقعى أو صحيح ، و هذا هو سر نجاح ذلك الكاتب

الشاب ، بذلك الأسلوب الراقى المعقد .

أما عن رقصة المعبد الأخيرة ، فأظنها حالة خاصة فى الأدب العربى حيث تناول فيها إسلام عامر حياة العديد من أنبياء الله الذين هبطوا على بنى إسرائيل فى حقبة زمنية معينة ، و هذا فى حد ذاته شئ مقبول كنوع من التأريخ لحياة الأنبياء مثلما أتى به عبد الحميد جودة السحار فى روايته عيسى بن مريم ، و لكن إسلام عامر تخلى عن حقائق حياة الأنبياء و صنع لهم حياة خاصة تفتقت بها قريحته مازجًا مزايا خاصة لنبى ليضفيها لآخر ، و بسؤالى إياه عن هذا كان رده غريب و لكنه مقنع ، حيث قال .. أن جميع الأنبياء أتوا برسالة واحدة هى عبادة آله واحد دون الإشراك به ، و نشر السلام على الأرض ، فعندما يحث رسول الله محمد - صلى الله عليه و سلم - على العفة و عدم الزنا ، فنجد موسى وعيسى أتوا بنفس النهى ، لأن الدين واحد و لكن تقسم على العديد من العصور ليتناسب مع الزمان و المكان حتى جاء متمم الرسالات و نور الأرض .

و ختامًا لكلماتى الموجزة أقر بأننا أمام سلاح جد خطير قبل أن تكون موهبة أدبية راقية فى زمن انحدر فيه الأدب نحو هوة التخريب أسمها أسمها إسلام عامر على بما يملكه من أدوات يحركها عقل واعى ، دارس ، يفهم ما يدور حوله فيصنع ما يتفرد به دون منافس .

أ.د / سعيد سليمان الماجد
الكويت ٢٠٠٦

المقدمة

هام العديد من كُتاب الغرب بتلك الفاتنة التى احبت أحزان ذلك الشاب الناصرى - نسبة إلى الناصرة - و آلام مزماره الحزين ، و كيف تحول هذا الحب لحقدٍ و كرهٍ و إستنفار ، ليكون ردها على عفاف و عزوف الناصرى عنها عنيفا ، بأن حرضت زوج أمها و حاكم البلاد الظالم آنذاك بأن يأمر بقطع رقبته و إحضارها لها على طبق من فضةٍ إرضاءًا لكبريائها الذى أهانه الناصرى ، و أنوثتها التى عزف عنها فأدماها ، و كان ثمن هذا المطلب صعب المنال لمكانة الناصرى بين قومه فرقصت عارية أمام الملك لخطب وده ، و قد اشتهى جسدها فواقعها فى حُرمانية جلبت وبالا عظيمًا عليهما و على البلاد ، ليُدمدم الله عليهما راسلا إليهم من لا يخش أحدًا ، ليجعل البلاد قاعًا صفصفا .

هذا هو المُلخص العام و الخطوط العريضة لقصة سالومى ، التى هام بها شعراء و كُتاب الغرب المسرحى ، و على رأسهم أوسكار وايلد ، ذلك المسرحى الإيرلندى ، الذى كتب عنها رائعته القصيرة ذات الفصل الواحد التى تحمل اسمها (سالومى) ، و التى حوّلها الموسيقار النمساوى ريتشارد شتراوس إلى واحدة من أهم مؤلفاته الأوبرالية .

عندما اطلعت على سالومى لأوسكار وايلد وجدت قصورًا عظيمًا مُقارنة بما لدى من معلومات عنها ، ولكنىً لمست له الأعذار ، وذلك لأن الكتاب المقدس يخلو - إلا من النذير - عن أخبارها ، التى يُمكن تتبعها بتتبع أخبار ذلك الملك الظالم و ذلك الطيطان هيرود ، الذى عاصر حياة يُوحنا المعمدان و السيد المسيح - كما أقرت بعض الكتب التاريخية

و المراجع - عبر الكتاب المقدس .
و لعل هذا القصور جعل خيال الكُتاب يجمح ليتفتق عن طبيعة حياتها و كيفية ثأرها من ذلك الشاب الناصرى ، مما جعلها أسطورة مُتعددة التناول ، و ليست حدثا جللا فى تاريخ مملكة إسرائيل و عائلة داود .
قبل بضع سنوات من اليوم ظهر على الساحة الأدبية فى مصر عملان مسرحيان يحملان اسم (سالومى ١، ٢) لمحمد سلماوى ، حيث يتضمن الجزء الأول قلب و كبد القصة ، التى حاكها عشرات الكُتاب الغربيون حتى بُليت ، و قد بدت كنسخة عربية لعمل أوسكار وايلد ، أما الجزء الثانى يبحث فيه الكاتب من خلال توقعات واهية عن نهاية سالومى بعدما حصلت على رأس يوحنا المعمدان ، و قد تمثلت فى عذابات الحب و شوقها للمحبوب و ختامًا بأنهيارها تحت وطأة الناصريين و إنتقامهم للمعمدان .
و قبل أن أخوض فى الكلام عن تجربة سلماوى - التى لم تضف و لم تثر الأدب العربىَ من وجهة نظرى - قدر ما اضافت و أثرت لسلماوى نفسه ، لما فيها من عيوبٍ تاريخية لا تغتفر ، كان لها أن تجعل من العمل لوحة باهتة لمرحلة تاريخية هامة - كان لىَ أن أعلق على كلماته الإفتتاحية التى تدينه و تبرز جهلا عظيمًا يمحو أى إدعاءًا لمجهود مصنوع و مُفتعل من قِبل الكاتب ، حيث يقول فى مقدمةِ كتابه الثانى الذى تحضرنى صفحاته .. [أن مسرحيتىَ الأولى تنتهى بإغتصاب سالومى عرش المملكة ، لذلك وجدتنى بعد ذلك أسأل : يا ترى ماذا قد حدث بعد نزول الستار ؟ .. و عُدت إلى المراجع التاريخية أبحث عن

إجابة على السؤال فلم أجد أى ذكر على الإطلاق لحياة سالومى بعد مقتل يُوحنا المعمدان ، و عدت إلى الكتب الدينية فلم أجد اسم سالومى نفسها إلا ضمن أربعة أسطر بالكتاب المقدس تقول بأنها بإيعاز من أمها هيروديا رقصت لهيرود الحاكم زوج أمها ، و الذى كان يشتهيها ، فى مُقابل أن يُقدم لها رأس يوحنا المعمدان ، الذى كان يسُب أمها فى الأسواق مُتهمًا إياها بالزنا] .

هذا نص ما كتبه سلماوى فى مقدمةِ كتابه ، و قد خطه قلمه بوحى منه هو ، و بادئ ذى بدء أود أن أتصدى له فى ذلك الأثم الذى اقترفه فى **حق نفسه و فى حق الدين الإسلامى ، ألا و هو تعديه على سيدنا يحي بن زكريا الشهيد بن الشهيد - يوحنا المعمدان - و قد تجنى عليه و اتهمه جُزافا بأنه كان يسُب هيروديا فى الأسواق ، مُتهمًا إياها بالزنا .. ألا** تعلم يا سيدىَّ أن القذف بدون قرينة أو دليل من الكبائر تستوجب إقامة الحد ؟ .. ألا تعلم أن الأنبياء مُنزهون من صغائر الأمور فما بالك بكبيرها ؟ .. فكيف يتسنى لعقلك أن يهديك لهذا التعدى المُشين ؟ .. و كيف سمحت وزارة الثقافة بطبع هذه العبارة دون حذفها ؟ .. يا ليتك تتحرى الكلام عن الأنبياء قدر تحريك إياه عن سفهاء البشر ، فربما كلمة نضح بها القلم ادخلت صاحبها جهنم من أوسع مداخلها ، و حاول ألا تستشرى متاع الدنيا على حساب إناس اختارهم الله و نزههم عن أى دنس ، ومن المؤكد إنه سيرجع هذا القول - سب يحي لهيروديا فى الأسواق - إلى مرجعه الرئيسى الذى استند إليه .. الكتاب المقدس ، و كونى باحثا لهذا الكتاب بمعظم تراجمه و العديد من كتب اليهود أنفى

وجود مثل هذه الأسطر الأربعة ، التى تقر بهذه الفعلة المُشينة ، و إن وُجدت لا يجب أن نقر بذكرها.

و أخيرًا لك أن تعلم سيدى أن يحي بن زكريا رسول الله كان من أكثر أهل الأرض تقوى و حرص على الآخرة و أزهدهم فى الدنيا و أشد ما زهد فيه النساء ، و كان أكثر الناس بكاءًا ، فكيف لمثل هذا الرجل أن يتربص بامرأة و يسُبها على رؤوس الأشهاد من العامةِ دون أكتراث ؟ .. و كيف لزوجةِ ملكٍ مكروه مثل هيرود أن تتسكع فى الأسواق دون أن ينالها الناس ؟ .. و من جانب آخر .. هل من المعقول أن تتدنى ابنة و تثير شهوة مُحرمة بصدر زوج أمها لتواقعه فى حرمانية كما فعلت سالومى - كما ذكرت - من أجل رجل يسُب أمها ، على حين تستطيع الأم بدلالها على زوجها أن تنال ما تريد ؟ .. اتقوا الله فيما تكتبون ، فكفانا عبثا بالعقول .

أما عن نفيه وجود أى مصدر تاريخى أو دينى سوى الأربعة أسطر التى وجدها بين سطور الكتاب المقدس - حسب قوله - فكونى باحثا فى علم مقارنة الأديان و دارسًا قويًا للكتاب المقدس - كما ذكرت آنفا - أنفى وجود مثل هذه الأسطر التى تتعرض لاسم سالومى ، فكيف يتم سرد خواتيم القصة دون بدايتها ؟ .. هذا و قد خلا سفرى أخبار الملوك الأول و الثانى - يُضمان أخبار و إنجازات ملوك و أمراء مملكتى إسرائيل و يهوذا - يخلوان من أدنى خبر عن سالومى ، و ياليتك ذكرت ما عثرت عليه لكى نستزيد علمًا .

أما عن المصادر الدينية ، فبإقراره أن الناصرى هو يوحنا المعمدان -

نبى الله يحي بن زكريا ، الذى اشتهر بتعميد بنى إسرائيل بالماء .. " أنا أعمد بالماء ، و لكن فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه ، هو الذى يأتى بعدى " .. [إنجيل يوحنا .. ٢٧] ، و الذى بشر بمجئ عيسى بن مريم الذى سيُعمد الناس بالروح القدس .. " الذى ترى الروح نازلاً و مُستقرًا عليه ، فهذا هو الذى يُعمد بالروح القدس " .. [إنجيل يوحنا .. ٣٣] - فأدعوه للإبحار فى قصص الأنبياء ليعرف المزيد عن سالومى من خلال روايات ذات إخراج صحيح و أحاديث نبوية قوية و ليست موضوعة ذكرت فى أكبر الإصحاحات و أشهرها .

ذكر الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى فى كتابه " قصص الأنبياء " عن سبب وفاة يحي بن زكريا - يوحنا المعمدان - ذكروا فى قتله أسبابًا من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يُريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها ، فنهاه يحي - عليه السلام - عن ذلك ، فبقى فى نفسها منه ، فلما كان بينها و بين الملك ما يُحب منها استوهبت منه دم يحي ، فوهبه لها ، فبعثت إليه من قتله و جاء برأسهِ و دمهِ فى طستٍ إلى عندها ، فيُقال إنها هلكت من فورها و ساعتها .

و فى رواية أخرى ضمن عشرات الروايات التى رُويت فى كتاب " قصص الأنبياء " قيل .. بل أحبته امرأة ذلك الملك و راسلته فأبى عليها ، فلما يئست منه تحيلت فى أن استوهبته من الملك ، فتمنع عليها الملك ، ثم أجابها إلى ذلك ، فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه فى طستٍ .

أما إسحاق بن بشر فى كتابه " المبتدأ " فيقول فى ذلك : أنبأنا يعقوب

الكوفى ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبيه ، عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - ليلة أسرى به رأى زكريا فى السماء فسلم عليه و قال له : " يا أبا يحي خبرنى من قتلك ؟ .. كيف كان ؟ .. و لِمَ قتلك بنو إسرائيل ؟ .. قال : يا محمد أخبرك أن يحي كان خير أهل زمانه ، و كان أجملهم و أصبحهم وجهًا ، و كان كما قال الله تعالى .. ﴿ سيدًا و حصورًا ﴾ ، و كان لا يحتاج إلى النساء ، فهوته امرأة ملك بنى إسرائيل ، و كانت بغية ، فأرسلت إليه و عصمه الله ، و امتنع يحي و أبى عليها ، فأجمعت على قتل يحي ، و لهم عيد يجتمعون فيه كل عام ، و كانت سُنة الملك أن يعد و لا يُخلف ولا يكذب ، قال : فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته ، و كان بها مُعجبًا و لم تكن تفعله فيما مضى ، فلما أن شيعته قال الملك : سلينى ، فما سألتنى شيئا إلا أعطيتك ، قالت : أريد دم يحي بن زكريا ، قال لها : سلينى غيره ، قالت : هو ذاك ، قال : هو لك ، قال : فبعث جلاوزتها إلى يحي و هو فى محرابه يُصلى ، و أنا إلى جانبه أصلى ، قال : فذبح فى طست و حُمل رأسه و دمه أليها ... ألخ .

هذا و هناك عشرات الكتب الآخرى التى تتناول هذه الحادثة من المنظور الدينى ، أما من المنظور التاريخى فقليل من الجهد المبذول فى البحث عن إنجازات الملك هيرود فى مملكة إسرائيل و دمشق من بناء القصور و القلاع و تجديد بيت الرب سنصل لمآثر سالومى .

هذا من جانب ، و من جانب آخر إذا تحرينا الأمر خلف الملك هيرود

و زوجه هيروديـاس سنجدهما قد عاصرا حياة ثلاثة أنبياء هم .. زكريا و من بعده ابنه يحي و من بعدهما المسيح عيسى بن مريم - عليهم السلام أجمعين - فأعتقد إنه من اليسير معرفة قصة حياة هذه الباغية ، فلا داعى لإدعاء مجهود مفتعل و مزور ، الغرض منه تحقيق نجاح شخصى و مزيد من الأضواء على حساب عقلية القارئ ، فكفانا تنصل من الحقيقة .

و مما سبق يتضح لماذا تلمست الأعذار لأوسكار وايلد و أقرانه من كتاب الغرب المسيحى ، و رفعت راية العصيان و التمرد على عمل سلماوى ، و يرجع ذلك - كما ذكرت آنفا - أن الكتاب المقدس به القليل من أخبار يحي بن زكريا و هيرود ، ذلك الملك الظالم ، الذى حكم مملكة إسرائيل فترة ما بعد نزول الوحى التوراتى و عاصر نزول الوحى الإنجيلى ، على حين يزخر الإسلام و الأدب الإسلامى و مآثر رسولنا الكريم - صلوات الله عليه و سلم - و روايات الصحابة بمثل هذه الأخبار ، و لا أملك إلا أن أقول .. [آفة الكذب النسيان] .

و ختامًا لتعليقى على " سالومى " لسلماوى أود أن أقول و أصرح بأننى لا أهاجم سلماوى ذلك الشخص أو كاتب المسرح ، فمن حق كل كاتب أن يسعى للإقتباس و تطوير ما يقتبسه ، خاصة لو كان العمل المُقتبس آثار لغطا على المستوى العالمى ، و لم يُحرق بعد بالترجمة و النشر ، و لكنى أصب جام غضب قلمىَّ و كلماتىَّ على الإدعاءات و الإفتراءات التى صاحبت العمل ، لتضفى على الكاتب - الكاتب وحده - بعض اللمعان ، لتضعه فى هالةٍ إعلامية ترقى به لمصاف كبار الأدباء العرب ، الذى يصعب الوصول إليهم إلا بذاك ، ففى النهاية محمد سلماوى مُبدع

له طريقته الخاصة فى الإبداع وله أعماله التى تعبر عنه وعن مدرسته .
و ردًا على هذا كله سعيت لكتابة روايتى (رقصة المعبد الأخيرة) مُستكملا رسالتىَ فى تعقب الشخصيات المحورية فى التوراة من مُدعين و بغاة ، و التى بدأتها منذ عدة أعوام بالمجموعة القصصية (توراة الفيطوان) و من بعدها المجموعة القصصية الثانية (ثامار) ، ثم الرواية الطويلة (قديسة التوراة) ، و ها هو كتابىَ الثانى عشر (رقصة المعبد الأخيرة) جاء مُتوجًا لهذه المجموعة .
أما عن روايتىَ هذه فقد تعمدت تناول حقبة زمنية بعينها ، بكل أحداثها و أطرافها ، فلم أتصيد حياة سالومى وحدها أو الملك هيرود وحده ، بل جعلت الزمكان هو البطل الحقيقى و الخفى لهذه الرواية ، لأكون بذلك قد أتيت بملحمةٍ أدبيةٍ أو روايةٍ أجيال ، مُحاولا التعرف بخيال الكاتب على هذه الحقبة الزمنية الهامة فى تاريخ الرسالات السماوية ، لأنهل من جب الخيال الدوافع الحقيقة لتلك المأساة ، ذلك على ضوء ما أملك من معلومات صحيحة .
و ختامًا لكلمتىَ أود الإشارة إلى أن أحداث هذه الرواية قد كُتبت بوحى من خيال المؤلف ، للبحث و التفسير و ليس للإعتناق ، و لكنها بُنيت على ضوء و بصيص من واقع الأحاديث النبوية و الروايات ، التى تتناول السبب الرئيسى لمقتل يحى بن زكريا و رفع المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام .

يا رب إن ضاقت قلوب الناس عما فىَ فعفوك لا يضيق

المؤلف

-١-

كان جسده يرتعد مع كل خطوة يخطوها حصانه الذى يجر العربة التى يقطن داخلها ، و قد اصابته شدة الحرارة بالضيق و الحُنق ، فبدت أنفاسه سريعة مُتلاحقة ، وءآيات الحُنق تفترش سحنته .

و مع طول الوقت الذى أصبح يعدو بطيئا ، قرر أن يغوص فى لجة ذكرياته ، لعله يقتص من الوقت و ينهل منه ما يُعجل برحلته .

كان الحشمونايم يُهددون مطامع روما فى الشرق ، التى تعبر عن مطامع خاصة لبومبى ، فقرر أن يُرسل فرقة من جيش الإمبراطورية الرومانية للقضاء على الحشمونايم ، و الاستيلاء على يهوذا و أورشليم بوابتا الشرق ، و حلقة الوصل بين العالم القديم ، فكان لكبير الكهنة هيركانوس دورًا هامًا فى حياته ، عندما رَشّحَ والده أنتيباطر ، ذلك القائد الهُمام ، الذى لا يشق له غبار ليكون قائدًا لتلك الفرقة التى ستقضى على الحشمونايم و تنل من يهوذا و أورشليم .

استطاع والده أن يقضى على الحشمونايم بالفعل و يرفع علم الإمبراطورية على يهوذا و أورشليم ، فشفع ذلك له عند مجلس السناتو الرومانى ، الذى اتفق على جعل دولتى اليهود تحت آمرة أنتيباطر ، الذى عين بدوره ابنه البكرى فاسيل حاكمًا على أورشليم ، و عينه هو حاكمًا على الجليل ليضمن بذلك أن يأمن ثورات اليهود ، خاصة الفريسيين منهم ، تلك القوة الضاربة التى تهدد مصالح روما فى الشرق ، بل و توأد كل حلم يُولد لهم داخل أسوار الدولة اليهودية ، و بعد الاستيلاء على يهوذا و أورشليم اصبحوا ككومة من الحطب الجاف التى تنتظر جذوة نار تطلق

طاقتها الكامنة ، و كان خلفه هيركانوس ، الذى عينه كبيرًا للكهنة داخل الجليل ليكون عونا لولده ، بينما أكتفى أنتيباطر بحكم يهوذا .

اصبح اسم أنتيباطر من الأسماء رفيعة المستوى فى روما ، خاصة مع ولاء هذا الأول لهم ، و إخلاصه فى تحويل خيرات أورشليم و يهوذا لروما ، و مُحاولة جعلهما قطعتان منها ، ببناء القصور و القلاع على الطراز الرومانى ، و مُحاولة فرض اللغة اللاتينية و الرومانية على الأهالى مما زرع الغيرة و الحقد فى قلب من يكرهوه ، خاصة أريستوبولس و ماثيوس أنتيجونس اللذان كانا يتوسمان فى أنتيباطر أحلامه العريضة ، التى يُهلك كل شئ يعترضه للوصول لتحقيقها ، حتى و لو كانت هذه الأشياء التى يُضحى بها هى الأصدقاء و المُعتقدات و القيم ليتحول لكيان خاوى على عروشه إلا من أحلامه السوداء ، التى تهلك الحرث و الأمانى ، فقررا الفرار من روما ، و تكوين جبهات من اليهود الثائرين لإغتصاب أنتيباطر أرضهم و الاستهزاء بمُعتقداتهم و دينهم لخلعه من سائر البلاد هو و ولديه ، فسعوا للأنضمام لليهود الفريسيين ، القوة الضاربة التى تستطيع التصدى للرومان فى الشرق ، و لكن أنتيباطر كان يعلم بأمر هذه المكيدة من خصيانه و عيونه ، فاستعد للقائهم ، فأخمد نيران ثورتهم فور بدايتها ، ليُسفر القتال عن مقتل المئات من اليهود ، و كان منهم أريستوبولس ، و تشريد الباقى فى الفيافى الجدباء و كان منهم أنتيجونس ، الذى زادت شراهته للإنتقام من أنتيباطر ، خاصة بعدما قتل صديقه أريستوبولس بيده .

حولت الانتصارات الساحقة على أصحاب الفتن ، و مُحاولات اليهود

الثائرين أنتيباطر لمسخ ، وجد لذته فى الاستهانة بكل شئ يمت باليهود ، فكان يَسخر من مُعتقداتهم و طقوسهم ، فكان يسبى نساءهم و يغتصبهن على مرءى و مسمع من أزواجهن ، غير مُبال بتوسلات الرجال و دموع النساء ، و مَن كان يعترض على ذلكِ من الرجال كان يأمر بإيلاج عشرة رجال من الحراس على حرشفةِ امرأة الرجل المُعترض أمام عينيه ، ثم يأمر بقتلها ليستلمها زوجها جثة هامدة .

و من جانب آخر منع رجاله من دفع الضرائب الدورية لروما ، مُهددًا مجلس السناتو بشن الحروب على الولايات الرومانية فى الشرق و الاستيلاء عليها ، فما كان من أعضاء مجلس السناتو إلا أن يتدبروا كيفية التخلص من صنيعتهم فى الشرق ، و كما كانت أحلام أنتيباطر تولد و تنمو لتداعب منامه فى السيطرة على العالم ، كانت إيضًا أحلام ابنه الأصغر و من عيّنه حاكمًا على الجليل تكبر و تكبر ، فورث من أبيهِ الأحلام العريضة و الذكاء الشديد ، الذى استخدمه فى التعاون مع داهية الرومان هيركانوس ، و مُباركة السناتو الرومانى على قتل أبيه أنتيباطر ، الذى مات مُتأثرًا بالسم .

و كان لابد من إعادة تقسيم البلاد بعد وفاة أنتيباطر ، الذى حزن عليه ابنه البكرى فاسيل ، و الذى استطاع شقيقه الأصغر بدعم من مجلس السناتو و الجليل بقيادة كبير الكهنة هيركانوس أن يستولى على مُلكه ، و يُسيطر على أورشليم ، و يُحدد إقامته فى روما ، ليُصبح هو حاكم يهوذا و أورشليم .

استطاع الابن الأصغر لأنتيباطر إمتصاص غضب اليهود ، الحاقدين

عليه و على أبيه لأنه أدومى و غير يهودى و لا يحق له حكم البلاد ، فشرع فى بناء معبدهم من جديد و اخذ يتقرب منهم بأن يُشاطرهم طقوسهم ، و يُقدم القرابين لمعبودهم ، و يرتدى ثياب كهنتهم ، و يحضر طقوس أعيادهم .

و لكن لم يدم هذا طويلا ، خاصة بعدما علم أنتيجونس أن أنتيباطر مات ، و قد أصبح دربه خاويًا من المتاريس التى تعيقه لينال من ابنه الأصغر ، و يستولى على أورشليم من بين براثنه .

عاد أنتيجونس ليتحالف مع اليهود الفريسيين ، الذين يضمرون الحقد للأدوميين و رسولهم أنتيباطر و من بعده ابنائه ، خاصة بعد هزيمتهم الأولى ، و تشريد فلولهم ، و لكن هذه المرة عمد أنتيجونس إلى تكوين جيش من المُتدربين و المُتمرسين ، من يُجيدون الضرب بالسيف و يُصقلون الكر و الفر ، ثم هاجم أورشليم بجيش ذات قوام عظيم ، حتى سقطت أسوارها لتكشف عن هروب الابن الحاكم ، الذى ترك الكاهن هيركانوس وحيدًا ، فقرر أنتيجونس ألا يسفك دمه رحمة بشيبتهِ ، و لكنه أمر بقطع أذنه ، حتى لا يستطيع أن يصبح كاهنا ، هكذا تقول توراة اليهود ، لا يصحُ للكاهن أن يكون غير صحيح أو به علة ، و حكم أنتيجونس البلاد بقبضةٍ من حديد ، و قد استطاع بدعم من حُبِ اليهود له أن يُعيد بناء أسوار أورشليم المدكوكة على آثر القتال لتكون على أهبةِ الاستعداد لأى غارة تهب عليها .

ارتمى الابن فى أحضان روما ، حيث عمد إلى صديقه القائد الرومانى ذائع الصيت مارك أنطونيو ، و قد استطاع أن يُقنعه أن يشرح لمجلس

السناتو فشله فى حماية أورشليم و نجاح الهارب من روما أنتيجونس فى الاستيلاء عليها إنما يرجع لكونه قد داهمه بالتآمر مع رجال من حاشيته استغلوا عدم درايته بسائر أمور الحكم ، و انشغاله فى التودد لليهود ليبيعوه لأنتيجونس بثمن بخس ، و قد نجح مارك أنطونيو فى إقناع مجلس السناتو بالعفو عن الابن المهزوم ، على أن يُعيد الكرة مرة آخرى و يُهاجم أورشليم ، و لكن هذه المرة بدعم من الجيش الرومانى ، الذى انتخب أفضل رجاله ليكوّنوا فرقة عسكرية تحت آمرة القائد سوسيس لتكون فى عون تطلعات الابن فى استعادة سيطرته على الشرق ، و قد استعان بفرقة من المرتزقة من السوريين و الأدوميين .

رحل أنتيجونس ليهوذا ليُعيد بناء أسوارها مثلما فعل بأورشليم ، و فور انتهائه من إعادة بنائها فوجئ بالابن و جيشه يُحاصرون يهوذا و يُلحفون على إقتحامها ، فسارع بطلب المدد من اليهود الفريسيين فى الشمال ، و بعد يومين من الحصار نجح الابن و معه القائد سوسيس من أقتحام السور الأول للمدينة ، و بعد أيام اقتحم السور الثانى ، و الجزء الخارجى من المعبد و المدينة السفلى ، و قد اضطر اليهود أن يتراجعوا إلى وسط مجموعة مبانى المعبد ، و إلى الجانب المُرتفع من المدينة ، إلى أن ألتحم الجيشان ليُقتل أنتيجونس بيد القائد سوسيس ، الذى سلم مُفتاح يهوذا للابن المُختار من قبل روما و إمبراطورها ، ليحل المدد من اليهود الفريسيين ليجدوا المدينة يرفرف عليها علم الإمبراطورية الرومانية .

زحفت القوات الرومانية حتى حطت على أورشليم ، التى انهارت مع دخول أول جندى رومانى ، فقد هزمها خوف الأهالى من الموت

و التشرد ، ففتحوا أبوابها للغزاة دون مُقاومة .
اعلنت روما أن ابن أنتيباطر الأصغر حاكمًا على أورشليم و يهوذا و السهل الساحلى ، و من خلفه نسله ليكونوا صورة روما فى الشرق .
اراد الابن الحاكم أن يتودد لليهود حتى يُباركوا مُلكه ، و يُساعدوا فى استقراره بكفهم عن ثوراتهم الغاضبة ضده و من ورائه روما ، فقام بترميم و تقوية أسوار المدينة ، التى قاست كثيرًا أثناء حصاره لها ، و بنى قصرًا فى الركن الشمالى لمدينة أورشليم ليكون مركزًا لحكمه ، و فى الطرف الشمالى لقصره بنى ثلاثة أبراج كبيرة و قد دججها بالأسلحة و الجنود ، فبدا قصره كأنه قلعة حزينة ، و لكن كل هذا لم يفت فى عضد اليهود ، لأنهم كانوا يعلمون أن كل هذا من أجل حمايته من ثوراتهم ، فعمد الابن الحاكم إلى إعادة بناء المنازل المدكوكة و إعادتها لأصحابها ، و لكنه قد بناها على الطراز الرومانى ، تقربًا من روما خاطبًا ودهم ، و لكن اليهود ظلوا على موقفهم منه ، فاحتار كيف يُوقف جام غضبهم ، حتى هداه عقله لإعادة بناء معبدهم ، الذى دُكت أسواره ، و سُلبت مُقتنياته أثناء قتاله مع أنتيجونس ، فأمر كل قواته بالأنشغال فى إعادة بناء المعبد ، و قد طلب العون من روما ، التى امدته بالرجال و العتاد و الخبراء ، و قد نجح فى بناء منزل الرب و المقصورة فى ثمانية عشر شهرًا فقط ، مما هدء من ثورة اليهود تجاهه ، و بدأت نظراتهم له تتحول من كونها نظرات مُوجهة لمُستعمر ، غاصب ، جاء لبلادهم لينهب خيراتها لصالح روما إلى نظرات مُوجهة لمُصلح جاء ليُعيد تأسيس بلادهم من جديد ، و لكن مازال الحقد يتربع فى الصدور لكونه

هدد حياتهم فيما سبق و كونه أدومى ، لا يحق له أن يتولى سلطة البلاد .
و بعد الإنتهاء من بناء المعبد كان الابن الحاكم يُشارك اليهود أعيادهم ، و يسعى لتقديم القربان مثلهم ، و يحرص على إرتداء ثياب مثل ثيابهم ، حتى ألف الجميع وجوده بينهم ، و تقبلوا شططه بعض الحين تجاههم ، و فى خضم كل هذا لم ينس الابن عشقه للنساء الذى توارثه عن أبيه ، فبنى قلعة لنزواته اطلق عليها قلعة ماكيروس ، و قد بناها فوق ربوة عالية ضمت بين ضلوعها أطلال منازل اليهود التى تحولت لكومة من الحطب الأسود من جراء القتال بين الابن الحاكم و أنتيجونس ، لذلك حُرم على اليهود الإقتراب من هذه الربوة ، لأنهم اعتبروها نذير شؤم ، لذلك كانت نعم العين التى يجمع فيها جواريه ، ليُمارس معهن الرذيلة ، و يُقيم الحفلات الماجنة فيها .
ثار كهنة الجليل على تصرفات الابن الحاكم من الحفلات الماجنة ، و سبى النساء الأجنبيات ، و كثرة الزيجات ، فما يلبث أن يتزوج من واحدة حتى يشتهى أخرى ، و لكن مع عدم وجود قائد لليهود يوحد كلمتهم على لسان واحد يتصدى به لفساد حاكم البلاد أصبحت صيحاتهم مُجرد ثرثرة ينفضها الملك عن كاهله ، حتى بدأ كهنة الجليل يُرددون فى أنحاء البلاد أن رب هارون و موسى قد استجاب لدعواتهم فأرسل لهم نبيه ، الذى سيُدافع عنهم و عن حقوقهم ، و يتحدث بلسانهم ضد أمراء و ملوك الرومان ، و سيكون معه كلمة من الله هى علامة ظهوره ، و سيكون من أبناء الناصرة ، فزاد توتر الملك و خشيته من هذا الرجل ، الذى سيُرسله رب اليهود ليتصدى له ، فتحولت لامبالاته لمطالب اليهود

إلى مطالب واجبة التنفيذ دون مُماطلة ، خشية أن ينقلبوا عليه تحت لواء نبيهم المُنتظر و يقصوه عن ملكه ، و حينها ستلفظه روما ، بل الدنيا كلها ، و لن يبق له سوى الموت ملاذا يحتمى به .

و فى سبيل ذلك سرح معظم جواريه و كذلك نساءه اللواتى بلغن العشر ، ليكتفى بابنة الرومان مريمنة و أولادها الثلاثة ، و بابنة الحارث ، التى أتت من نسل العرب الذين يُحيطون ببلاده كما يُحيط السوار بالمعصم و أولادها ، لضمان استقرار البلاد من الجبهة الخارجية .

و ذات صباح شاع فى أرجاء أورشليم أن نبيها الذى وعد به الله قد ظهر ، و كانت به المواصفات التى اشار بها ملاك الرب على كهنةِ الجليل ، فكان من الناصرة ، و نسله ينحدر لأنبياء اليهود ، فأشتاق الملك لمعرفة من يكون هذا النبى ، الذى سيُوحد كلمة اليهود ضده ، فظنه شابًا فتيًا ، له من ضربة السيف ما يفلق الحجر الصوان ، و له من مهارة الكر و الفر ما يُرهب أعداءه ، و لكن أحد خصيانه أشار عليه أن نبى اليهود المُنتظر هو النجار الهرم زكريا بن لدن بن مُسلم ، فأنتابت الملك حالة من الضحك الهستيرى ، الذى كاد يُوقف قلبه ، و هو يُشنف أذنه بكلمات خصيه ، مُتخيلا زكريا هذا على حمار و لحيته البيضاء تكاد تلامس الأرض و من خلفه اليهود ، و سرعان ما ابتلع ضحكاته و قد راوده خاطر أسود نغص عليه سائر أيامه ، ماذا لو ألتف الناس حول هذا العجوز ؟ .. الذى لن يملك سوى الكلام الذى يُخدرهم به و قد تحالفوا مع اليهود الفريسيين و الجليل ؟

نفض الملك الابن هذه الخواطر السوداء عن رأسه ، مُحاولا إقناع نفسه

بأنها إرهاصات واهية و خزعبلات من التى اعتادها من اليهود من قبيل الشعور بأنهم أمة مُختارة من قبل الرب ، و قد قرر أن يعود لعربدته ، فأتى بعشرات الجوارى و اودعهم قلعة ماكيروس ، و ما لبث أن يُقيم حفلته الأولى حتى وجد مئات الثوار من اليهود و الفريسيين و معهم اليهود الصدوقيين يُطوقون قلعته دون خوف أو قلق من حرمانية المنطقة ، و كان على رأسهم زكريا بن لدن نبى بنى إسرائيل ، و الكل يُطالب بفض مجلس المومسات و الحظيات الذى يشرع الملك فى تبليجه ، و من هنا علم الملك معنى نبى مُنزل على أمةٍ ، و مدى تأثيره على الناس ، و ها هو قد أصبح ملكا على يهوذا و أورشليم ، لكن هل أحلامه ستقف عند هذا الحد أم ستمضى إلى هواها ، خاصة فى وجود نبى اليهود زكريا ؟

- لقد وصلنا إلى قصر الملك فاسيل بروما يا مولاى هيرود العظيم ؟

فاق هيرود من ذكرياته على صوت الحوذى ، الذى بشره بوصوله لقصر شقيقه فاسيل فى روما ، و كان هذا الأخير يقف أمام باب قصره و قد ألقت الإبتسامة ظلالها على وجهه إبتهالا بزيارة

أخيه الأصغر ، و كان يقف بجواره امرأة شقراء شديدة الفتنة ، و قد بدت الإبتسامة على شفتيها جامدة ، و عينيها تتطلع بدهشةٍ لذلك الملك الشاب الذى وحد أورشليم و يهوذا على ذبابة سيفه ، و قد هالها منظر الملك و بطانته تلتف حوله كالعقد الذى يحكم الرقبة ، له أن يُزينها و له أن يخنقها ، و كانت هناك فتاة صغيرة تقبض على يديها ، كانت شديدة الجمال بعينيها الزرقاوتين ، و خصلات شعرها الذهبية ، التى بدت

كخصلات الذهب التى تصطف فى خشية لتنحدر على كتفين لهما استدارة ساحرة ، و قد توج هذا الجمال براءة الطفلة التى لم تتخط سنوات عمرها الخمس ، و قد قالت فى دهشةٍ :

- من الزائر يا أمىَّ ؟

- إنه عمك يا حبيبتىَّ .

تلاقت أكف الأشقاء و كان العناق ثمة اللقاء الحار ، و الإبتسام و حلو الكلام و معسول الحروف راية و شعار هذا اللقاء ، حتى وقعت عينا هيرود على المرأة الفاتنة و بجوارها طفلتها التى ورثت جمالها ، فقال مُخاطبًا فاسيل :

- هل المرأة حظيتك ؟

ضحك فاسيل و هو يقول نافيًا :

- بل امرأتىَّ .. اقبلى يا هيروديـاس .

اقبلت هيروديـاس و الطفلة قابضة على أصابعها نحو هيرود ، الذى قبض بدوره على أصابعها و لثمها فى هدوء و عيناه مُعلقة بعينيها ، على حين قال فاسيل فى فخر ، كأنه أتى بشئ عظيم :

- أليست شديدة الفتنة يا شقيقىَّ ؟ .. إنها من أجمل نساء روما ، و أكثرهن فتنة و تيهًا و دلالا، أما هذه فهى ابنتنا الوحيدة سالومى .

ختم فاسيل عبارته حاملا ابنته الصغيرة بين ذراعيه ، مُشيرًا نحو القصر ليدلف الجميع إليه ، فأشار هيرود لخصيانه أن يأتوا بامرأتيه من العربة ليكونا بجواره ، ليدلف الجميع إلى القصر لتبدأ مراسم الإحتفال بقدوم ملك الملوك هيرود بن أنتيباطر ، فارس فرسان روما و رسولها فى

الشرق ، و قد تعود هذا الأخير أن يزور روما مرة كل عام ليوطد علاقته بالسناتو و بصديقه مارك أنطونيو ، و يستشف مطامع أخيه فاسيل ، التي محاها الزمن ليحل محلها الرضا و القناعة .

* * *

داخل بيت بسيط من بيوت أورشليم ...

استيقظت إليصابات من غفوتها مفزوعة على أثر صيحة عظيمة قد صدرت من زوجها النائم خلعت فؤادها من صدرها ، فراح بصرها ناحية زوجها الراقد بجوارها ، لتجده ينام غير هنئ البال ، كأنه يُصارع أحدًا فى منامه ، فتارة يميل ناحية اليمين و أخرى ناحية اليسار ، و كان يُزبد ببعض الكلمات الغير واضحة ، و التى لم تستوعب منها سوى النذير .. إنها مريم .. المعبد .. البابلى ، فخشيت على زوجها أن يخمد جسده من شدة الأنفعال و يُفارق الحياة مودعًا ، فأخذت تربت بحنان مزيج بالهدوء على صدره مُنادبة إياه :

- زكريا .. زكريا .

و مع كل نداء كان انفعال زوجها يزداد ، فزادت خشيتها عليه ، فربطت على أنفاسها و استجمعت شجاعتها لتخرجه من عالمهِ الغامض ، الذى يُعانى فيه من شئ ما ، فنهض زكريا و الذهول يسبغ ملامح وجهه ، و قد كان وجهه يتفصد بالعرق اللزج الذى اغرق جسده و سترته ، و بدت أنفاسه تتلاحق فى عُجالة من شدة قصرها ، أما إليصابات فقد حملت على نفسها إحضار جرعة ماء كانت تسكن جفنة فخارية ترقد بجوارها و قدمتها له ، فجرع ما فيها دفعة واحدة ، حتى اخذت أنفاسه فى الهدوء

رويدًا رويدًا ، و قد خيم الصمت على الغرفة ، كأنـه صمت القبور اللهم من أنفـاس زكريـا الثقيلـة و تنهدات إليصـابات الموتـورة ، حتـى قطعت إليصابات جدائل الصمت لتقول فى صوتٍ هادئ ، مُستفسر :

- أهو ذلك الحُلم الذى يُؤرق منامك دائمًا ؟

اومأ زكريا برأسه آن نعم ، مُحاولا إبتلاع لعابه الذى تسمر على باب حلقومه ، و هو يقول بصوتٍ واهن من الفزع :

- نعم .. إنه نفس الزائر الذى بشرنى بالنبوة فيما مضـى ، و لكنه أتى هذه المرة بشكل لم اعتاده ليروى لىَّ ما كاد يُذهب بعقلىَّ و يُوقف قلبىَّ حسرة و كمدًا .

انتقل القلق و التوتر بدوره لإليصابات و هى تقول :

- هدئ من روعك و قص على مسامعىَّ ما رأيت .

انتظرت إليصابات رد زوجها ، الذى لاذ بالصمت و قد جحظت عيناه ، و شخص بصره بنظرات زجاجية ، كأنه يُحاول استرجاع ما رآه قبل أن يقول :

- لقد ضـاقت بىَّ الدنيا ذرعًا ، فعمدت إلى ربوة عالية تتوسطها شجرة كافور اعتدت الذهاب إليها كلما ضاقت نفسىَّ لأرتل آيات التوراة ، و اتدبر أمور الكون ، و اغوص فى أمجاد الأولين من أنبياء بنى إسرائيل ، و عندما فرغت من كل هذا ألقيت برأسىَّ نحو شجرة مُغمضًا جفنى ، سابحًا فى قدرة الرب على خلق الدنيا من وحوش و نباتات و مياه تحتضن الأرض بين ضلوعها ، حتى ...

عاد زكريا لصمته مرة ثانية ، و عيناه مازالتان شاخصتان جامدتان ،

، فهَمّت زوجه بحثّهِ على الحديث ، خاصة إنها لمست فى حديثه ما يُقلق و يُشحذ العقل ، لولا أن قاطعتها عبارة زوجها المُستطردة :

- لقد شعرت بأن الأرض تهتز من سافلى رويدًا رويدًا ، كأنها تريد أن تلفظنى من عليها حتى اشتدت ثائرتها ، فظننت إنها النهاية المُرتقبة ، خاصة و أنا ألمح الوحوش و القوارض تعدو من حولىَّ فزعة ، فنهضت بدورى لأنجو بنفسىَّ قبل أن يُصيبنى غضب الرب ، لولا أن لمحت على مرمى البصر قطيعًا عظيمًا من الخيول تقترب منىَّ ، مُخلفة ورائها سحابة عظيمة من الغبار و الأتربة ، فعلمت أن الأرض رضخت لحوافر الخيل التى تدكها دكا ، و أن الدنيا مازالت باقية ، و أن الحياة مازالت ممدودة .

- ماذا حدث بعد ذلك ؟

- بادئ ذى بدء ظننت إنه قطيع من الخيول قد فر من صاحبهِ ، و لكن بعدما اقترب منىَّ بعض الشئ رأيت شبحًا يعتلى أحد الخيول العالية و يسوقها نحوى ، و العجيب فى الأمر أن الخوف الذى كمن فى صدرى قد فر هاربًا لتسكن الطمأنينة ، حتى حط الفارس و قطيعه أمامىَّ مُباشرة ، كان هو ذلك الفارس الذى بشرنى بالنبوة برأسهِ الذى يُشبه الكرة الملساء ، و قد عجزت كالعادة فى تبين ملامحه ، فأخبرنى إنه زكريا بن لدن بن مُسلم بن صدوق و إنه من نسل الأنبياء ، و يقطن الناصرة حيث دور حملة دم النبوة ، فأخبرته أننى نبى الله زكريا بن لدن بن مُسلم بن صدوق و أننى من نسل الأنبياء ، و أن امرأتىَّ من الناصرة .

عاد زكريا لصمته مرة ثانية ، ليرى مدى تأثير كلماته على زوجه ، التى

فتت فى عضدها ، فبدى القلق على وجهها و هى تعض على شفتيها من شدة التأثر مُخاطبة زوجها مُتسائلة :

- و ماذا بعد ؟

- اخذنا الحديث عن التوراة بما فيها من قصص الأنبياء و مُعجزاتهم ، ثم طال بنا الحديث ليشمل ما حل على إسرائيل من غضبٍ حاق بها سبعين عام ، بسبب تلك الفتن التى صنعها الملك الوثنى أنتيباطر و من بعده ابنه هيرود .

عند ذكر زكريا لاسم الملك صرخت فيه زوجه ناصحة إياه أن يصمت ، فنهرها بحركة من يده أن لا تخش شيئا ، فالله هو الجبار المُنتقم ، ثم استطرد ما سكت عنه قائلا :

- و قد تبع بنو إسرائيل هذه الفتن فحط علينا الرب الوبال بما اقترفته أيدينا ، و عندما رأى الفارس الوجوم و الحزن قد مسحا على وجهىَ دعانى لأن أمتطى إحدى خيوله ، التى كانت تتلون تحت أشعة الشمس ، فتارة آراها حمراء بلون الدم ، و أخرى أراها شهباء و تارة أعود لأراها شقراء ، فوقع اختيارى على جوادٍ أحمر كقلب جهنم التى توعد بها الرب الأشقياء من عباده ، و كان له شعرًا غزيرًا و ناعمًا كما خيوط الحرير ، و قد كاد شعر ظهره أن يلمس صفحة الأرض ، و ما أن ركبته حتى دوت عبارة الفارس فى أذنىَ رنانة تخطب موافقتىَ على دعوته لما أسماه برحلةِ الزمان ، لأرى فيها أخبار بنى جنسىَ الماضى منها و الآت ، و وافقت .

- و ماذا شاهدت ؟

- فور امتطائى للجواد أسرع مُدبرًا خلف جواد الفارس الذى أخذ يقطع المسافات و يجتاز الفيافى و الحقول كأنه برق السماء ، حتى حط على أرض حمراء ، الصهد يتلظى منها ، و كان على مبعدة منا إناس كثيرون ، كل واحد منهم ينهش لحم الأخر و يقضم منه قضمة فى وحشية و ضراوة ، فشعرت بغصة فى حلقىَّ و أنا أسأل الفارس عن هوية هؤلاء الناس ، فكان رده أغرب مما أراه .

- و ما رده ؟

- لقد اخبرنى أنهم بنو قومىَّ ، و هذا حالهم بعدما رفع الرب روح كليمه و نبيه موسى ، خاصة بعدما زاد آثمهم ، فأصبح حالهم قطع الأرزاق و مشاع القتل ، و السبى ، و اصبحت السرقة هى شغلهم الشاغل ، فبدى الواحد منهم كأنه يأكل من لحم أخيه ، و رحلنا فى عُجالة كما أتينا فى عُجالة لنحط على أرض آخرى .

- أين هبطتما ؟

بدت عينا زكريا تترقرق بالدموع عند هذا الحد من الحديث ، و قد آثر الصمت ، و لكن تحت سُلطان إلحاح نظرات زوجه ، اخذ يقول بصوت يُشوبه الحزن و يقطر منه الأسى ، و قد بدت فى حلقهِ غصة تحاول جاهدة وأد كلماته ، التى جاهد ليُخرجها للنور ، قائلا :

- لقد حططنا على أرض خربة ، و قد ماتت الزروع أسفل أقدامنا ، و هلكت الدور من حولنا ، منها ما سقط جدرانه و منها ما هو قائم على الأرض بلا سقف ، و منها ما آثر الرحيل فخمد على الأرض كومة من التراب ، لقد بدت لىَّ فى الوهلة الأولى إنها قرية مهجورة ، و لكن

كان هناك إحساسًا غريبًا يُراودنى ، كأننى أعرف القرية و هذه الدور حتى رأيته راقدًا ، رابضًا .

- من هو ؟

- بيت الرب ، و قد تهدمت جدرانه و نهبت أطباقه الذهبية و قد حل الخراب عليه ، و قد مثل أمام أبوابه النخرة رجل فى حلةٍ بهيةٍ ، و قد بدا عليه إنه ملك عظيم الشأن ، له طلعة بهية ، و كان يبتسم إبتسامة هادئة .

- من هو ؟

- لقد اخبرنى الفارس إنه فى زمان غير زمانى سيأتى رجل بابلى سيذل ناصية اليهود ، و يحرق توراتهم إلى أن يشاء الرب أن تجمع على يد رجل سيُميته الله مائة عام ثم يُحييه ليكون حكمة للعالمين ، و سيُصبح أحفاد يعقوب رقيقا ، حتى يأتى ذلك الملك الماثل أمام باب بيت الرب ، و يُعيد أمجاد اليهود و يأمر بإعادة بناءه ، و جلب كل ما سُرق من أوانى ذهبية و فضية .

- و من يكون هذا الملك الكريم ، الذى سيُرسله الرب لنصرة شعبه المُختار ، و يُعيد له كرامته و حريته ؟

- إنه ملك يُدعى إخشويرش .. إخشويرش بن دارا بن قمبيز ملك ملوك كوش و ما فى بطانتها .

انحدرت دمعة ساخنة على وجنتى زكريا صانعة الأخاديد الرقيقة ، و قد آثر الصمت ، و لكن هذه المرة طال به الحال ، حتى يُهئ للرائى إنه فقد القدرة على الكلام ، على حين اخذت إليصابات تربت على فخذه مُرددة :

- إن كل ما رأيته أمرًا مُقدرًا أن تراه عيوننا ، فهذا قدرنا الذى شاء

به الرب ، فلا تحزن ولا تبكى ، فحياتنا خطوات مُقدرة عند رب الكون .
زادت كلمات إليصابات من حدة تأثر زكريا ، فانهالت دموعه زخات زخات ، مُبللة لحيته التى ضرم فيها الشيب من جَرَاء مُضى الزمن ، و قد قال من بين دموعه :

- أنا لا أبكى على ما سوف يلم ببنى إسرائيل و بيت الرب وحدهما ، و لكن على ما سيلم بىَّ و بنسلىَّ .

جحظت عينا إليصابات عندما رنا إلى سمعها كلمة زوجها بما قد سيلم بنسلهِ ، فهى امرأة عاقر لا تنجب البنين أو البنات ، و قد جف زرع بطنها رويدًا رويدًا مع مرور الزمن ، كنبات حنطة هبت الريح عليه فاذهبت به ، فساورها القلق أن زوجها اشتهى من الدنيا زينتها ، فتزوج من أخرى ، فسألته بحروفٍ وجسة ، و أذن تهاب سماع الإجابة ، و لسان مُتردد :

- هل .. هل تزوجت من امرأة أخرى لكى تنجب لك البنين ، ليرثوا سلسال النبوة الذى ينحدر من دور آلك ؟

- حاشا لرب سليمان أن أدخل على امرأة غيرك .

زادت حيرة إليصابات ، فكيف يتسنى أن يكون لزوجها نسلا و هى امرأة عاقر و قد حط الشيب عليها ، فنهل من خصوبتها و من صحتها ما جعلها أشبه بجذع نخلة جوفاء ، و زوجها لم يقترن بأخرى ؟ .. تحولت خواطرها و تساؤلاتها لعبارات قلقة ، اصابها الجزع ، فقال زكريا مُجاوبًا :

- عندك حق فيما احل بك ، عندما هممت أن امتطى جوادىَّ لنرحل

عن هذه البقعة التى ألبسها الخراب ثوبه الأسود ، وجدت طفلة ماثلة خلفى ، تجذب طرف ثوبىَ ، كأنها ظهرت من العدم ، و كانت عيناها شديدة الصفاء ، فقرأ الفارس فى عينى الدهشة فقال مُجاوبًا إنها مريم البتول ، زادت حيرتىَ ، فأنا لم أفهم من مريم هذه التى تعبث بطرف ثوبىَ ، و قد اشارت بأصبعها نحو بقعة بعيدة ، لم ألمح فيها سوى أطياف سوداء ، فأخذت اقترب بخطوات ثقيلة ، أثقلها الأعياء و الحزن ، لأجد امرأة شديدة الفتنة تقبض على رأسٍ ، بدت لىَ رأس شاب فتى ، يبدو إنه كان شديد الحُسن قبل أن تفصل رأسه عن جسده ، و كان الرأس يُردد .. إنها زيجة باطلة .. باطلة ، فعُدت أدراجىَ حيث يسكن الفارس ، و قد هم لسانى أن يعبث بكلماتٍ تطلب العون من الفارس ليُوضح لىَ ما رأيت ، لولا أن قال هو أن هذا الرأس لشاب هو آخر نسلىَ ، و سوف تحزن الدنيا لمقتله ، ساكنى الأراضين السبع و حارسى السموات العُلا ، و سيكون لقبه الشهيد ولد الشهيد ، لأنه شهد بالحق ، و لو تمنى الدنيا لنالها بإشارة من أخمصهِ ، و لكنه أبى و استكبر على الفحشاء ، قال الفارس هذه العبارة و هو يعدو مُبتعدًا عنى ، حتى كادت صورته تلحق بصوتهِ الذى غاب ، بعدما رفض أن يتحرك قيد أنملة ، أعلمتى لماذا أبكى يا امرأة ؟

اخذت إليصابات تعقل الأمر برويةٍ ، حتى قالت بصوت خامل :

- إنه أمر عجيب يجمعه الرب لميقات معلوم ، اذهب لمحرابك و اذكر الرب واتلو آيات التوراة لعلها تزيل ما حاق بصدرك من هم وغم .

وجدت إليصابات زوجها على حالهِ و الجمود يُغلف حركته و الصمت

يُلجم لسانه ، فاستطردت عبارتها و الإبتسامة تزين وجهها ، قائلة :

- إنها أضغاث أحلام ، فكيف يتأتى لنا أن ننجب أبناء و الشيب يُزين رأسانا ، و العُمر قد مضى بنا و نخر المرض عظامنا فأصبحت هشة كصفحة ماء ، أقل شئ يُعكرها .. هيا .. هيا يا رجل اذهب لمحرابك ؛ فالشمس أوشكت على الشروق ، و خُدام بيت الرب سيتوافدون تباعًا .

انصاغ زكريا لكلمات زوجه ، و هو يُحاول إقناع نفسه إنها أضغاث أحلام ، و إن أبليس تجسد له فى صورة ذلك الفارس الذى بشره بالنبوة فيما مضى كما تجسد لآدم أبو البشر فى صورة الحية أحيل كما روت التوراة ، فعمد إلى طست به ماء فاتر ليغسل وجهه لعل لمزات أبليس تنفض عن رأسه ، ثم اتجه نحو ذلك الركن الخاص ، الذى يتعبد فيه و طوى توراته تحت إبطه و هم بالخروج من المنزل ، لولا أن استوقفه طرق رقيق على باب منزله ، كأن صاحب الطرقات يخشى أن يُوقظهم و يكتفى بمعرفة هل آل البيت نائمون أم أخذتهم يقظة اليوم الجديد ؟ .. على حين قالت إليصابات فى توجس سائلة زوجها :

- من يطرق باب دارنا فى مثل هذا الوقت الباكر ؟

قال زكريا مُطمئنا زوجه :

- ربما كان أحد خدام بيت الرب لم يجدنى فى محرابىَّ فجاء ليسأل عنىَّ .

ثم وجه خطابه للطارق ، قائلا :

- من الطارق ؟

- إنه أنا عمران بن باشم بن أمون يا سيد زكريا ، و معى زوجىً حنة .

تهللت أسارير زكريا و أليصابات ، و قد حفرت الإبتسامات على الوجوه ، و قد انتفضت إليصابات من مرقدها لتمتثل بمقربةٍ من زوجها ، الذى فتح باب داره على مصراعيه ، ليتلقى عديله عمران بالقبلات و الأحضان ، و كان الأمر بالمثل مع إليصابات و شقيقتها حنة .

التف الجمع حول مائدة مُتواضعة تضم بعض من حليب الماعز و عسل ، و بعض من رقائق الشوفان و الحنطة قد اعدتها إليصابات فى عُجالة إحتفاءًا بزيارة شقيقتها و زوجها من الناصرة ، و شرع كل واحد فى ألتهام ما يمتثل أمامه من طعام ، فيما عدا عمران بن باشم ، الذى آخذ يتنحنح قائلا :

- فى حقيقة الأمر يا سيد زكريا أن الأمور تدهورت فى الناصرة ، و أصبح مشاع الناس هو الفساد و القلق و التوتر ، الفلاحون هجروا الزراعة ، فتحولت الجنان الخضراء إلى فيافى جرداء ، الكل تناسى تعاليم التوراة ، الكل تناسى الأولين ممن حاربوا فى سبيل أن نحيا حياة رغدة ، فأصبح الرجل يستحل دم و لحم و عرض أخيه ، و ما زاد الأمر سوءًا قوانين ذلك الحاكم الطاغية هيرود بن الأدوميين .

شرد زكريا فى تلك الصورة التى رسمها عمران عن حال ذويه من الناصرة ، و التى طابقت ما شاهده مع ذلك الفارس الذى زاره فى منامه ، الكل يأكل من لحم الكل ، عاد زكريا من شروده على صوت إليصابات ، الذى قطع أواصر أخيلته ، مُرددة :

- إن السيد عمران يُحدثك عن رغبته فى أن يكون خادمًا من خدام بيت الرب معك و أنت لاهيًا عنا .

- عفوًا ، يبدو أننى شردت بعض الشئ .

قال عمران و ابتسامة هادئة تزين مُحياه :

- عندما وجدت الحال تدهور بالناصرة ، قفزت صورتك إلى ذهنىَ يا سيد زكريا و أنت بجوار الرب تقرأ فى كتابهِ ، و تشم عبق الجنة بين أروقة بيته ، فأردت أن أشاطرك هذه البركة ، خاصة بعدما نهل الزمن من صحتىَ و سلب منىَ الشباب و لم يترك لىَ سوى الشيب ، فأردت أن أختم حياتىَ ختامًا حسنا .

قالت حنة مُقاطعة عبارة زوجها المُسهبة ، داعية له قائلة :

- بارك الرب فى عمرك و بدنك يا من تسكن الروح ، و تقتل وحدتىَ و تسبغ علىَ الطمأنينة و الأمان .

- بارك الرب فيك يا زوجىَ الحنون .

قالت إليصابات مُداعبة شقيقتها حنة ، و هى تربت على فخذها فى حنو :

- أهو ما يُسمى بغرام المشيب ؟

طوت حنة نظراتها بعدما احتوتها بين جفونها ، و قد ضرمت حُمرة الخجل وجنتيها ، على حين قال زكريا مُوجهًا عبارته لعمران :

- إن الرب يفتح أبواب بيته لكل يهودى مُؤمن رغب عن حياة الدنيا و رغب فى حبه و لقاءه ، المهم أن يأتيه العبد مُخلصا ، مُكفرًا عن ذنوبه ، مُضحيًا بنعيم دنيته ، يرضى بجلد الماعز لباسًا له عوضًا عن الحرير، و يرضى بكسرة خبز جافة من الشوفان و بعض الماء الفاتر

بدلا من اللبن و العسل .

قال عمران بفرحةٍ غامرة :

- و رب البيت بأقل من هذا أحيا ، يكفينى بركة السماء ترفرف حول أيام عمرى الباقية ، قبل أن تنصرم فى أمور دنياوية .

- إذا فبيت الرب يُرحب بك خادمًا من خدامه .

استطرد عمران على عبارة زكريا قائلا :

- و طوع بنان نبيه السيد زكريا بن لدن بن مسلم و شقيقى فى التوراة .

* * *

-٢-

انصرمت الأيام ، و انقطع عمران للعبادة بجوار زكريا ، فكان يقضى معظم نهاره داخل المعبد ، و أغلبية ليله يقرأ قصص أنبياء بنى إسرائيل مع نبى بنى عشيرته ، و يُرتلا أصدح التراتيل ، فكان يُصيبه الخدر و يستشعر ريح الجنة ، فيزداد ألحافه على طلب المزيد من خدمة رب موسى و هارون و يوسف و إسحاق ، فكان يُوصل ليله بنهاره طالبًا عفو الله و رحمته .

أما عن قوت يومه ، فكان يقطتع ساعات من نهاره ليعمل مع زكريا فى أعمال النجارة التى برع فيها ، فكان يبغى من هذه الحرفة الحصول على ما يُقيم رمقه و رمق زوجه حنة ، حتى لا يُصبحا حملا ثقيلا على زكريا و زوجه ، و من وجه آخر أراد أن يتشبه بالأنبياء الذين كانوا يعملون بالنجارة .

أما عن أليصابات و حنة ، فكانتا تذهبان إلى المعبد بدورهما بعد انقطاعهما عن أعمال المنزل المُتواضعة و القليلة ، ليجلسا فى الشرفة المُثلثة التى أعدت للنساء ، و قد دثرهما إيمان عميق ، فالأصوات الملائكية تعبأ كل ركن بالمعبد ، مُرددة أجمل الترانيم ، فتصفو النفوس ، و ترقى لعوالم من الصفاء و النقاء .

بعد انتهاء زكريا و صهره عمران من التعبد داخل بيت الرب ، خرجا إلى الشارع فى طريقهما لمنزل الأول ، لينالا قسطا من الراحة قبل عودتهما للمعبد مرة آخرى ، و قد اخذ كلا منهما يتلمس آيات الخالق فى كل شئ يُحيط بهما من نبات و جماد و بشر ، و كلا منهما يتغزل فى

الآية الألهية الماثلة أمامه بأجمل العبارات ، حتى شرد عمران عن ركب زكريا ، الذى توقف بدوره باحثا عن سبب شروده ، فوجده ينتصب كالمسمار و يتطلع فى حفنةٍ من الغلمان يلهون فى سعادة و مرح ، و قد تحجرت عيناه على إبتساماتهم الجذابة ، و عندما سأله زكريا عن سبب شروده و إنجذابه للهو الصبية فأعرب عمران قائلا :

- لقد رأيت فى هؤلاء الصبية طفلا تاقت له نفسىَ ، و تمنت عينىَ أن تقر به ، و ود قلبى لو يُهلل مع صرخاته و عويله ، و لكن الله لم يشأ ، و ها هو الزمن ينهل منى ما يجعل الدنيا فى عينى هينة ، فوددت أن ابصر لهؤلاء الصبية ، حتى لا يموت معنى الأبوة فى قلبىَ .

- هذه مشيئة الخالق يا عمران ، لا تعترض على ما هو مكتوب عليك .

- حاشا لرب يوسف و يعقوب أن يكون تذمرًا منىَ أو قلة إيمان ، و لكن تاقت نفسىَ للذرية يا زكريا ، لقد نهل منى الزمن ما جعلنى كعجائز نخل مُنقعرة تذرها الرياح ، و ها أنا اشيخ و اهرم دون بنين يُخلدون سيرتىَ كما خلدت سيرة الأولين من أجدادى ، و زوجى حنة قد جف رحمها ، و عطب حبلها ، و ماتت عزيمتها ، فتحول شوقها للحبل و الولادة لغيرة عمياء تطيح بىَ ، و تجعل صدرى يضيق لأتفه الأمور ، كل هذا و شعور الرحيل للعالم الآخر يجتاح صدرى بضراوة ، كأن مَلك الموت يحُط على كتفى ليتحين الفرصة ليقبض روحى .

- لا تسأم يا عمران و لا تضيق ذرعا ، فزينة الحياوات كثر ، فتمن على الله أن يمنحك ما يقر عينك و يسعد قلبك عوضًا عن الذرية ، وكفانا

ما نلقاه من حب الناس يا أخى .

- و لكن ...

- تمن .. تمن يا عمران على الله أن يرزقك الذرية الصالحة ، لعل الدعاء يكون فيه الصلاح لأمتنا و لنفسك المُشتاقة الآبقة .

- يرزقنى الله أبناء و أنا فى مثل هذه السن ، و الشيب قد خط شعرى ، و المشيب نخر عظامى ، و لحيتى كادت تعانق الأرض من كثرة أعوامى ؟

- تمن على الله يا رجل ، فإبراهيم الخليل انجب و قد تخط من العمر ما تخطيناه .

رفع عمران عيناه للسماء مُناجيًا الله أن يُطفئ ظمأه و جذوة شوقه للذرية بما فيه الصالح ، و بما هو مكتوب عليه ، كان يدعو بصوت خفيض لم يتعد صدره ، ثم رحل مع زكريا إلى عين هذا الأخير .

* * *

داخل إحدى غرف الهيكل الكبير ، اجتمع عشرات الكهنة من صدوقيين و فريسيين و بعض كهنة السنهدرين - بيت دين له مكانته عند يهود بنى إسرائيل آنذاك - و قد عم الهرج و المرج ، فتجدهم ما بين واقفا و جالسًا ، مُتحاملا على آخر و صامت ، و منهم من يُهيئ نفسه للصراع مع نظيره ، كان الجمع موتور ، مشبوب ، الصخب يصم الآذان بحروف طمست من تداخلها مع أترابها ، حتى صاح كبير كهنة السنهدرين أن اصمتوا ، فبدأ الهدوء ينشر عباءته رويدًا رويدًا حتى هدأ الجمع ، فقال فيهم بروية :

- إن الإختلاف الذى بينكم فريسيين و صدوقيين لا يتطلب قدح نار العداء بينكم ، فكلنا آل علم و دين ، فدعونا نزن الأمور بميزان العقل و الروية لا بميزان الصوت الصارخ الذى يدفعكم إليه الشيطان ، و لا ننس أننا فى بيت الرب ، فعلينا ألتزام الخشوع ، أما عن سبب النزاع بينكم ، فالفريسيون يرون أن بعد الموت هناك حياة آخرى و بعث ، ...

قاطعه صوت جمع الفريسيين الذى ايد مُعتقده ، على حين استطرد كبير كهنة السنهدرين كلماته :

- و الصدوقيون يرون أن الحياة واحدة ، زائلة دون رجعة ، ...

قاطعه صوت جمع الصدوقيين هو الآخر ، الذى ايد مُعتقده ، فبدا بعض الحنق يرتسم على وجه كبير كهنة السنهدرين ، الذى قضم حنقه و قال مُخاطبًا صدوقيا كبير الصدوقيين :

- اعرض ما لديك يا سيد صدوقيا .

اعتدل صدوقيا فى جلستهِ ، مُتنحنحا و هو يقول :

- أقدم خالص شكرى و شكر آل الصدوقيين لسيد كهنة السنهدرين لحضوره مجلسنا هذا للنظر فيما اختلفنا عليه مع الفريسيين ، أما عن اعتقادنا فى عدم البعث ، فنحن نرى أن كل حى على هذه الأرض خلق مرة واحدة بروح واحدة ، منحها الرب من روحهِ لأدم أبى البشر أجمعين ، حيث يقول الرب فى كتاب موسى .. (و جبل الرب الآله أدم ترابًا من الأرض و نفخ فى أنفه نسمة حياة ، فصار آدم نفسًا حيًا) ، و كتب على هذه الروح أن تورث حتى فناء الدنيا و موت الإنسان ، حتى تظل مُعذبة إلى أن يشاء الرب ، لعصيان آدم لأوامره ، فيقول الرب فى كتاب موسى

(و قال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك و اكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك) ، فكيف بعد ذلك أن يبعث من يموت و يُحرق جسده و قد أصبح رمادًا منثورا ؟ .. هذا هُراء و عبث بناموس موسى .

عند هذا الحد هاج و ماج الفريسيون ، مُدافعين عن إتهام صدوقيا لهم بالعبث بناموس موسى ، و مُحاولة إلصاق هذه التهمة بالصدوقيين و ألقاءها على عاتقهم ، مُتهمين إياهم بتسخير بعض آيات الرب لما يتناسب مع أهوائهم ، و هنا عمد قيافا و حنان خصيّ كبير كهنة السنهدرين لثبط ثورتهم و جدالهم ، و الرضوخ لرغبةِ كبير السنهدرين فى سماع الطرف الآخر ، فدعا كبيرهم للحديث ، و قد اثنى على الأول بجميل الكلمات و عذب المديح مثلما فعل نظيره ، ثم قال :

- أما عن ما أعتقدنا فيه من بعث الإنسان بعد موته ما هو إلا نتيجة و تحليل للعديد من الأسئلة التى دارت فى خلدنا نحن الفريسيون ، فمثلا لماذا خلق الرب جنانه فى السماء ، حيث يقول فى كتاب موسى .. (و اخذ الرب الآله أدم و وضعه فى جنةِ عدن ليعملها و يحفظها) ، و لفظة يعملها هنا تشير إلى عمل سوف يُبذل ، أى حياة آخرى ، و وجود جنة يسكنها خدام الرب يعنى وجود مكان يلقى فيه المُفسد عذابه ، و العذاب يعنى وقوع فعل العمل إيضًا ، أى حياة آخرى ، و من جانب آخر ما من نبى بُعث فى قومنا إلا و بشر المُتقين بجنات عدن التى سكن فيها آدم ، و حذر المُفسدين من نار تلظى ، لا يُخمدها ماء أو رمال ، اعدها الرب لهم ، فكيف يُعاقب من مات و رحل إلا ببعث جديد يبثه الروح التى سوف

تخضع للحساب ؟

عاد الهرج و المرج مرة ثانية ، و زاغت الكلمات حيث البزئ منها ، و تطاولت الأيدى لتأتى بما حُرم عليها ، على حين اشار كبير السنهدرين إلى قيافا و حنان ، اللذان سعيا لفض الإشتباك القائم ، و كل منهما يلوح بيده فى الهواء طالبًا الهدوء و ألتزام السكينة ، و ظل الوضع على ما هو عليه بضعة دقائق حتى هدأت النفوس ، و قال كبير السنهدرين :

- كلاكما ليس بمُجدف ولا مُدعى و لا مُتطاول على ناموس موسى ، كل واحد منكما لديه

حجته و براهينه التى تبدو صحيحة ، و لكن ما أنتم عليه جد خطير و يحتاج إلى التحرى .

- و ما العمل يا كبيرنا ، فكل طائفة منا تدعو فى الناس بما تظن و تعتقد ، فلن تجد الناس منا إلا الكلام و نقيضه فتضيع هيبتنا و يزول آثر دعوتنا فى نفوسهم .

لاذ كبير السنهدرين بالصمت المُطبق ، مُحاولا الإجابة على الاستفسار المُلقى عليه ، و لكن دون جدوى ، على حين مال قيافا عليه و ألتقم أذنه ليهمس إليه ببعض الكلمات ، التى ادخلت البشر إليه ، لتفرج أساريره ، و هو يقول :

- ألم تقروا و معكم سائر كهنة الجليل أن زكريا بن لدن جاء نبيًا من عند الرب ، و غضبة له ، و قد جاء مُناديًا فى الناس أن ارجعوا عن طرقكم الشريرة و عن أعمالكم الشريرة ، فلِمَ لا تذهبوا إليه فيقول فيكم ما أنتم فيه مُختلفون ؟ .. فإن قال قولا كريمًا كان حقا نبيًا من عند الرب

، و إن كان الصمت أو التجديف آيته فالرجم جزاء إدعاءه النبوة .

لقى إقتراح كبير كهنة السنهدرين قبولا من الجمع ، على الرغم من تفهمهم أن هذا الأختبار ما هو إلا شرك عظيم لزكريا ، و إعلان لعداوتهم له منذ إدعاءه النبوة ، و ألتفاف العامة حوله ، يسمعون كلامه ، و يأتمرون بأمره ، و مع هذا عمدوا إلى محراب زكريا ، الذى يسكنه مع عمران ليتدارسا فى أمور الدين و الدنيا ، و بعد مضى الدقائق التمهيدية للقاء ، عرضوا عليه ما لديهم من مُعضلة ، و كل فريق يجتهد لتبرئة ساحته ، حتى فرغوا جميعًا مما لديهم ، و زكريا يلوذ بالصمت ، مُصغيًا لحديثهم بثغر بشوش ، على حين قال أحدهم مُستفسرًا :

- يا سيدى .. ألست نبيًا جاء من عند الرب لهدايتنا ، حتى لا نضل ضلال الأولين ؟

- بالحق بعثت فيكم ، أن اقضوا قضاء الحق ، و اعملوا إحسانا و رحمة كل إنسان مع أخيه ، و لا تظلموا الأرملة و لا اليتيم و لا الغريب و لا الفقير و لا يُفكر أحد منكم شرًا على أخيه فى قلبكم .. هكذا بعثت .

- إذا ما رأيك فيما بين يديك ؟

- باسم الرب أقول .. ألم تروا الشمس تطل علينا فى الصباح مُشرقة ، ليضمر إشراقها فى وسط النهار ، و يموت نورها فى الليل ، لتعم الظلمة فى أوله ، و تبهت فى مُنتصفه ، و تقشع فى آخره لتعود الشمس مرة آخرى بعد موتها ؟

قال الجمع فى إقتضاب :

- بلى .

- أليس هذا ببعث ؟

هتف الفريسيون دون الصدوقيون فى إقتضاب :

- بلى .

على حين قال نفر من الصدوقيين بشئ من الغباء لنقل دفة الحديث و المراوغة :

- و لكننا نسأل عن بعث الإنسان بعد موته .

تفهم زكريا ما رنا إليه الرجل من مراوغة دلت على ضعفٍ نخر سوسه فى قلبهِ ، فقال :

- يقول الرب فى توراته المُرسلة على نبيه موسى بخصوص هذا الأمر .. (لقد أرانى يهوشع الكاهن العظيم قائمًا قدام ملاك الرب و الشيطان قائم على يمينه ليُقاومه ، فقال الرب للشيطان لينتهرك الرب يا شيطان ، لينتهرك الرب الذى اختار أورشليم ، أفليس هذا شعلة مُنتشلة من النار ؟) ، و السؤال هنا يا سادة لماذا خلق الرب الشيطان و خلق معه النار ؟ .. أليس الشيطان خلق لقياس إيمان البشر ، و النار خلقت لتكون جزاءًا لقوم باغين يبعثون ليقذفون فيها ؟

قال جمع الفريسيون فى إقتضاب ، و البشر يطل من عيونهم :

- بلى .

- يقول الرب إيضًا فى توراته المُرسلة على نبيه موسى بخصوص هذا الأمر .. " و كان يهوشع لابسًا ثيابًا قذرة و واقفا قدام الملاك ، فأجاب و كلم الواقفين قدامه قائلا انزعوا عنه الثياب القذرة ، و قال له انظر قد اذهبت عنك إثمك و ألبسك ثيابًا مُزخرفة ، فقلت ليضعوا على

رأسه عمامة طاهرة ، فوضعوا على رأسه العمامة الطاهرة و ألبسوه ثيابًا و ملاك الرب واقف ، فأشهد ملاك الرب على يهوشع قائلا هكذا قال رب الجنود إن سلكت فى طرقى و إن حفظت شعائرى فأنت ايضًا تدين بيتى و تحافظ ايضًا على ديارى و أعطيك مسالك بين هؤلاء الواقفين ، فاسمع يا يهوشع الكاهن العظيم أنت و رفقاؤك الجالسون أمامك ، لأنهم رجال آية ، لأنى هأنذا آتى بعبدى الغصن ، فهوذا الحجر الذى وضعته قدام يهوشع على حجر واحد سبع أعين ، هأنذا ناقش نقشه يقول رب الجنود و أزيل إثم تلك الأرض فى يوم واحد ، فى ذلك اليوم يقول رب الجنود يُنادى كل إنسان قريبه تحت الكرمة و تحت التينة " ، و هنا يُرينا الرب صورة مُفصلة لكيفية بعث المُتقين ، حيث يُطهرهم من ذنوبهم كما يتطهروا من ثيابهم القذرة ، ليمنحهم من رحمته ما يثقل ميزان الخير عندهم ، ليدخلوا جنته التى خلقها لإمتاعهم ، يوم يُنادى الواحد منهم قريبه من تحت كرمة أو من تحت تينة مُفاخرًا بما هو فيه .. هاتان آيتان من آيات البعث بعد الموت ، الحق أقول لكم يا سادة أن البعث مُتمم الدنيا ، و هو البرزخ المفضى لدار الحق .

دبت السعادة فى نفوس الفريسيين لتغلبهم على الصدوقيين ، القوى المُنافسة لهم فى بنى إسرائيل ، وقد نهض الفريسيون مُتذمرون ، يسبون زكريا و يتهموه بالخرف ، و التجديف ، و الإفتراء على موسى و مانزل عليه من ربه ، لتتحول القضية للتشكيك فى نبوة زكريا ، فالصدوقيين يرونه عجوزًا مُخرفا ، ادعى النبوة لكى يسكن بيت الرب وسط كهنة الجليل ، ليأخذ من الدين تجارة يتربح منها ، على حين يرى الفريسيون

أنه نبى أتى بالحق ، و ظل هذا الصراع يتفاقم و يتصاعد دون رادع له ، حتى حسمه العامة ، بأن زكريا رجل حق بُعث فيهم لهدايتهم فى وقت غابت عن أرضهم النبوة و الرسالات ، فضلت الناس عن سبيل الرب ، ليتبعوا بشرًا مثلهم زادوا فى ضلالهم .

* * *

كرت الأيام حلوة هنية ، و آل بيت زكريا مُنغمسين فى العبادة و التقرب من رب موسى و هارون ، و لكن ظل شوق عمران لمن يورثه فى لقبهِ يُداعب تلافيف عقله ، فكان يشرد كثيرًا عن الجلسات ، و أصبح يأثر الإنزواء بنفسهِ فى المعبد ، داعيًا الله حتى النشوة و الثمالة ، حتى يُغالبه النعاس من شدة الإرهاق و التعب ، فيحط رأسه مكان جلسته و ينام .
حتى كتب على بيت زكريا أن تتبدل الأوضاع فيه ، فذات مرة و عند عودة عمران و صهره زكريا من المعبد بشرته إليصابات بأن الله استجاب لدعواته و بأن حنة حُبلى فى شهورها الأولى ، فاهتز قلبه فرحًا ، و هو يتمايل فى سعادةٍ ، كأنه ريشة فى مهب الريح طربت لرقص نسائمه ، و عم الجمع الحبور و هم يُراقبون حمل حنة ، و بطنها تعلو يومًا بعد يوم لتنذر بقدوم وليد تأخر عشرات الأعوام .
كان حبور حنة عظيمًا بمولودها ، فكانت تقضى نهارها فى المعبد مع شقيقتها كعادتهما ليقيما فرضهما ، فكانت تبصر زوجها و زكريا و هما يخدمان فى بيت الله ، فكانت تحتلها رغبة شديدة و شوق عظيم أن وليدها سوف يكون له شأن عظيم ، فكانت تبتهل فى نهارها لوليدها أن يحميه الرب من خبيث الأنس و الجن ، و أن يحميه من شرور نفسه و أن

يرزقه التواضع و يُلهمه الصبر على بلوة قومه ، و في ليلها كانت تداوم على قراءة قصص الأنبياء ، فكان يشرد بها الخيال لتتصور وليدها كمثل داود و هو يصرع جالوت ، أو كموسى في تصديه لفرعون مصر و إصراره على إنقاذ بني إسرائيل من براثنه، و لكن غيم الأحزان لم يأفل عن بيت زكريا طويلا ، و سعادة آل بيته بحمل حنة لم تدم طويلا ، فقد حل المرض على عمران و جثم على صدره ، ليتحول إهتمام حنة عن وليدها لينصب على خدمة زوجها ، بعدما انقطعت عن زيارة المعبد لتظل بجواره ، و قد اشتدت عليه وطأة المرض ، حتى عجز جسده الواهن عن التصدي له ، فوافته المنية ، ليلتحف آل زكريا بالحزن ، و قررت حنة العودة للناصرة مرة أخرى لتضع مولودها هناك ، و قبل الرحيل انطلقت إلى المعبد لتودع زكريا ، فوجدته يعمل في حزن و فتور على رحيل شريك كفاحه داخل بيت الرب ، فطرق رأسها طارقا ، أن تنذر ما في بطنها لخدمةِ المعبد ، ليقوم بما كان يقوم به أبوه ، فيعود للبيت شرفه ، و لاقت الفكرة راحة في نفسها ، فشخصت ببصرها نحو السماء ، و قالت في حميةٍ :

- ﴿ رب ، إني نذرت لك ما في بطني محررًا ، فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ﴾

و عمدت إلى الناصرة وحيدة ، لتصاحبها الأحزان و الذكريات في أيام وحدتها ، و لهفة رؤية وليدها يُصبرها على آلام فراق زوجها ، حتى كرت الأيام سريعًا ليُفاجئها المُخاض ، و قد وضعت حملها في يُسر بين

أهلها من آل الناصرة ، و قد كانت فتاة ، فعبس وجهها ، و شخصت للسماء مُخاطبة ربها :

- ﴿ رب ، إنى وضعتها أنثى ، و أنت أعلم بما وضعت ، و ليس الذكر كالأنثى ﴾

فور انتهائها من عبارتها عبرت سير نساء الصالحين مثل صافورة ابنة شعيب سيد الماء ، و أخت موسى و هارون ، فتهللت أساريرها ، و قد لمست فى ابنتها عفة نساء الأنبياء و عظمتهن ، فقررت أن تسمى ابنتها مريم تيمنا بأخت موسى و هارون ، و قد عُرف عنها التقوى و عفت ثوبها ، فعادت لتشخص مرة ثانية للسماء مُستطردة عبارتها ، قائلة :

- ﴿ و إنى سميتها مريم ، و إنى أعيذها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم ﴾

تقبل الله مريم قبولا حسنا ، و أنبتها نباتا حسنا ، فكانت تمضى سحابة نهارها مع أمها فى خدمة البيت ، ثم تعرج إلى البئر تجلب لها الماء بعدما تسقى الأغنام القليلة التى تملكانها ، و ثم تسعى لقضاء حاجتها و حاجة أمها من طرقات الناصرة ، فإذا جن الليل وفد إلى الدار الأقارب ، و اخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ، و عندما يتطرقوا لأحوال الدين و الأنبياء و يتقاذفون أخبار نبى الله زكريا فى أورشليم فكانت تعيرها سمعها ، فكان حديثهم يُصادق هوًا فى نفسها ، خاصة عندما يتطرقوا لبُشرى زكريا بقدوم المسيح الموعود ، الذى سيكون آخر من يُبعث فى

بنى إسرائيل ، و قد كانت المدن اليهودية عن بكرة أبيها لا حديث لها إلا عن المسيح المُنتظر ، الذى سيأتى فى عهد زكريا ليُعاونه فى صد بطش و ظلم الرومان .

و كبرت مريم ، و قد صارت فتاة يافعة يُمكنها الإعتماد على نفسها ، فكان على حنة أن تفى بنذرها لله بأن تنذر مريم للخدمة فى المعبد عوضًا عن والدها ، فهجعت ليلها و هى تقاوم ذلك الشعور الغريب ، الذى يُراودها و الذى يُحرضها ألا تفارق ابنتها ، و لكنها نفضت عنها تلك الأفكار السوداء و استعاذت من نزعات الشيطان و نامت ، لتستيقظ فى صباحها قاصدة أورشليم و بصحبتها مريم ، و قد رسمت الفرحة آياتها على وجهها عندما علمت إنها ستكون بالقرب من نبى الله زكريا ، و إنها ذاهبة لأورشليم لتعمل فى خدمة بيت الله و تكون فى رحاب كهنة الجليل لتسمع كلامهم عن التوراة و الدين .

دخلت حنة و بصحبتها مريم على إليصابات ، التى اخذت تحضن مريم غير مُصدقة إنها اصبحت فتاة يافعة ، شديدة الحُسن ، و حين اقبل زكريا تهللت أساريره لرؤية مريم و حنة ، التى ذكرته بنذرها بتسليم مريم للعُباد المُقيمين فى المعبد ليكفلها أحدهم .

ذاع بين العُباد المُنقطعين للعبادة نبأ امرأة عمران التى جاءت بابنتها من الناصرة لتدفع بها إلى من يكفلها ، فظهرت نوايا كهنة اليهود من قاطنى المعبد من فريسيين و صدوقيين ، و إمتناعهم عن قبول مريم خادمة بالمعبد ، و هذا ليس إلا عنادًا لزكريا ، حتى لا يكون له نفوذًا داخل المعبد يؤهله فيما بعد ليكون حاكمًا عليه ، خاصة بعدما اعلن رفضه

لأسلوبهم فى التكسب من وراء رسالتهم ، بأقتطاع نذور عامة الشعب لهم ، ولكن حب الناس لزكريا و تظاهرهم من أجلهِ و تربصهم بالمعبد كان دافعًا لكى يرضخوا و يوافقوا على ألتحاق مريم بالمعبد ، فتآمروا فيما بينهم أن تؤول كفالتها لغير زكريا ، حتى لا تصبح إمتدادًا له و لأفكاره التى تعارض مصالحهم داخل المعبد ، فتنازعوا فى أيهم يكفلها ، و قد رغب زكريا فى أن يأثر بكفالةِ مريم عرفانا لصهره عمران و صونا لعرضهِ ، و من جانب آخر فإن إليصابات زوجه خالتها ، فصاح فى الحضور :

- أنا أحق بكفالتها منكم ، فعمران أبوها صهرى ، و زوجى خالتها .

قال آخر :

- و لما تأثر بها وحدك ؟ .. ما أحد أحق بها من أحد .

- فما ترون ؟

- أن نضرب الأقلام ، و من يخرج قلمه ينال شرف كفالتها .

وافق الكهنة على هذه الفكرة ، خاصة و أنهم غلبة على زكريا ، فأخذ كل منهم يخط اسمه على قلم خشبى ، حتى فرغ الجميع ، فعمدوا إلى طفل صغير لم يبلغ الحنث بعد ليختار أحد الأقلام من الجعبةِ التى اكتظت بها ، فأخرج الطفل قلم زكريا ، الذى سعد لكونه سيكفل مريم ابنة عمران ، و لكن الكهنة غضبوا لذلك و استنكروا حق زكريا ، و اجمعوا على إعادة الإقتراع ، و قد اشار أحدهم أن يذهبوا بأقلامهم للنهر و يلقوها ، و من يسير قلمه ضد التيار يكون له حق كفالة مريم .

ألق الجمع أقلامهم ، و قد دعا زكريا ربه قبل أن يلقى قلمه فى النهر ،

و قد سارت الأقلام كلها مع التيار إلا قلم زكريا الذى سبح فى إتجاه مُغاير ، فعلم الكهنة إنها مشيئة الله ، و أن زكريا أحق بكفالة مريم ابنة عمران ، ولا مناص من ذلك ، خاصة و قد ذاع بين الناس أنهم يتربصون لزكريا لأغراض تقبع فى أنفسهم .

فكفلها زكريا ، و اخذها لتكون خادمة من خدام المعبد كما كان أبوها ، و قد علمها ما كان أبوها يفعله ، و قد خصص لها مكانا للعبادة فى الطبقة العلوية من المعبد ، فى ذلك المكان المُخصص للنساء ، الذى كانت تجلس فيه أمها مع زوجه أليصابات ، و كانت مريم تلحف و تصر على الإصغاء لدروس الكهنة و العُباد و أصحاب الجليل و هم يتناقشون و يتباحثون فى أمور الدين ، و عندما تأتى سيرة المسيح عيسى يضطرب قلبها ، و تتعثر أنفاسها ، كأن مسًا شيطانيًا أصابها ، و عندما يسدل الليل سدوله تجد نفسها غارقة بين أوراق التوراة ، باحثة عن أخبار ذلك النبى الذى سيُولد فى أحدى قرى بنى إسرائيل ليتزعمها بعد ذلك ، و سيكون من نسل داود ، و ستلده امرأة عذراء لم يدخل عليها رجل ، و يأتى بمعجزات يعجز العقل عن تصديقها ، و سيُنزل أمراء الأرض و الجبارين عن عروشهم ، و ينزع أنياب مُرتكبى الأثم و الشرور ، و سيأخذ من فتيان قومه ندماءًا و تلاميذا و خصيانا و سيكون منهم من يتسبب فى حرمان البشرية منه ، فسرعان ما تترقرق عيناها و تدمع و هى تشخص نحو السماء و تشرد لتسمع هاتفا يرن صوته فى قلبها و عقلها قائلا :

- إنه منك .

فكانت تسعد و تنام ليلها هنيئة .

مرت الأيام و جاء عيد الفصح ، و قد وفدت الوفود من شتى بقاع الأرض تسوق البهائم و النحائر أمامها لتنحر على باب معبد الرب ، و فى بطانتها الفتيان العزب الذين يرغبون فى الزواج - و قد اشتهر عن بنات أورشليم عفة البدن ، و حلو اللسان ، و جمال الوجه ، و عظمة النسب ، فكان يتهافت الفتيان للأقتران بهن - و كل منهم يحمل من المهور ما عظم و غلى ليُقدمه لمن تروق له و يخطب ودها .

كان من بين هذه الوفود وفد أتى من الناصرة ، و كان يضم بين جنباته حنة ، التى اشتاقت لرؤية ابنتها ، و جنحت لتضمها بين ضلوعها ، و تبصر وجهها الصبوح .

لاقت حنة ابنتها و الشوق يطل من عينيها ، و كل خلجة من جسدها تشتاق لها ، و كان الشعور مُتبادل ، فقد تاقت مريم للقاء أمها بعد غياب طال ، و كانت ترى فى عينيها بيتهما الصغير الذى يتربع فى الناصرة ، و التى طالما اشتاقت له .

بعد نحر الذبائح أمام المعبد و تقديم القرابين ، اعطى كبير الكهنة الإشارة لفتيات أورشليم - اللاتى لم يتزوجن بعد - للخروج صوب السوق ، و يتبعهن الفتيان الراغبين فى الزواج ، كل واحد يبحث عن مراده ، و قد خرجت كل الفتيات ، و لم يبق سوى مريم التى كانت تجلس فى محرابها تاركة أمها حنة مع خالتها أليصابات يتجولان فى المدينة ، و قد كانت تحتفل بعيد الفصح بقراءة التوراة و الدعاء و التضرع ، و قد رفضت الخروج مع سائر الفتيات ، حتى تبقى عذراء لعل المسيح يكون منها .

بعد انتهاء عيد الفصح قررت حنة أن ترحل و بصحبتها ابنتها مريم لتقضى معها بضعة أيام فى الناصرة ، ثم تعود مرة أخرى لأورشليم ، و رحلت مريم عن أورشليم بجسدها و لكن روحها مازالت عالقة بها .

بعد رحيل مريم عن بيت زكريا ، شعر هذا الآخير أن هناك فراغًا قد حل برحيل مريم كان يُفسد عليه حياته ، و قد بدأ يُراوده ذلك الإحساس الذى كان يتكلم عنه عمران قبل رحيله .. الذرية ، و لكنه كان ينفض هذه الفكرة عن رأسه ، و لكن على مضض ، خاصة و قد بلغ من العمر أرزله ، و قد اصبحت زوجه امرأة عجوز ، عاقر ، و حاول أن يقنع نفسه بأن الله قد من عليه بمريم عوضًا عن الذرية ، و ذات صباح و على فراشه ، اخذ يزوم و يصرخ ببعض الكلمات الغير مفهومة ، و هو مازال يغط فى نوم عميق ، فاستيقظت إليصابات من نومها مفزوعة مُحاولة أن توقظ زوجها ، الذى نهض مفزوعًا ، و أنفاسه تتلاحق فى عُجالةٍ مُرددًا :

- لقد راودنى ذلك الحُلم الذى حلمت به منذ بضعة أعوام مضت .
- خيرًا .. خيرًا يا زكريا .
- لقد كانت الفتاة الصغيرة التى تجذب طرف ثوبىَ هى مريم .. مريم ابنة عمران .
- و ما معنى ذلك ؟
- لا أعرف .. لا أعرف .

* * *

كان الليل هو موعد تجمع بيوت الناصرة بعضها مع بعض ليتجاذبوا

أطراف الحديث ، و قد كان الأهل يجتمعون ، و كانت دور الناصرة تفتح على مصراعيها ، فلا يبق أحدٌ وحيدًا ، فيما عدا حنة و ابنتها مريم ، كانا يفضلا الوحدة و العزلة عن صفصفة الكلام ، و النميمة التى تملأ المجالس كالعلكة فى الأفواه ، كانا يتحدثا فى أى شئ و كل شئ ، فقد كان كلا منهما يشتاق لحديث الآخر .

و ذات ليلة لم ينصرم منها سوى أولها طرق طارق على باب حنة ، و قد كان أحد الأقارب من الناصرة ، و بعد الترحيب الحافل الذى أقدمت عليه حنة ، قال الرجل :

- لقد شبت مريم ، و اصبحت عروسًا جذابة و لها طلعة بهية ، و خير ما تفعله فتاة إسرائيلية أن تتزوج و تنجب من الأولاد أقواهم ، و من الفتيات أجملهن ، و أنا أرى إنه قد حان أوان زواج مريم .

طربت حنة لكلمات الرجل ، بعدما لاقت هوًا فى نفسها ، فقالت بعد شرود دام برهة واحدة :

- إن ما أحب على الأم أن تشاهد عُرس ابنتها ، و كم أود أن أرى زفاف مريم قبل أن توافنى المنية !!

تهللت أسارير الرجل قبل أن يقول :

- و ها أنا جئت لأخطبها منك .

- لمن ؟

- ليوسف بن يعقوب النجار .

- يوسف شاب كريم ، و من بيت كريم ، و هو قريب لمريم ، و مريم تعرفه و أنا أزكيه ليتزوج من ابنتىْ .

رحل الرجل و البشر يملأ صدره ، بعدما لمس فى حنة القبول ، ليترك هذه الأخيرة و السعادة تغمرها حتى كاد قلبها يتوقف ، و اخذت تخاطب روح زوجها ، قائلة :

- زمى يا روح عمران ، ها قد كُتب على ابنتك النكاح ، لتأتى لك بذرية صالحة .. اليوم اتممت رسالتىَ التى عهدت لىَ بها يا عمران .. اليوم خُطبت ابنتك لرجل كريم من بيت داود .. هيا ارسل فى طلبى فقد اشتقت لك .

على حين ركدت مريم إلى حجرتها ، و الدموع تكاد تنفصد من عينيها ، و قد احست بسحابةٍ سوداء من الأسى تنتشر فى صدرها ، كانت تسمع فى المعبد أن المسيح سيأتى من نسل داود ، و ستضعه عذراء ، و كانت تحلم ككل عذراء فى إسرائيل أن تكون أم ذلك النبى المُنتظر ، أما و قد خُطبت إلى يوسف بن يعقوب ، فقد تبخر من رأسها ذلك الحلم الجميل .

و فى الصباح ذاع أمر خطبة مريم ابنة عمران ليوسف ابن يعقوب النجار ، و قد أجل الزواج إلى أن يُقيم يوسف له بيتا يُقدمه للعروس هدية عُرسها ، و احست مريم شوقا إلى أورشليم .. إلى المعبد .. تراتيل الكهنة و العُباد .. إلى جوار زكريا و السماع له ، فاستأذنت أمها أن تعود إلى أورشليم لحين انتهاء يوسف من إعداد عش الزوجية ، و لم يعترض يوسف على سفر خطيبته لتطارح قريبها الشيخ العجوز زكريا .

عادت مريم لمحرابها لتلمس شعورًا غريبًا قد اجتاحها و سعادة تفوق سعادتها بخطبتها داهمتها فور دخولها إياه ، و هى تشم عبير التقوى والإيمان يُعبأ أرجاء المعبد ، و تلمس حفيف الملائكة فى الجدران ،

، و طاقت لأيامها الخوالى قبل ذهابها للناصرة ، تقضى نهارها فى خدمة المعبد ، و تسهر ليلها فى قراءة التوراة .

و ذات ليلة ، بينما كانت غارقة فى إبتهالاتها ، احست كأن شخصًا فى محرابها ، فتلفتت فلم تجد أحدًا ، فسرى الخوف فى أوصالها ، فأرهفت حواسها ، و اتسعت عيناها السواداوتان رعبًا ، و قد مس أذنيها حفيف صوت ، فغمغمت فى فزع :

- من هناك ؟

و إذا بصوتٍ عذبٍ يقول :

- أنا رسول ربك إليك .

غرق المكان فى ضوءٍ باهر ، فخفق قلبها فى شدةٍ ، و انبهرت أنفاسها ، و تفصد العرق منها ، و انبعث صوتٌ عذبًا مس شغاف قلبها :

- يا مريم ، إن الله اصطفاك و طهرك ، و اصطفاك على نساء العالمين ، مريم اقنتى لربك و اسجدى و اركعى مع الراكعين .

ساد المحراب سكون رهيب ، و ظلت مريم مُتسمرة فى مكانها و الذهول يعتريها ، و قد شلت حركتها ، حتى إذا أفرخ روحها ، احست أمنا يخشاها ، و طمأنينة تسكب فى روعها ، فملئت نشوة ، و سالت دموع الفرح على خديها ساخنة ، و قد خرت ساجدة لله رب العالمين ، شاكرة .

و فى الصباح الباكر دخل عليها زكريا المحراب ، ليهاله منظرها والدموع تغرق وجهها و هى ترقد تتصفح التوراة ، و قد بدا وجهها شديد النور و الضياء ، فتحول جزعه لإبتسامة هادئة ، سرعان ما ذبلت ليحل محلها الدهشة ، فقد ابصر سلة تعج بشتى صنوف الفاكهة التى فى غير

أوانها ، فقال :

- يا مريم ، أنى لك هذا ؟

- هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

- حقا .. إن الله هو الرازق الوهاب .

رحل زكريا مُودعًا مريم تاركا إياها تفر فى صفحات التوراة ، باحثة عن شتى الأخبار التى تتحدث عن المسيح ، الذى بشرها الله إنه سيكون منها ، على حين رقد زكريا فى محرابه مُتفكرًا فيما رآه فى محراب مريم من نعم الله ، التى لا يحظ بها إلا أولياءه ، فجذبه تفكيره إلى رغبته فى الإنجاب ، التى اخذت تداعب نفسه ، فشخص بصره إلى السماء رافعًا يديه ، و قد سالت الدموع ساخنة من عينيهِ ، و هو يقول داعيًا :

- يا رب .. يا رب .. يا رب .

فأتاه صوتا من عدم يُردد :

- لبيك .. لبيك .. لبيك .

- ﴿ رب إنى وهن العظم منى ، و اشتعل الرأس شيبا ، و لم أكن بدعائك رب شقيا ، و إنى خفت الموالى من ورائى ، و كانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا يرثنى ، و يرث من آل يعقوب ، و اجعله رب رضيا ﴾ .

- يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحي لم نجعل له من قبل سميا .

بعد عدة أيام أتته البُشرة ، إن امرأته حُبلى و تشتهى من الأطعمةِ ما يندر وجوده ، فسارع إلى محرابه ليُصلى و يحمد الله على نعمتهِ ، و قد صدق

وعده معه ، فقال داعيًا :

- اللهم اجعل من ذريتى من يُساندنى فى الدعوة ، فقد وهن عظمى و ضعف بصرى ، فبات من يُساندنى ضرورى حتى يتسنى لى ردع المُخطئ .

أتاه صوت من عدم مُرددًا :

- إن الله يُبشرك بيحي مُصدقا بكلمةٍ من الله و سيدًا و حصورًا و نبيًا من الصالحين .

حل البشر على وجهِ زكريا بعدما لمس أن ابنه سيكون نبيًا من بعده ، يحمل لواء الجهاد ضد الطغاة و الظالمين .

- ﴿ رب ، اجعل لىَّ آية ﴾

- ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴾

طفق زكريا خارجًا على الناس ، يفيض وجهه بالبشر ، و يخفق قلبه بالسرور ، و أخذ يرمز إلى قومهِ أن يُسَبِّحُوا بُكرة و عشيا ، فقد استجاب له ربه و وهب له يحي .

و تمر الأيام مُهرولة لتضع أليصابات حملها و قد كان ذكرًا ، و قد قال زكريا و البشر يغمره :

- إنه يحي .. إنه هدية ربىَّ .

حمل زكريا على عاتقهِ تربية يحي على الحق و العدل حتى يُصبح عونا له و جديرًا بالنبوة التى بشره بها الله ، ليكون حامى الديار من بعده .

* * *

كانت هيروديـاس زوجـة فاسيل أخـو هيرود مـن رواد عشـق السلطة ، وكان تاج المُلك يُراود أحلامها ، لذلك قبلت الزواج من فاسيل ، مُعتقدة ان هيرود سيُعيده للسلطة مرة آخرى ليكون حاكمًا على إحدى ولايات الشرق التى تتربع تحت بنانه ، و بعد مرور عام من زواجهما صُدمت بواقع الأمر ، ليتضح لها أن زوجها رهن الإعتقال داخل روما من قِبل اخيـه الأصـغر هيرود ، فتحطمت احلامها فـى ان تصـبح ملكـة يتحاكـا النـاس عنهـا و يتداولون أخبارهـا ، مثلمـا تفعل هـى و سـائر النسـاء فـى تناول أخبار نساء ملوك و أمراء رومـا ، و قد جفت شـهوتها و تطلعاتهـا فـى أرتيـاد القصـور ، خاصـة بعدما وضـعت حملهـا .. سالومى ، ابنتها الفاتنة ، التى كانت السبب فى بقائها مع فاسيل ، و تحويل مجرى حياة هيرودوياس ، التى اخذت تبحث بين أحضان أمراء و ملوك الرومان عن منصب لزوجها فى الشرق بجوار شقيقه هيرود ، فكان كل ملك او أمير ينهل من جمالها و أنوثتها ما يقنع رجولته مُمنيًا إياها بتلبيةِ مُرادها ، ثم يخلو بها ، لتتحطم احلامها ، حتى جاء هيرود لزيارة روما بعد انقطاع دام ستة أعوام ، لتبصر ذلك الرجل الذى ظلت تسمع عنـه و عن قوتـه وشكيمته من أهل روما كلها ، صـغيرها قبل كبيرها ، لترى هيئة ذلك الرجل الذى حرم زوجها أن يكون ملكا على أورشليم بخلعهِ منها ، و قد رهن إقامتـه فـى رومـا ، و لكنهـا رات فـى عينيـهِ نظـرات فيهـا اشـتهاء لأنوثتها ، و أنفاس لاهثة خلف فتنتها ، فقررت أن تبادلـه الغرام ، تلبيـة لأحلامهـا العائدة فـى أن تكـون ملكـة ، فتلاقـت عيناهـا بعينيـهِ الـوالهتين فأحست حرارتهما ، و فهمت لغتهما ، فرفت على شفتيها إبتسامة مُشجعة

و قد اشتعلت عيناها برغبة طائشة مُغرية ، زادت من حب و جنون هيرود لها .

ذات مرة طلب هيرود منها أن يختلى بها فى غفلةٍ من نسائهِ و زوجها ، فأصابها التردد .. هل تخون زوجها و والد ابنتها ؟ .. و ما يُضيرها ذلك ، فهى كانت تمارس الرذيلة مع أمراء البلاط الرومانى بحثا عن فرصة لزوجها ليعتلى عرش أى ولاية ، و لكن الكل تخلى عنها ، و زوجها راضـى بوضعه المُشين الذى يتنافى مع أحلامها ، و هيرود يُغازلها ويُصارحها بحبهِ مُلوحًا لها بكرسى العرش فى أورشليم ، فما كان منها أن تنكص و تغلق ما يُفتح أمامها من أبواب طالما حلمت بأن تقف على أعتابها ، فقررت أن تأثر هيرود بسحر جسدها ، الذى تعرى أمامه فى إبتذال فى غفلةٍ من الجميع ، لتحمل أحشائها من أدران ذكورته ما داعب أنوثتها ، و قربها من تحقيق حلمها فى أن تصبح من نساء هيرود .

و ذات مساء نشب عراك بين امرأتى هيرود ، ابنة الحارث العربية و مريمنة ابنة الرومانيين ، التى تطاولت على الأولى و نعتتها بأنها و ذويها يتميزن بالهمجية ، فما كان من الأولى إلا أن دافعت عن نفسها لتنال من مريمنة ، التى اخذت تعدو نحو مخدع زوجها الخاص - استقل هيرود بمخدع لنفسه حتى يحلو له الأتيان بالرذيلة مع هيروديـاس - و عندما مثلت أمام باب المخدع ترانى لسمعها تأوهات امرأة تعيش لحظات متعة ، فتناست أمر ابنة الحارث و تعاملت كأنثى تشك فى خيانةِ زوجها لها ، ففتحت باب المخدع لتفجع فى زوجها و هيروديـاس ، التى تجردت من كل شئ لتأخذ من زوجها معطفا يُدثر جسدها العارى .

الجمت الصدمة لسان مريمنة ، التى فرت حيث مخدعها و الدموع تحفر الخنادق الدقيقة على وجنتيها ، على حين نهض هيرود عن هيروديا س والخوف يعتريه من كشف زوجه مريمنة لطبيعة العلاقة الآثمة بينه و بين زوجة شقيقه فاسيل ، ليتحول صمته و رضوخه لثورة تأتى ثمارها معه ، خاصة و هو رهين قصره و حينها ستؤيده روما كلها ، و سيُصبح موقفه حرجًا ، أما هيروديا س فعاد شبح الخراب يُراود أفكارها ، فها هى تفقد آخر فرصة لتحقيق أحلامها ، لتتبدد كل أمانيها و تذرى بها الرياح ، ليحوم شبح الموت حولها .

عمد هيرود لمخدع زوجه مريمنة ليُهدء من روعها ، و يُحاول إقناعها بأنه كان فريسة شباك زوجة أخيه ، و هى التى كانت تراوده عن نفسه ، طمعًا فى عودة فاسيل لحكم ولاية فى الشرق ، فغره فتنتها و أساليبها المُلتوية فى إغرائهِ ، فوقع فى المحظور .

لانت قسمات وجه مريمنة و هى تحاول إقناع نفسها برواية زوجها ، التى توقن إنها غير حقيقية ، و لكنها كانت تحب هيرود ، فرغبت بصمتها عن فعلة زوجها الحفاظ على حياتها مع زوجها و أولادها ، و قد تحينت هذه الفرصة التى دقت على بابها لتتخلص من غريمتها ابنة الحارث ، فاعربت لهيرود عن رغبتها فى تسريحهِ لابنةِ العرب والتخلص منها بعد وصولهم لأورشليم ، لتصبح هى زوجته الوحيدة و من تقاسمه العرش ، و ما كان من هيرود سوى التظاهر بالرضوخ ، فهو من تلك النوعية التى لا ترضخ لأوامر الغير ، خاصة لو كانت امرأة .

ظل هيرود يُداعب أرضية حجرته ذهابًا و إيابًا و القلق يُساوره بعدما جفى النوم عينيه ، و هو يعقل ما ألم به ، فلو رضخ لرغباتِ زوجه مريمنة و سرح ابنة الحارث ، فسينقلب العرب عليه فى البلدان المُحيطة بأورشليم ، فيهتز عرشه تحت وطأة أقدامهم إنتقامًا لابنتهم المطرودة ، وبعد ذلك سيُصبح رهين نزعات شيطان زوجه مريمنة ، التى ستسعى دومًا لاستدرار خوفه من إفتضاح أمره ، و إن ماطلها يومًا فى تنفيذ إحدى رغباتها ، أو حجب عنها ، فقد تسارع فى فضح أمره فى روما ، و حينها عليه أن يُواجه جام غضب السناتو ، ثم تسارع فى كشف اللثام عنه فى أورشليم ، ليُواجه حربًا ضروسًا مع كهنة الجليل ، و ذلك الذى يدعى النبوة سيصيح فيهم مُنددًا و مُستنكرًا ما اقترفته يداه ، كما فعل بصدد ما كان يحدث بقلعة ماكيروس ، و ... و ...

و بعد مدة من التفكير و التدبير ، هداه عقله لحيلةٍ عظيمةٍ يتخلص بها من زوجهِ مريمنة و أخيه فاسيل فى آن واحد ، ليستأثر بهيروديا ، لتصبح شريكته فى مُتعته و أحلامه ، دون أن يُواجه جام غضب السناتو فى روما ، أو يخوض حربًا ضروس مع كهنة الجليل فى أورشليم ، بل سيحصل على هيروديا بموافقة السناتو ، الذى سيُشيعه بالحب والدعوات ، و تأييد الجليل و مُباركة نبيه المزعوم .

افترش مخدعه فى سعادةٍ و قد طبع على وجههِ إبتسامةٍ جذلةٍ اخذت تزداد تدريجيًا ، حتى غاب عن الواقع بعدما داعب النوم جفونه ، ليسبح بين لجة أحلامه ، التى جسدت له خطته الشيطانية ، التى دعمها فتنته بهيروديا ، و رغبته فى الهيمنةِ عليها .

و فى الصباح الباكر .. عمد هيرود لمخدع أخيه فاسيل ليُخبره بأوان رحيله لأن البلاد تحتاج إليه ، و خشيته على زمام الأمور أن ينفلت منه ، و ينتهز الثوار غيابه ليحولوا البلاد لكومةٍ من الفتن و الصراعات تدفعه للمغادرة ، فبان الأسى على وجهِ فاسيل ، الذى تمنى أن تطول فترة إقامة أخيه فى روما .

و قبل أن يُغادر هيرود مخدع أخيه الأكبر ليستعد للرحيل اعرب عن حاجته لمساعدة هذا الأخير فى السيطرة على البلاد ، و خاصة أن مملكة إسرائيل تشتعل نارًا بفعل الفتن و الثورات و الإنقسامات التى تعانى منها بسبب الدخلاء و الحقوديين و المُعترضين على سياستهِ و الناقمين على روما ، فلابد من يد بطشاء ، و قبضة من حديد تسيطر عليها ، و تخمد جذوتها ، فعادت أحلام المُلك تداعب رأس فاسيل ، و كرسى العرش يتكون أمامه من خيوط تطلعاته ، و قد لمح هيرود لمعة حادة فى عين أخيه ، فأيقن إنه نجح فى إثارة طمعه فى الحكم ، فقال له حاسمًا :

- هل سترحل معى لأورشليم أنت و أسرتك لتكون عونى فى حكم البلاد كأيامنا الخوالى أم ستتخلى عن شقيقك و أحلام والدنا فى رفع راية روما فى الشرق ؟

- بل سأرحل معك يا أخى لأكون حاكمًا على إسرائيل .

و فى اليوم التالى رحل الجميع عن روما ، هيرود و زوجتاه مريمنة الرومانية و ابنة الحارث العربية ، و أولاده منهما ، و برفقتهم فاسيل وزوجته هيروديا و ابنتهما سالومى قاصدين أورشليم ، و قد كانت مريمنة تنظر لهيروديا بعين نارية ، تود لو تحرقها و تبيدها نهائيًا

حتى يخلو لها وجه زوجها ، على حين كانت هذه الأخيرة تقابل نظرات الأولى ببرود يُطفئ حدة نظراتها ، كمن تثق بنفسها و بجمالها ، و بدأ القلق و الشك يُساور كلا منهما ، ماذا سيفعل هيرود ؟ .. و ماذا سيجنى من فعلتهِ بإعادة فاسيل لحُكم إسرائيل ؟ .. و ذهبت مريمنة إلى أن زوجها هيرود يخطب ود شقيقه و يقبل أن يُشاطره فى حكم البلاد من أجل أن يُبهر عينه بملذات الحكم ، ليعمى عن الفحشاء ، التى تدور بين جنبات شرفه ، بين زوجها و زوجته من صراع لهتك الأجساد ، وارتوائها من الزغب الشهوانى الذى يعتمر به الجسد الأخر ، على حين تساءلت هيروديأس عن سر ما أتى به هيرود ، و هل باحت مريمنة لفاسيل بما رأته فى مخدع زوجها من تلاحم الأجساد البشرية ، التى طاقت للمُحرمات و عفت عن كل ما هو مُحلل ، لذلك يسعى هيرود لإرضائه ، حتى لا يُشهر به أمام مجلس السناتو ، فيقصيه عن سائر ملكه أم إنه فعل هذا من أجلها ليتودد لها و يخطب ودها ، و يُعلن عن هزيمته هو الفارس العظيم أمام جسدها و ما به من فتنةٍ و سحر و شباب ؟ .. و فى كلا الحالتين فهى الرابحة لأن حلمها فى المكوث على كرسى العرش سيتحقق ، سواء بجوار زوجها فاسيل فى إسرائيل أو بجوار هيرود فى يهوذا ، أما هذا الأخير فكان يُغذى مطامع شقيقه فاسيل فى الشرق ، و ما ألم به فى الفترة الأخيرة من أكتشافات عظيمة لمناجم الذهب و الفضة ، حتى سال لعابه من جراء روايات هيرود ، التى داعبت أحلامه ، و دغدغت تطلعاته و اعادت له ذكرياته القديمة ، عندما كان حاكمًا للبلاد بجوار والده أنتيباطر ، قبل أن يأتى شقيقه الأصغر

ليجور على حقهِ و يخلعه من منصبه ، و يُحدد إقامته فى روما إبان مقتل والده ، و لكنه ها هو ذا يعود لملكهِ مرة آخرى ، ليقضى سائر أيامه كملك لا كواحد من عامة الشعب .

-٣-

سكن الجميع قصر طبرية ، أجمل القصور التى تملكها هيرود و أحبها لقلبهِ ، و قد كان يتعلل لفاسيل بعدم إرساله لإسرائيل مُباشرة هو و زوجه و ابنتهما ليتولى مقاليد الحكم لكونه يعمل على تهيئةِ الأوضاع و الشعب لاستقبالهِ حتى يبدأ عصرًا قويًا ، يُخرج به مملكة إسرائيل من ظلام الجهل و الفتن لنور العلم و المعرفة و التقدم ، و قد وجد فاسيل فى كلام شقيقه هوًا ينطلى على نفسهِ فرضخ لما يراه .

و فى صباح اليوم الرابع من وصول هيرود و ضيوفه إلى قصر طبرية ، استيقظت مملكة يهوذا كلها على أثر صياح منادٍ يجوب الشوارع ليزُف للناس خبرًا فجعوا فيه ، فقد وجد الملك هيرود زوجته و أم أبنائه مريمنة فى حضن شقيقه فاسيل ، الذى أتى من روما ليطعنه فى شرفهِ ، و يهتك عرضه داخل مملكته و على مرءا من رعيتهِ ، قرر الملك أن يَصلب العاشقان فى ميدان عام ليُشاهد الجميع ثمن الخيانة ، ثم يُحرقا و يُنشر رفاتهما و رماد جثتيهما فى الطرقات العامة ليدوس عليها عامة الشعب ، و قد اعلن أن يُلاقى أبناؤه من زوجهِ الخائنة نفس الجزاء .. الصلب ثم الحرق ، لأنه يشك فى أصل نسبهم .. هل اتوا من حانوت صلبه أم اتوا نتاج شهوة مُحرمة اقترفتها زوجه مع غيره ممن يعيشون فى قصره من حاشيتهِ و خصيانهِ .

و فى الساعات الأولى من الصباح طوق عامة الشعب المكان و الدهشة تملأ وجوههم ، و العبارات الزاعقة المُنددة بطعن مريمنة فى شرفها تملأ الأفواه لتلقى بها نحو السماء ، لعلها تبلغ قصر طبرية لتصم آذان هيرود

ليعدل عن قراره ، فقد عُرف عن مريمنة الرحمة و الإعتدال ، فكانت تخرج على يهود أورشليم لتخفف عنهم مُعاناتهم من بطش زوجها ، فكانت تكفكف دمع الثكالى من النساء ، من فقدن رجالهن تحت وطأة وبطش هيرود ، و تواسى الفتيات اللواتى فقدن عذريتهن بحراشيف رجال ذلك الطيطان ، و تلهو مع الأطفال كأنها واحدة منهم ، لعلها تنجح فى مسح آيات الحزن و الكدر من وجوههم ، فكيف يتسنى لمن تفعل ذلك أن تخون زوجها حتى و لو كان ظالمًا ؟ .. كيف لمن ذاق الظلم أن يظلم نفسه ؟ .. كيف لمن واست الفتيات اللواتى فقدن عذريتهن قهرًا أن ترخص جسدها فى مُقابل الحصول على نشوةٍ مُحرمةٍ ؟ .. و وسط هذا الهرج و المرج شق جموع الناس وفدٌ من رجال هيرود يسيرون فى صفين ، و فى قلب جمعهم يتوسط قفصان من أعواد البامبو يجرهما بعض العبيد ، كانا فى إحداهما مريمنة و قد ذبل جمالها ، و تعرى جسدها فى إبتذال من أثر تعذيب هيرود لها ، و قد وضح على بعض مناطق جسدها آثار حروق عظيمة اختفت بين خلجات الجِلد ، و فى الآخر كان جسد فاسيل متكوم ، و لم يكن بأحسن حال من مريمنة ، و قد اوثق الجنود أيديهم و أرجلهم بالأصفاد الحديدية ، التى تنتهى بكرة كبيرة من المعدن كنوع من التعذيب ، و قد كمموا فاهيهما حتى تموت صرخاتهما فى صدرهما ، و تقبر أعتراضاتهما بين ضلوعهما .

و مع خطوات الجنود التى تقترب رويدًا من المحرقة ، كان هرج الجمع يقل تدريجيًا ، حتى انقلبت صياحاتهم لصمتٍ مُطبق ، بعدما ألجم مشهد مريمنة و فاسيل ألسنتهم ، و كل أم تعانق ابنتها و الدموع تبلل وجهها ،

كأنها تتمنى لها ألا تحيا مثل هذه اللحظات ، و الرجال يجزون على أسنانهم التى كادت تتحطم تحت وطأة الغضب ، و منهم من كان يعض على شفتيهِ حتى يُدميها حسرة على يده المغلولة عن منع هذا الظلم ، وظل الصمت يُخيم على الساحة ، و الخوف يسرى فى الحضور كالدماء التى تسرى فى العروق ، و هم يُشاهدون مريمنة و فاسيل و الجنود يدفعونهما نحو مصيرهما ، حيث الصُلبان التى ضربت أعلى كومة من الحطب الجاف ، التى تشتاق للنار كشوق الرجال لأجساد النساء ، و اخذ قرع الطبول يعلو فى آليةٍ ليُنذر بوفود رسول الموت ، و الحشود تشاهد جسدا مريمنة و فاسيل يفترشا الصلبان ، و عيونهما تصرخ من شدة الألم ، و أعواد الصلبان تخترق الأكف و الأقدام ليلتحم جسدهما بها ، و قد روت عطشها من دمائهما المُتناثرة ، و ...

ُقضى أمرهما ، فقد عَمَدَ جنديان برشق رمحان حادان صوب قلبيهما ، لتغفو العيون فى نومةٍ لا رجعة منها ، لتعلو ضربات قلب الحضور على صوتِ الطبول ، ليُعلن عن إقتحام الوفد الثانى من المُذنبين ، الذى لم يكن سوى أولاد مريمنة الثلاثة ، و قد غطت رؤوسهم أغطية سوداء ، حتى لا ينهاروا عند مشاهدة جثة أمهم التى مُثِل بها شر تمثيل ، و لم يكن مصيرهم أفضل من مصير أمهم .

و ضرمت النيران فى الحطب الجاف ، الذى اخذ يُزكى النيران و يحثها على الأتيان بالأجساد الخمسة التى تجثم عليه و ترهقه .

و بعد مدة ليست بالقصيرة هدأ كل شئ ، بعدما خمدت النيران و توفت ، و قد تحول الحطب لرمادٍ أسودٍ دُثر أسفله أدران بشرية لخمس جثث ،

كانت فى يوم ما لبشر يمرحون فى شتى أنحاء الأرض ، و فجأة بدأ صمت الحضور ينهار ، و قد نادت طائفة منهم بالقصاص من هيرود ووجوب قتله لما فعله بزوجهِ و أخيهِ و أولاده الثلاثة دون اللجوء للجليل للحكم فيما يدعيه على زوجهِ و شقيقهِ ، و بدأ سائر الحضور يتجاوب مع هذا المطلب ، لتنقلب الأمور رأسًا على عقب ، و يتحول صمت الناس لثورةٍ من الجحافل الثائرة التى تتجه نحو قصر طبرية طالبة رأس هيرود ، و قد انضم إليهم فيما بعد كهنة الجليل يقودهم زكريا ، و قد كان وجود هذا الأخير بمثابةِ النار التى نضحت على الهشيم من قلب الرماد لتشتعل ثورة الشعب ، و قد اجتمعت قلوبهم على لسان واحد يُنادى بالقصاص العادل أو الأتيان بالقرائن و البينة التى تثبت صدق ما يدعيه هيرود .

احاط الثائرون قصر طبرية كما يُحيط السوار بالمعصم مُرددين عبارة واحدة اخذت تعلو حتى كادت تعانق السماء :

- البرهان للجليل أو القصاص من القتلة .

و تحت ضغط أنفعال الشعب ، و فشل جنود هيرود فى حمايةِ أبواب القصر ، خرج هيرود ليخطب فى الشعب الثائر من إحدى الشرفات ، وهو يقول بلسان مُتعثر ، و قلب يعرف الخوف لأول مرة ، فبدت ضرباته مُتلاحقة :

- أنا هيرود ابن أنتيباطر ، و قد اتيت من روما منذ أمد لأحكم مع والدى أنتيباطر فارس روما ، و الذى خلصكم من سطوة و استعباد الحشمونايم ، ليرحل عن دنيانا ، و قد ترك أعباء البلاد فى عنقىَّ أنا وأخىَّ فاسيل ، الذى آثر الحياة الرغدة فى روما عن المُعاناة معكم ،

و لكنى رفضت الفرار و الاستسلام ، و ناضلت معكم ضد أنتيجونس ومن تبقى من شرذمةِ الحشمونايم .. أنا هيرود ابن أنتيباطر جئت فيكم لأحقق كلمة العدل و أخلصكم من ذل و استعباد الأمم الأخرى ، لقد نزلت فيكم ُنزل حق ، ربما اقترفت الأثم معكم بعض الحين ، ربما اتخذت من قلعة ماكيروس معبدًا أتعبد فيه لشيطانىَّ بما استفز مشاعركم و مُعتقداتكم التوراتية ، و لكن حجتىَّ أن لكل إنسان كبوة و لكل ملك ذلة ، و مما لا شك فيه أننى تعلمت من كهنةِ الجليل الكثير و الكثير عندما كنت حاكمًا عليه ، فأرتديت لباس عيدكم ، و شاركت فى إحتفالاتكم الدينية ، وشاطرتكم لحظات فرحكم ، و تألمت لألمكم ، و غير هذا فقد سعيت لجعل بلادكم جنة الرب على الأرض ، فبنيت القصور و الضياع ، و قد طعمتها بالفن الرومانى القيم لأحاكى بكم الرومان ، و اقمت التحصينات العظيمة فى قمةِ ماسادا ، و رممت و قويت أسوار المدينة ، التى قاست الكثير من جراء هجمات المُغيرين عليها ، و الطامعين فى ثرواتها ، ودشمتها بالأبراج العملاقة ، حتى باتت كالقلعة الحصينة ، و التى يصعب على ذبابةِ أقتحامها ، و الأهم من كل ذلك المعبد .. لقد أعدت بناء وترميم معبدكم بعدما آل تحت وطأة الغزوات ، و الذى بدونهِ ما أقمتم صلاة و لا عبدتم آله ، أنا هيرود أعظم حكام أورشليم ، و فى الغد سيشهد التاريخ أن عهدى هو أزهى عصور بلادكم ، أمن يفعل ذلك كله يتجنى على زوجتهِ و أخيهِ ؟ .. و كيف يتسنى لىَّ فعل ذلك ؟ .. فما اقترفته زوجتىَّ مريمنة و أخىَّ فاسيل ليس من الشرف أن أجاهر به ، فالرجل لا يكسر عزيمته إلا فعلة قوية تأتى بها زوجته مثلما فعلت امرأتىَّ ؟ .. لقد ذهبت لروما

لكى أدعو أخىَّ ليُشاطرنى حُكم البلاد ، حتى لا أتجنى على أحدٍ من شعبىَّ فى غفوةٍ منىَّ ، فأكون بهذا قد ارتكبت معصية تؤخذ علىَّ ، و لكن يبدو إنه اشتهى جسد امرأتىَّ عن زهوة الحكم ليطعننى فى شرفىَّ ، فكان لزامًا علىَّ أن أقتص منهما و من نسلها المُلوث بدماء الشهوة و الخطيئة و على مرأى و مسمع منكم جميعًا ، تشاطرونى أحزانىَّ و آلامىَّ كما فعلت معكم و لو لمرةٍ واحدةٍ .

صمت هيرود عن الكلام ليرى آثر كلماته فى عيون من حوله ، و قد نجح فيما رنى إليه ، فبدا التأثير على الناس و قد لانت ملامحهم ورضخت ، على حين نادى أحد كهنة الجليل بأن يسعى هيرود لتقديم الدليل و القرينة على خيانةِ زوجتهِ و مواطئةِ أخيهِ لها من وراء ظهره ، حتى ينجو مما نُسب إليه من كونهِ قتل زوجه لأنها تعطف على يهود أورشليم دون رغبة منه ، كنوع من القهر و الظلم الذى يفرضه عليهم ضمن مُسلسل الاستعباد لصالح روما ، فكان جواب هيرود على ما نُسب إليه :

- هل لرجل و امرأة يلتمسان شهوة مُحرمة فى جنح الليل أن يسمحا بشهودٍ ينظرونهما ؟ .. و لكن هناك شهادة امرأة أخىَّ هيروديا التى تدعم موقفىَّ ، و رواية زوجتىَّ العربية ابنة الحارث رفيعة الشرف ، والتى تستمد مصداقية حروفها من عراقةِ نسبها ، و التى ستحسم الأمر ، و التى ستبرئنى من تهمة التحرش باليهود و تعمُدى قتل زوجتىَّ لعطفها على المنكوبين منكم و المُتضررين من أفعالىَّ .

تقدمت هيروديا من مقدمةِ الشرفةِ لتدنو من هيرود ، و قد عرضت

على كهنةِ الجليل و على جمهور الناس ما يُثبت خيانة زوجها لها ، بأن اكتشفت غيابه عن مخدعه طوال ليلة الآثم ، فظلت تنتظره حتى عاد لمخدعهِ مع أشعةِ الشمس الأولى ، و قد بدا عليه الإنهاك و التعب ، لتفجع بعد ذلك فيما اقترفه مع أقرب الناس له ، لتعلم سبب إرهاقه و تعبه ، ثم انهت حديثها بأن ابدت أسفها للملك هيرود و لشعب أورشليم عما بَدَرَ من زوجها ، و قد اعربت عن موافقتها على الجزاء العادل الذى ناله فاسيل ، ثم انسحبت لأدراجها لتحل محلها ابنة الحارث ، التى بدا عليها الإضطراب و القلق و هى تمسح بعيون وجلة وجه زوجها ، حتى استجمعت بعضًا من قواها لتعرب بلسان مُتلعثم عن رؤيتها لفاسيل و هو يُضاجع مريمنة فى جُنح الليل ، و قد دثر كلا منهما جسد الآخر ، الذى تعرى فى إبتذال و حيوانيةٍ ، و اخذت تلعن حظها العاثر الذى ألحف على أن يُفارق النوم مضجعها ، فتأثر السير فى طرقاتِ القصر حتى يحل عليها الإرهاق ثم تعود للنوم ، و لكن صوت امرأة تعانى من نشوة الاتصال الجسدى أخذ يُداعب سمعها ، فاقتحمت المخدع لتفجع فى غريمتها ، و حرشفة فاسيل تنهل من أنوثتها فى اتصال وجدانى آثم ، تحرمه سائر العبادات حتى الوثنية منها ، فعمدت لزوجها لتخبره بما شاهدته ، ليقتص ممن طعنوه فى شرفهِ و كبريائهِ .

انتهت ابنة الحارث من سرد روايتها ، و قد بدا التأثر على وجهها ، لينفض الجمع من حول قصر طبرية ، و الكل يتساءل أين الحقيقة ، هل فيما لمسته قلوبهم من رحمةِ مريمنة التى نزهتها من كل معصية ، أم فيما رأوه و سمعوه من زوجةِ الملك و زوجةِ فاسيل القتيل ؟

و عاد الجميع لدورهم لتقبر الدهشة أسفل ظلام العقول و رواية ملك الملوك .

* * *

كان الصدوقيون هم القوة الدينية الضاربة فى بنى إسرائيل ، و هم الجماعة التى كان لها أن تتحدى العَلم الرومانى ، و تهدد أمنهم داخل مملكتىّ إسرائيل و يهوذا ، و قد آل كل هذا بعد ما فعله زكريا من نصرة الفريسين - تلك القوة التى تناطحهم فى الإنفراد بالساحة الدينية - و الذى كان له أثرًا عظيمًا فى نفوس العامة ، الذين هجروا مجالسهم ، و بخلوا عليهم بالقرابين و الهدايا ، و زاد الأمر سوءًا بعدما فشلوا فى التحقق من أمر خيانة مريمنة لزوجها هيرود ، فى ظل التعتيم الذى صاحب الحادثة ، فبدأت شوكتهم فى التداعى و الأنهيار ، و خلت قاعاتهم من العامة الجهلاء ، الذين يقرون بعلمهم و عظمتهم .

بدأ صدوقيا كبيرهم يجتمع بجلاوزتهِ و أتباعهِ و أنصارهِ فى محاولةٍ للبحث عن أمر ما يُعيد لهم سيطهم الذى ضاع ، و بريقهم الذى بهت ، و لكن دون جدوى ، فلم يجدوا أمامهم سوى شريعة جديدة من شرائع موسى يتبنوها و يفرضوها على الناس لحين عودة سلطانهم ، و كانت الطهارة و نظافة البدن هى شريعتهم الجديدة ، التى أخذوا ينادوا بها بين الناس ، فأخذوا يجوبوا الشوارع و الطرقات و من يجدوه يرتدى ثيابًا رثة أو غير نظيفة يضربوه على ظهره بالعصى ثم يمزقون رداءه ليسير فى الشوارع عارى الجسد ، دون أن يراعوا شيخا و لا امرأة و لا صبيًا صغيرًا ، و قد نشروا بعض الصبية فى الطرقات ليُحافظوا على نظافتها

و من يُخالف تعاليمهم من العامة يخضع لعقابهم الرادع و دفع ضريبة باهظة يُحددها كهنة الجليل ، فساء حال إسرائيل على أيديهم ، التى تلوثت بذنوب أفعالهم .

كان يحي يرقب كل هذا ، و يسخر من هؤلاء القوم الذين يهتمون بنظافةِ الهندام و الطرقات و يتجاهلون نظافة النفس التى ينظر إليها الرب ، فكان يضيق صدره ، فيعمد للخروج حيث الطبيعة و السكون ، ليتأمل فى كل ما يُحيط به من طير و حيوان و مروج شاسعة .

* * *

انغمست مريم فى التعبد و خدمة بيت الرب راغبة فى صفاء النفس وُقيها ، حتى تكون أهلا لما اختارها الله من أجلهِ و اصطفاها دون نساء العالمين ، و قد كان سؤالٌ يُعربد برأسها .. لأى شئ اصطفاها الله واختارها ؟

طُمست روح مريم عن الدنيا و هى تهيم بين أوراق التوراة ، خاصة كل ما يمت بصلةٍ من قريب أو بعيد بالمسيح الذى ستلده عذراء ، و كان عقلها يشرد حينا ، مِن مَن بنات بيتها تتوسم فيها هذا الشرف ؟ .. و لكن لسانها يظل عاجزًا عن الإجابة ، و ظلت مريم على هذا الوضع حتى داعبها العطش ، و قد لمست جفاف حلقها ، فرفعت دورق الماء الذى يرقد جوارها ، لتستشف إنه خاوٍ على عروشهِ ، فحملته ، و طفقت هابطة إلى الطابق الأرضى حيث بئر الماء ، التى ترقد بالقرب من باب المعبد ، فتعلق بصرُها بالمُصلين و هم يترنمون بصوتٍ عذب شاكرين الرب على نعمهِ الجليلة ، و أصواتهم العذبة ، الطاهرة ، التى تنضح

بأجمل العبارات تسرى بروحها ، فأنتابتها سعادة جمة ، و حل الحبور على وجهها ، مُتمثلا فى إبتسامةٍ وقور تربعت على صفحةِ وجهها ، ولكنها سرعان ما تيبست على شفتيها و هى ترهف السمع بحرص ، وقد خُيل لها إنها تسمع أصواتا تناديها مُرددة :

- يا مريم .. هلمى ، إن الله اصطفاك دون نساء العالمين .

بادئ ذى بدء انتاب الخوف مريم حينا من الوقت ، و لكنه تحول لفضول جعلها تنساق خلف مصدر الصوت ، و قد تناست أمر عطشها و ذلك الدورق الذى تقبض عليه ، و مع كل خطوة تخطوها مُنساقة خلف هاتفها تتباعد أصوات المُصلين ، حتى وجدت نفسها تتوسط جنة فسيحة ، وبيت الرب يبدو هينا على إمتداد بصرها ، و قد توقفت العبارات التى انساقت خلفها بألحاح من فضولها ، الذى حثها لمثل هذه المُغامرة التى لم تعتاد عليها على أمل أن تعرف لأى شئ اصطفاها الله ، و ما سر الفاكهة و الأطعمة التى يرزقها الله بها ؟ .. و لكنها لم تجد سوى الصمت يُغلف ما يُحيط بها إلا من حفيف أوراق الشجر ، و قد جلست أسفل إحداها عاقلة ما حدث لها ، حتى طال مكوثها ، فهمت بالرحيل لولا أن قاطعها ذلك الهاتف الخفى مُرددًا :

-﴿ يا مريم ، إن الله يُبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيهًا فى الدنيا و الآخرة ومن المُقربين ، و يُكلم الناس فى المهد و كهلاً و من الصالحين ﴾

اذهلت البُشرى مريم ، و قد اصابها الإضطراب ، و قد لمست حركة

خفيفة خلفها ، فالتفتت خائفة ، فإذا بشاب وسيم الملامح يشع من وجههِ نور ، فزاد اضطرابها و قد ارتدت مصعوقة ، و قد اتسعت عيناها رعبًا و انبهارًا و قد قالت :

- ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾

فقال في صوتٍ يقطر رقة و عذوبة :

- لا تراعي .

قالت و لازالت في خوفها :

- من أنت ؟

- ﴿ إنما أنا رسول ربك ، لأهب لك غلامًا زكيا ﴾

- ﴿ أنى يكون لي غلام ، و لم يمسسني بشر ، و لم أك بغيا ؟ ﴾

- ﴿ كذلك قال ربك ، هو علي هين ، و لنجعله آية للناس ، و رحمة منا ، و كان أمرًا مقضيا ﴾

نفخ الله من روحهِ ، ثم عادت إلى محرابها ، و قبعت فيه مُطرقة تفكر ، فغشيها همّ و قلق لقد حملت بالمسيح ، و ستظهر عليها علامات الحمل ، فهل يُصدقها الناس ، سيتغامزون عليها و يرمونها بالفاحشةِ ، و لن تستطع لإتهامهم دفعا .

و اخذت الأيام تمضي و مريم غارقة في لجةٍ من التفكير ، و قد كدرها ما توقعته من الناس حين تصارحهم بما لديها من المقال و الفعال .

مضت الأيام بطيئة ، و القلق و الخوف كادا أن يقتلاها ، و قد حبست

نفسها فى حجرتها حتى لا يلحظ أحد ما حل عليها من نحول جسدها ، واصفرار بشرتها ، و ذات يوم فاجئها إقتحام زكريا لمحرابها و آيات الغضب تعتلى وجهه ، و هو يشخص لها بنظراتٍ جامدةٍ ، و قد قال بصوتٍ جامدٍ حاول أن يُضفى عليه بعض الحنية :

- مالى أراك مُتعبة ، و قد نحل جسدك و اصفر وجهك ، و ... ؟

ابتلع زكريا باقى عبارته ، و قد شعر أن كلماته قد فشلت فى طمث غضبه ، فقال و هو يُشيح بوجههِ عن مريم و قد صبغ صوته بنبراتٍ جامدةٍ ، تنذر بغضبٍ شديدٍ :

- إن الناس يتهامسون و يتغامزون عليك ، و يقولون إنك حملت سفاحًا ، و مُداراة لعملتك ادعيت إنك تحبلين بالمسيح ، مُخلص اليهود وآخر من يُبعث فيهم .. اصدقينى القول يا مريم أهو يوسف النجار من أتى بك و أحبلك ؟

قالت نافية :

- لا و الله .. ما كان يوسف ليفعلها .

- إذا من ؟

- أقسم لك بمقامىً ببيتِ الله أننى أحبل بالمسيح ، ألم تقل التوراة أن المسيح ستلده امرأة عذراء ، و ها أنذا قد اصطفانى الله دون نساء العالمين ليُرسل ملائكته ليُبشرونى بهذا الشرف ، و كم تمنيت أن أناله .

طفق زكريا يعقل ما سمعه من مريم حتى لانت ملامحه ، و قد داعب شبح إبتسامة وجهه و هو يقول فى إقتضابٍ :

- مُباركٌ يا أم المسيح .

و سرعان ما انقلبت سحنته كأنه تذكر شيئا ما :

- و لكن كيف علم الناس بأمرك الذى شاع على الملأ حتى كاد يعُم أورشليم كلها ؟

زاغت عينا مريم بعض الشئ مُحاولة استعادة ذاكرتها ، ثم قالت :

- عندما بشرنى ملاك الرب بأنى سأحبل فى المسيح تلبية لمشيئةِ الله ، الذى يقول للشئ كن فيكون ، انتابنى رعبٌ عظيمٌ .. هل سيتقبل الناس أمر حَبَلى للمسيح أم سيرموننى بالبغاء و الخطيئة ، و ما كان لىَّ إلا وأنا بالبئر أن تحدثت مع ثلاثة من النساء كن يتحدثن عن المسيح و قد اخبرتهن بأننى سألد نبى آخر الزمان و مُخلص اليهود ، و حينها علمت ما ينتظرنى من الناس عندما ينتأ بطنى ، فقد اتهمونى بأننى استعجلت اللذة قبل زواجىً و النتيجة مولود من سفاح ، و لهذا عمدت للموارات عن عيون الجميع فى محرابىً .

انهمرت دموع مريم غزيرة ، و قد دفنت رأسها فى صدر زكريا ، الذى اوغره ما ألم بمريم من سوء السُمعة ، و قد راجت الشائعة شتى بقاع أورشليم حتى حطت على الناصرة ، فظن الناس أن يوسف هو الفاعل ، لقربهِ منها لكونها خطيبته ، و قد دنى قطوف الثمار قبل أوانها ، فتحولت نظراتهم عنه ، و قد ألحف العامة على مُقاطعته ، و الإعراض عنه ، حتى ظن يوسف فى نفسهِ السوء لما يراه فى عيون الآخرين ، فاستوقف أحدهم ليسأله عن سبب الجفاء و مُقاطعة أهل الناصرة له بالمقال والفعال و حوارهم الجانبى عليه بما هو برئ منه ، فأجابه الرجل بأمر مولود مريم ، الذى سيفد للدنيا من نتاج علاقة مُحرمة هو طرف فيها .

صُدم يوسف لقول الرجل ، و قد منعته رجولته و ثقته بطهارة مريم وعفتها من الدفاع عن نفسه ، حتى لا يُسئ لمن أحبها ، و طفق الفكر يُعربد فى صدره ، كلما هم بأتهام مريم بالبغاء تذكر طهرها و عفتها وورعها لله و كم كانت زاهدة فى الدنيا حتى اقدمت على وهب نفسها لله لتكون من خُدام بيته ! .. و كلما حاول الدفاع عنها تذكر روايات الناس عن حملها ، فهداه عقله للرحيل حيث تتعبد مريم لمواجهتها .

كانت رحلة يوسف إلى حيث مريم شاقة ، و أشق ما فيها ما راوده من أفكار كادت تخنق أنفاسه و تذبح نياط قلبه حسرة و كمدًا ، حتى وصل لمريم ، و هاله منظرها ، بجسدها شديد النحول و وجهها الأصفر الذى ينم عن شدة التعب و الإرهاق ، و قد نتأ بطنها ليُصدق على ما يلوكه العامة فى أفواههم ، فقال لها فى حسرةٍ :

- بلغنى ما يلوكه الناس عنك ، و قد حرصت على أن أميته وأكتمه فى نفسىً فغلبنى ذلك ، فرأيت أن الكلام فيه راحة لنفسىً المُوغرة .

قالت مريم فى ثباتٍ :

- قل قولا جميلا .

- ما كنت أتفوه إلا بكلماتٍ طيبةٍ ، فاصدقينى القول .. هل ينبت زرعٌ بغير حب ؟

قالت مريم بهدوءٍ و ثباتٍ اصاب يوسف بدهشةٍ جعلته يتسمر فى مكانه :

- نعم .

- هل تنبت شجرة من غير غيث يُصيبها ؟

- نعم .

- هل يكون ولدٌ من غير ذكر ؟

- نعم ، ألم تعلم أن الله انبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، و البذر إنما كان من الزرع الذى انبته الله من غير بذر ، أو لم تعلم أن الله انبت الشجر من غير غيث ، و إنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة الشجر ، بعد أن خلق كل واحد منهما وحده ؟ .. أو تقول لم يقدر الله على أن يُنبت الشجر حتى استعان عليه بالماء ، و لولا ذلك لم يقدر على إنباته ؟

قال يوسف بلسان مُتلعثم مُضطرب و قد لمس حجة مريم القوية فى كلماتها :

- أنا لا أقر بذلك يا مريم ، و لكنى أعلم أن الله بقدرتهِ على ما يشاء يقول لذلك كن فيكون

- أو لم تعلم أن الله - عز و جل - خلق آدم و امرأته من غير ذكر ولا أنثى ؟

بلى .

فتت كلمات مريم فى عضد يوسف ، و قد رُد له إيمانه الذى توارى خلف غضبه ، بينما قالت مريم حاسمة لذلك الصراع الذى لمسته فى يوسف :

- ﴿ إن الله بشرنى بالمسيح عيسى بن مريم ﴾

كان يوسف رجلا تقيا ، يعتقد أن الله سيُرسل المسيح إلى بنى إسرائيل نبيًا من صلب داود ، و ستضعه عذراء ، و مريم من تلك السلالة النبوية الطاهرة ، و هى كفء لحملهِ ، فلم يُمار فى ذلك ، و أمن لكلماتها و بأنها العذارء المُختارة ، فأنشرح قلبه من بعد غمامة ، فأبتسم فى وجهها و هو

يقول :

- و أنت يا مريم أهلٌ لها .

عمد يوسف لمخدعهِ ليرتاح من مشقةِ يومه ، و لكن شئ ما كان يجعل النوم يُجافى عيونه ، شئ ما فى كلمات مريم كان يُبشره بوضع ما سيُدخل السرور لقلبهِ ، و بعد فترة ليست بالطويلة استجابت عيناه للطبيعةِ البشريةِ ليغط فى نوم عميق ، ليزوره مَلكٌ فى نومهِ مُخاطبًا إياه ، قائلا :

- يا يوسف ، إن ما فى بطن مريم من عند الله و قد اختارك الله لتكفل رسوله ، و لتكون راعيًا له .

هب يوسف من رقدتهِ مُنشرحًا ، و سجد لله شاكرًا ، و قد علم بصدق رواية مريم ، و إنها المُختارة دون نساء العالمين لتلد المسيح مُخلص اليهود .

* * *

بدا الشحوب و الضمور على جسد ابنة الحارث و زوجة هيرود العربية ، و قد داعب الوهن و الضعف كل خلية بجسدها ، حتى بدت كشبح امرأة يدبُ بخطوات موؤدة على الأرض ، و قد بدا عليها التوتر والأنفعال ، حتى بات أمر مُعاشرتها عسير المنال ، فكانت تثور لأتفهِ الأمور ، و تتحين الفرص لتتشاجر مع وصيفاتها ، و فى أحيان كثيرة كانت تعتدى عليهن بالضرب و السُباب ، فعزف عنها الخدم إتقاءًا لثورتها ، التى ضرمت فى القصر كله ، لتصيب ألسنة لهيبها زوجها هيرود ، فحين يُداعبها تمهيدًا لينال منها مبلغ الرجال من النساء كانت تنفر منه و يمتعض

وجهها قبل أن تفرغ ما بجوفها تأففا منه ، و هى تصيح ناعته إياه :

- اغرب عن وجهىَّ إيها القاتل .

مع مرور الأيام ساءت حالتها ، خاصة بعدما آثرت العُزلة و الوحدة ، ليُصبح النحيب نديمها ، و الدموع الغزيرة المُنحدرة على وجنتيها سلوتها ، حتى ظن الجميع إنها فقدت صوابها ، فعدل هيرود عنها ليتحول نحو هيروديا ، تلك المرأة التى اقترف من أجلها كل ما فعل ، ليغوص فى جسدها البض ، شديد الحُسن تاركا زوجه تعانى من مرض عضال يُؤلم نفسها و يُمزق أواصر روحها .

لمست ابنة الحارث خيانة هيرود لها مع زوجة شقيقه الراحل فاسيل ، بعدما اصبحت مُغامراته الليلية معها مُضغة فى أفواه عامة القصر ، فتحولت عزلتها لعباب يود لو ينهش زوجها إنتقامًا لكرامتها المنحورة أسفل أقدامه .

و ذات صباح خرجت ابنة الحارث على هيرود و هو يتناول إفطاره صائحة فيه :

- ألم يكفيك إنك سُقتنى لمستنقعك الضحل أيها القاتل ؟ .. ألم يكفيك إنك اجبرتنى على شهادة زور تسببت فى مقتل برينين لكى تنجو أنت من فعلةٍ شنعاءٍ داهمت فى إقترافها أيها النذل القذر ، مستحل دم شقيقك ؟ .. الأن تسعى لتنال زوجته أيها ...

قاطعها صائحًا :

- كفاك أيتها المُخرفة و إلا أمرت بقطع رأسك .

زاد بريق عيناها و هى تردد فى إصرار و عنادٍ :

- لن تفعل خشية من أهلى ، الذين يُحيطون بك من كل جانب كما

يُحيط السوار بالمعصم ، و الآن سرحنى و إلا فضحت أمرك لعامةِ شعبك و الجليل حتى يفتكوا بك .

صمت هيرود حينا قبل أن يُردد بلسان باردِ الطرف :

- لا طلاق و لا تسريح .
- و لكن عشيرتىَّ ...
- عشيرتك لن تقو أمام جيوش روما التى ستقف بجانبى ضد العرب حماية لممتلكاتهم فى الشرق .
- إذا سأرحل أنا و ابنائى حيث أبىَّ و أهلىَّ حتى توافينى المنية ، فأنا الآن اصبحت غير صالحة لك و لا لغيرك .
- أوافق ، و لكن لك أن تعلمى إذا تفوهت بما رأيت أو شهدت أو سمعت داخل جدران هذا القصر لأحدٍ ما خاصة ذويك سأرسل فى طلبك ولو كنت فى بروج مُشيدة .

رحلت ابنة الحارث مع ابنائها حيث عشيرتها ، تاركة هيرود يرفل فى أحضان هيروديا شريكته فى إحكام الخناق على زوجها و مريمنة لتحقق مطامعها فى السلطةِ ، لعلها تجد روحها المُعذبة بين أفراد عشيرتها ، وتهدأ جزعتها و عذاب ضميرها من جراء فعلتها النكراء ، لعلها تجد ما يُكفر عن ذنبها بين آبائها .

* * *

سجا الليل ، و خيم على أورشليم ظلام ثقيل ، و قد تلألأت النجوم فى السماء ، و هجع الكون ، و سيطر سكون يبعث الرهبة فى القلوب ، وهبت النسائم خفيفة .

كان هدوء المناخ يُجبر الناس على ألتزام منازلها ، على حين خرج يحي يسعى فى الطرقات هنا و هناك دون خوف أو رهبة ، يتوقى الضواحى الموحشة ، و ينطلق إلى جوار التلال الجرد الشامخة كأنها المردة والشياطين ، فلا يستشعر رهبة ، بل كانت تستكين نفسه و تهدأ ، فما كان يرتجف فرقا من الظلام ، كما يرتجف أترابه من الصبيةِ .

بلغ يحي الهيكل الكبير ، فإذا الظلام الدامس ينشر عباءته فى أروقةِ الهيكل ، و إذا الرهبان يغدون و يروحون ، و إذا العباد راكعون فى خشوع ، و مد يحي بصره ، فألفى أباه زكريا قائمًا يتعبد و يُصلى فى محرابهِ ، فوقف يرقبه و البشر يغمر نفسه ، فمشاهدة العُباد و صلواتهم تفتح روحه و تنزل على قلبهِ الراحة و الطمأنينة .

ظل يحي مُتسمرًا فى مكانهِ ، كأنه مسمارٌ دُق فى مكانهِ ، يُردد خلف زكريا و العُباد ما يقولونه فى حرارةٍ ، حتى فرغ زكريا من إبتهالاته ، وتأهب للعودة إلى داره ، فلمح ابنه مُتسمرًا بالقرب من محرابهِ شاخص البصر ، و قد اغرورقت عيناه بالدموع ، فانشرح صدره بعدما استشعر فى ابنهِ رقة القلب تجاه كلمات الله ، فأخذ يقترب منه رويدًا رويدًا حتى لا يقطع خلوته بنفسهِ ، أو يرى الخجل فى عينيهِ لدموعهِ المُنسالةِ على خدهِ ، و عندما لمح خروج ابنه من حالةِ نشوته ، ذهب إليه و لف ذراعه حوله ، و سارا فى ردهات الهيكل حتى خرجا منه .

- يا بُنى لا تخش من ذرف الدموع أمام الناس طالما كانت فى سبيل الله ، فالدموع تجلى الذنوب من قلوب العباد .. فعليك بالدمع يا ولدى لتكن سيد التوابين .

و ما لاح الصباح حتى خرج يحي يُقلب وجهه فى السماء ، و يمد بصره ليرى قدرة الله فى كل شئ حوله ، فيحس رهبة و جلالا ، و يخشع قلبه ، ليتعرف على رب والده و الناس و الكون ، ليجد قدرته فى كل شئ ، فى الجماد ، فى النبات ، فى الحيوان و الإنسان .. فى السماء و الأرض والماء ، كان الله يُحيط به فى كل مكان ، فكان يشخص ببصره و يعمل بعقلهِ فى صفات الله ، فتسلل للهيكل خلسة طائفا فى ردهاتهِ ، مُستمعًا لتراتيل العُباد ، مُتفكرًا فى كلماتهم ، فلمحه أترابه من صبيةِ البلدة ، فهرعوا إليه و قد قال أحدهم :

- يا يحي ، اذهب بنا نتريض و نلعب .

فقال لهم بحسم لا يتناسب مع أعوامه القليلة و هو يستكمل مسيرته :

- ما للعب و اللهو خلقت .

ثم دلف للباحةِ الرئيسيةِ بالهيكل الكبير ، فرأى العُباد من الأحبار والرهبان و عليهم مدارع الشعر ، و برانس الصوف ، فمكث فى مكانهِ يلتقم كلماتهم و يرقب تحركاتهم فى بهجةٍ و سرور ، حتى حان موعد رحيله .

دخل يحي على أمهِ و السعادة تنضح عليه و قد قال لها :

- يا أماه ، انسجى لى مدرعة من شعر ، و برنسًا من صوفٍ ، حتى اذهب إلى الهيكل مع أبى ، و أعبد الله تعالى بين الأحبار و الرهبان ، وأكون من آل بيته مثلهم ، ويكن لى محراب خاص مثل أبى أتعبد فيه .

- انتظر حتى يأتى نبى الله زكريا ، فأؤامره فى ذلك .

جعل يحي ينتظر مجئ أبيه ، و كان خوفه من إعتراضه على أن يهب

نفسه لله ، فأخذ يطرد هذه الفكرة من رأسهِ بأن يتأمل الليل من شرفةِ المنزل ، و يسمع لزقزقةِ العصافير على أغصان الشجر مُسبحة ربها فى قنوطٍ ، و يُبصر منازل البشر الساكنة ، الخالية من مُتأملٍ يُعمر بصوتهِ خلاء الليل .

سمع يحي وقع أقدام أبيه ، فهرول إليه ليجده يدلف من باب المنزل و قد مسه الكبر و الشمم ، فنظر إلى أمهِ ، كأنه يستعطفها أن تكلمه فى مُبتغاه ، فقالت إليصابات :

- إن يحي قد طلب منى أن انسج له مدرعة من شعر ، و برنسًا من صوف .

ألتفت زكريا إلى ابنه و قال :

- يا بُنى ، ما يدعوك إلى هذا ، و إنما أنت مازلت صبيًا صغيرًا ؟

- يا أبت ، أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت ؟

انشرح قلب زكريا لكلمات يحي ، و التفت إلى زوجه ، و قال :

- انسجى له مدرعة من الشعر ، و برنسًا من الصوف .

وهب يحي نفسه للمعبد ، يُصلى فيه و لا يُفارقه ، فتفتقت الدنيا أمام ناظريه ، و كشفت له عن أسرارها ، و دنته من خباياها ، فكان يُلازم أباه داخل المعبد و خارجه ، و يندس بين الأحبار والكهنة ليستزيد منهم .

كان يحي يستقى إيمانه من الطبيعة ، حيث تتجلى له آيات الله مُترادفة فتصقل نفسه ، و تغذى روحه .

-٤-

ج جلس زكريا فى محرابه الذى ببيت الرب وحيدًا ، يتلو آيات التوراة بصوتٍ مرتفع بعض الشئ ، و قد غلفه الهدوء و السكينة الممزوجة بالخشوع و التقوى ، وكان جسده يرتعد و يهتز مع كل كلمة يقرأها خشية و إيمانا .

دوت طرقة واهنة على باب زكريا ، فاخرجته من خلوته ، و نقضت رحلته فى رحاب قصص السابقين من عظماء التوراة ، أعقبها اقتحام صبى صغير المحراب ، و قد بدا عليه الإضطراب ، و عيناه تعانق الأرض فى خفر و لسانه يتلعثم فى حيرةٍ و هو يقول :

- أن الكهنة يبغون الحديث معك يا سيدىَ .

- و فيم حديثهم يا بُنىَّ ؟

- لا أعلم .

تبع زكريا الغلام حيث مجلس كهنة الجليل ، و قد وجدهم جميعًا حاضرين ، و هذا ما يندر حدوثه ، فهم لا يجتمعون ألا فى أمر جلل ، وقد لاحظ عبوس وجوههم و تجهمها و تربصهم السافر لحضوره .

حط زكريا بينهم صامتا ، و قد طال صمته مُتضامنا مع سكون المكان ، فقد عقدت الألسن و تحررت الأعين بحديث غاضب موتور ، حتى قطع أحد الكهنة ذلك الصمت قائلا بصوتٍ عميق موجهًا حديثه لزكريا :

- لقد تسابقنا فيما بيننا منذ سنوات على من يكفل مريم بعد وفاة عمران ، حتى كفلتها أنت و عاهدت بحمايتها ، و بين يوم و ليلة وجدناها بيننا هنا فى بيت الرب .. ذلك المكان الطاهر ، الذى يفر من

أدراجـهِ الأنجـاس ، خشـية مـن عقـاب الله ، لتحـل محـل عمـران ، ذلـك الرجل عَمر القلب بحب الله ، و ...

بدت آيات الضجر ترسم خطوطها على وجهِ زكريا و هو يستمع لكلام الكاهن المُسهب ، فقاطعه حاسمًا قوله :

- لا داعى لهذه المقدمة المُسهبة .. هل الأمر يتعلق بحمل مريم ؟

أخذت النظرات تتقاذف بين العيون لتعقد الألسنة فى الحلوق و تلجم النفوس ، التى تتآمر لفضح أمرًا ما ، حتى قال نفس الكاهن :

- لقد كان عمران رجلا طيب النفس ، طاهر الثوب ، جاء من بيتٍ كريم ، أما ما اقترفته ابنته من نجاسةِ الثوب مع خطيبها و المُتسبب فى فضح أمرها الذى أسفر عن حمل سفاح ...

قاطعه زكريا بحدةٍ :

- كفاكم قول بُهتان على امرأةٍ طاهرةٍ ، مُباركةٍ ، مريم لم تحمل سفاحًا من يوسف النجار ، ولم يمسسها رجل وهى مازالت عذراء بتول .

- و كيف يتأتى هذا و حملها أوشك على الولوج ؟

- إنها تحمل فى أحشائها مُخلص اليهود ، و آخر من سيُبعث فى بنى إسرائيل و من سيأتيكم بكتاب من الله مُكملا و حصورًا لما فى أيدينا من صحف موسى .. إنها أم المسيح الذى بشرت به توراة موسى نبى الله .

- وهل من المعقول أن تحمل ابنة عمران فى المسيح .. هذا هُراء ؟

- إنها خطت مع يوسف النجار ، فحملت منه سفاحًا ، فأرادت أن تفر من عقابنا ، فأدعت إنها تحبل فى المسيح .

- يا قوم إنها امرأة مُباركة ، لقد وضعت امرأتىْ غلامًا بعد شيبتها

ببركةِ مريم .

- هذا هُراء .

- لقد دخلت عليها محرابها ذات مرة لأجد عندها فاكهة فى غير أوانها ، و أطعمة لم تعهدها أجوافنا .

- هذا تجديف .. إنها بحملها هذا تلوث المعبد ، و لابد من إقامةِ الحد عليها و على مراودها .

- ما انبريت تدافع عنها يا سيد زكريا إلا لكونك كفيلها ، و ما ارتكبته عيبٌ فى حقك أنت ، لأنها فى كنفك ، كما أن أمها أخت زوجتك

- غدًا نحاكمها و نتبين الحق ، فإن كان أمرها حق عفونا عنها ، وإن كان حملها من سفاح ترجم .

رحل زكريا قاصدًا بيته و ثقل الفشل فى حمايةِ مريم يحنى ظهره ، فهو غير قادر على منع كهنة الجليل من مُحاكمةِ مريم ليتحققوا من حق الله ، و لا يستطع إثبات شرف و طهارة ذيل ثوبها .

قص زكريا ما مر به مع كهنة الجليل على زوجتهِ و يوسف النجار خطيب مريم ، فما كان حالهما أفضل من حالهِ ، فأخذت الأفكار تعصف بعقولهم و ترهقها دون فائدة ، حتى خيم الظلام و أسدل ستائره ، و دثر أورشليم فى غلالتهِ القاتمة ، لتغط كل البيوت فى ثباتٍ عميق ، ما عدا بيت زكريا ، الذى ظل مُنيرًا بقلق أهله ، حتى قرر يوسف أن يُغادر مثواه لدى زكريا ليحط فى مخدعه ، و يُحاول أن يغمض جفونه ، و ما أن أسلم جبينه للرقاد و أغمض عيناه حتى هتف به هاتف :

- يوسف انهض ، و اخرج بمريم من أورشليم ، فالقوم يأتمرون

بها .

هب يوسف من نومهِ فزعًا ، و قد استوعب رسالة الله له و أيقن إنه الحل الوحيد لإنقاذ مريم و حملها المُبارك ، فطفق يعد حماره ، و طفق صوب مرقد مريم ، فأخبرها بما جاءه فى منامه من قول كريم ، فأومأت برأسها فى وهن كونها تقر بهذا الحل ، فحملها يوسف و حطها على ظهر حماره ، و انطلق بها فى جُنح الليل و الترقب يعتريه ، خشية أن يراهم أحد فيُعَجّلوا بمحاكمتهما و القضاء عليهما ، فعمد إلى طريق مهجور حذاء أسوار المدينة الهائلة ، التى تبعث فى النفوس الرهبة و التوتر ، و انسابا بين التلال ليحطا فى الخلاء ، ليرتاح قلبيهما من كشف أمرهما ، و يكاد يتوقف من شدة البرد و صفير الرياح فى آذانهم ، فكانت أجسادهما مهبًا للريح تقذفهما إينما شاءت ، حتى انطوى الليل و انجلى لتشرق الشمس بحرارتها لتبث بعض الدفء فى أوصالهم التى جف الدم بها من شدة الخوف و القلق .

لمح يوسف بئرًا تتوارى جانبًا ، فعمد إليها ليشربا من مائها و يلتمسا فى ظلها بعض الراحة و السكينة ، حتى استقرت نفساهما طفقا يستكملان رحلتهما ، حتى غابت الشمس فى الأفق الغربىّ ، ولاح الطريق الأبيض الذاهب إلى بيت لحم ، فانسابا فيه ، و ظهرت المدينة بأشجار السرو العالية التى تزينها ، و المنازل البادية كأشباح بيض بين أشجار الزيتون التى تظللها ، و مع كل خطوة تخطوها أقدامهم تتضح مدينة بيت لحم لهما ، فيخفق قلبهما فرحًا حتى بلغا باب المدينة ، و إذ يهالهما منظر جند هيرود و هم يُحصلون الضرائب من عامةِ الشعب ، و من لا يملك ما

يدفعه للجنود لا يجد منهم سوى غلظة القول و مهانة الفعل ، فالسوط الذى بأيديهم لا يُميز شيخا أو امرأة أو طفلا صغيرًا ، الكل لديه سواء .. المهم هو المال الذى يرفعه هيرود إلى أسياده فى روما ليرضى عنه مجلس السناتو و من ورائهِ أوغسطس قيصر .

دخلت القوافل بعد أن أدت الضرائب ، و دخل يوسف و مريم أبواب المدينة مع حلول الظلام ، فجلسا بجوار شجرة زيتون يمتارا بعض الراحة و الدفء ، فقد كانت ليلتهما شديدة البرودة ، و القمر فى ليلةِ تمامه يُرسل أشعته الفضية لتبث فيهما الأمل فى غدٍ مُشرق ، و كان صوت مزمارًا حزينا يشق صمت الليل ليستولى على نفسيهما ، فإذا براعٍ يرعى غنمه فى سكون الليل ، و إذا بالغنم قد استكانت و رفعت رؤوسها ، كأنما الأنغام الحزينة الهادئة تسكب النشوة فى أجوافها ، فنظرا ، فقفزت إلى ذهنيهما صورة داود و هو يرعى الغنم كما روت التوراة عنه ، فقد رعى فى هذه البقاع التى كستها الأعشاب باللون الأخضر ، فكانت مراعى طيبة .

نهضا من مرقدهما ، و سارا صوب قلب مدينة بيت لحم ليلتمسا مبيتا يحوى بين ضلوعه مريم ، التى أوشكت أن تضع حملها ، و ما ابتعدا قليلا حتى أحست مريم آلام الوضع ، و قد اعربت عنها بصرخةٍ مدويةٍ شقت سكون الليل ، و خنقت صوت المزمار الذى يترنم به الراعى ، فتلفتت فوجدت حقلا مُنبسطا ، و قد كان هناك ثلاثة من الرعاة جالسين فيه يحرسون أغنامهم ، فرأت أن تتحامل حتى تصل إلى نزل قريب ، ولكن فاجأها المُخاض إلى جذع نخلة ، فاحتمت به تضع ما فى بطنها .

وقف يوسف بعيدًا ، يُراقب مريم و هى تضع أمل بنى إسرائيل المُرتقب فى الخلاء ، ليس لها وطاء إلا الأرض و لا غطاء إلا السماء ، فأطرق فى أسى و حزن .

وضعت مريم حملها ، و قد كان المسيح كما بشرها الله ، و مع خروجه إلى الدنيا انقلب حال الطقس ، فغشى النور الدنيا ليُبدد ظلمة الليل البهيم ، و هبت النسائم العليلة المُعطرة لتحوّل برد الليل لجو مُعتدل و صحو ، وقد عانق السماء صوت جاء من العدم يرتل فى عذوبةٍ أجمل الكلمات .

فطن الرعاة الثلاثة إلى أن المرأة التى ألتجأت إلى الشجرة إنما تضع مولودًا مُباركا له شأن عظيم ، فأخذوا يقتربون من يوسف ليستعلموا منه عن أمر مريم و وليدها ، فقال لهم فى غبطةٍ :

- إنها مريم البتول ، تضع وليدها المسيح مُخلص اليهود .

فغرت أفواه الرجال دهشة لما سمعوه ، على حين بدت السعادة على وجه مريم و هى ترى وليدها المُرتقب يرقد بجوارها على العشب الأخضر ، و لكن سرعان ما طفقت آيات القلق تعلو وجهها ، فقد طاف برأسها خاطر ، لقد وضعت حملها و بعد قليل ستنهض و على يديها طفلها ، فماذا يقول قومها عنها ، فحزنت و برح بها الحزن ، فقالت :

- ﴿ يا ليتنى مِت قبل هذا و كنت نسيًا منسيا ﴾

فناداها طفلها من تحتها :

- ﴿ لا تحزنى ، قد جعل ربك تحتك سريا ، و هزى إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيا ، فكلى و أشربى و قرى عينا ، فإما ترين

من البشر أحدًا فقولى : أنى نذرت للرحمن صومًا ، فلن أكلم اليوم أنسيا ﴾

دوت كلمات الوليد كأنها هزيع السماء ، لتصم آذان الرعاة و يوسف ، وقد تحجرت أعينهم فى مآقيها ، و عانقت الحواجب منبت الشعر و قد تدلت الألسن من الأفواه ، لتعبر عن دهشة عظيمة أصابتهم من جراء ما رأوه و سمعوه ، و الذى إن رُوى عليهم فى مجلس لقالوا على راويها مُخرف .. مجنون .

عمد يوسف إلى مريم ، مُرددًا فى دهشةٍ عظيمةٍ :

- ما هذا يا مريم ؟

- ﴿ أنى نذرت للرحمن صومًا ، فلن أكلم اليوم أنسيا ﴾

أومأ يوسف برأسهِ مُتفهمًا و هو يُحملق فى وجهِ الطفل الوليد ، الذى كان كالمشكاة يلحفه الضياء ، ثم ضم مريم و وليدها و عمد إلى قلب المدينة يبحث عن نزل مُتواضع ترتاح فيه مريم هى و وليدها ، على حين رحل الرجال الثلاثة و هم يُهللون بين عامة الناس بما رأوا و سمعوا .

و فى أورشليم اجتمع كهنة الجليل حول زكريا مُتهمين إياه بأنه ساعد مريم على الفرار حتى لا يقع عليها الحد ، مما ألصق بها تهمة التفريط فى شرفها ، و بالتالى تلويث المعبد الذى كانت تحتمى به من توابع خطيئتها ، و ما أكد هذا الإعتقاد فى رؤوس الكهنة و عامة الشعب هو إختفاء يوسف النجار المُفاجئ ، كأنه قرر أن يلحق بشريكتهِ فى المعصيةِ ، مما وأد مُحاولات زكريا فى الدفاع عنهما ، مما زاد الأمر سوءا .

كان لهذا الأمر أثره العظيم فى عمق مصداقية زكريا لدى عامة الشعب ، الذين حسبوه ذلك المُنقذ الآلهى ، الذى سيُخلصهم من وصاية روما وبطش هيرود بهم ، و لكنه خيب آمالهم ، و حطم أحلامهم على صخرةٍ حادةٍ شطرت قلوبهم بدفاعهِ عن الباطل ، و الحيلولة من تحقيق العدل ، لمجرد أن المتهمة قريبة لزوجتهِ .

فتت نظرات الناس التى ملأتها خيبة الأمل فى عضد زكريا ، الذى آثر الإعتكاف فى محرابهِ بعدما امتنع الناس عنه لكى يُعمدهم بالماء ، ومُحاولة الصبر على ما أبتلاه به الرب و التعلم من الشدائد ، و التفرغ للعبادة ، و تعليم ابنه يحي تعاليم الله ، و كيفية أن يكون عادلا ، رحيمًا مع أعدائه قبل أحبانه .

* * *

اشاع الرعاة ما رأوه و سمعوه من أمر مريم و وليدها الذى تحدث فى المهد ، ليُعلن عن مولد معجزة جديدة و إنسان غير عادى ، حتى أصبحت رؤية الرعاة حديث المدينة و البلدان المجاورة .

خرج ثلاثة رجال من فارس يلمون بعلم النجوم و السماء ، يرصدون النجوم و موقعها ، ليقرأوا ما سطره القدر فى سجلاتهِ ليفرضه على بنى البشر بقوةٍ و ضرواةٍ ليرفعوه لملكهم ، ذلك الملك الذى كان يتقلد عادات ملوك هذا الزمان ، فما كان يتخذ أمرًا قبل أن يستمع إلى نصح هؤلاء المُنجمون ، فكانوا هم المُحركون الرئيسيون للحكم .. يُعلنون الحروب ، و يقتلون الرجال ، و يمنحون السلام لمن يُريدون .

شَخَصَ ثلاثتهم إلى السماء ، و كل منهم يُدقق البصر ، و هم يَرصدون

النجوم المُتلالئة فى الرقعةِ الزرقاء ، التى اتشحت بثوبها الحالك ، فقال قائل منهم :

- لقد ظهر اليوم نجمٌ جديدٌ يفترشُ السماء ، و يغطى بضيائهِ سائر السيارة .

- هذا نجمٌ لم نعهد به قبل ذلك .

- هذا دليلٌ و بشارة على حدثٍ عظيم قد وقع فينا .

- لقد ولد فى البشر ملكا عظيمًا .

- إنها تلك الآيات و العلامات التى بينتها صفحات التوراة كتاب اليهود ، مُعلنة عن ميلاد ملكهم المُرتقب ، مُخلصهم ، و مبعوثهم .

- حقا .. هذه آياته ، إنه المسيح بن العذراء البتول .

- حقا .. هذا نجمه قد أبلج واضحًا .

- و أين وُلد ؟

- هناك فى أرضهم .. أرض اليهود ، مَن سيُبعث فيهم .

- هلم بنا نخرج إليه ، و لنكن أول أتباعه ، و أول من يُصدق به .

اعد الرجال رحالهم ، و قد حملوا من الهدايا الكثير ، و قد كانت من الذهب الخالص ، الذى غطى ضياؤه بُهرج الشمس و المُر و اللبان ، وامتطى كل منهم جواده و قد أسلموا مقود الرحلة للرياح ، تلقيهم اينما شاءت و متى شاءت ، حتى بلغوا أرض اليهود ، و من سؤال لآخر عن ذلك المولود الذى بزغ نجمه فى المشرق و قد جاء بمعجزةٍ اشار عليهم البعض أن يهبطوا إلى صهيون ، حيث موطن الإشاعات .

و فى طريقهم إلى صهيون رأوا القوافل المُحملة بالهدايا ذاهبة و غائدة

فأيقنوا أنهم يسيرون على درب الصواب ، حتى حطوا فى سوق قرب صهيون ، فهبطوا عن رواحلهم ، و راحوا يندسون بين الجماهير ، يتنسمون أخبار المولود المُبارك الذى رأوا نجمه فى السماء ، فلم يهتدوا إليه ، و قد أقترب أحدهم من أحد رجال هيرود المُنتشرين فى شتى أنحاء الأرض ، و قد قال له مُتسائلا :

- لقد بزغ نجمٌ فى السماء مُعلنا مولد ملك اليهود ، الذى وعد الله به فى التوراة ، فجئنا من بلادنا نبحث عنه ، أفلا تدلنا أين وُلد ؟

- ماذا تريدون منه ؟

- لم أسمع بهذا الحديث من قبل .. هيا تشتتوا من أمامى .

غادر الرجال بقعتهم باحثين عن ذلك المولود ، بينما أسرع رجل هيرود حيث يرقد هذا الأخير مع هيروديا و ابنتها سالومى فى قصر صهيون ، يفضى إليه بذلك النبأ العجيب الذى سمعه من رجال فارس ، فجن جنون هيرود و أمر بألقاء القبض على الرجال الثلاثة و أحضارهم إليه ليتحقق من ذلك الأمر .

مَثلَ الرجال الثلاثة فى باحةِ العرش داخل قصر صهيون ، و قد كان هيرود يجلس على مقعده المُذهب ، و على يمينه تجلس هيروديا ، وعلى يساره تجلس سالومى .

- من أنتم ؟

- نحن أشراف قومنا ، و عزة ديارنا ، شرفنا العلم و الدين ، وعزنا رفعة المجلس و المقام ، نقرأ النجوم ، و نعرف الغيب ، و ما كان ملكنا يقضى أمرًا قبل أن يرى رأينا فيه .

- و ما الذى جاء بكم إلى أرضىَ ، تقتحمون حُرماتها دون مُخاطبتى ؟

- هذا أوان نبى أظلنا زمانه ، فكنا نخرج كل ليلة نرصد النجوم ، نرقب بزوغ نجمه ، فلما بزغ شددنا الرحال إليه ، نصدقه و نؤمن به وقدم إليه هدايانا .

- و ما هداياكم له ؟

- الذهب و المُر و اللبان .

- فما بال الذهب و المُر و اللبان قد اخترتموها من بين الأشياء كلها ؟

- تلك هداياه .. لأن الذهب هو سيد المتاع كله ، و كذلك هذا النبى هو سيد أهل زمانه ، و لأن المُر يُجَبر به الجُرح و الكسر ، و كذلك هذا النبى يشفى كل سقيم و عليل بإذن الله ، و اللبان دخانه ينال عنان السماء و لا ينالها دخان غيره ، و هذا حال هذا النبى سيرفعه الله إلى عنان السماء و لن يرفع سواه .

- و ما أدراكم إنه يظهر هنا فى أرضىَ .. فى أرض إسرائيل ويهوذا ؟

- إنه مبعوث من الله لبنى إسرائيل ليتسيدهم .

- و كيف تميزونه عن سائر المواليد ؟

- لقد اشارت التوراة أن امرأة عذراء ستلد ملك اليهود ، و سيُولد ومعه معجزة آية للمؤمنين .

عند هذا الحد تعالت ضحكة هيرودياس و هى تردد فى استنكار :

- و كيف لامرأة تحبل و تضع مولودًا و هى ما تزال عذراء .. هذا هُراء .

انقبضت ملامح هيرود ، و قد ضاق صدره بما سمع ، فسارع فى طلب كهنة صهيون ، الذين حضروا فى عُجالةٍ من أمرهم ، فقال لهم هيرود :

- اسمعوا و اعوا ما يقصه هؤلاء الغرباء و اصدقونى القول ، و إلا ...

قطع عبارته ليستطردها بإشارة من يده تشير بالقتل ، فقص المُنجمون ما لديهم على مسامع الكهنة ، التى تعالت دقات قلوبهم خوفا من بطش هيرود ، و سرعان ما استكانت عندما ايقنوا ببشارة المسيح ، فنضحت آيات سعادة على وجوههم ، و قد قال كبيرهم :

- يُولد المسيح ملك اليهود من امرأةٍ عذراءٍ ، ليتسيد قومه و يُنادى بحقوقهم ، و سوف يُولد فى بيتٍ لحم مدينة نبيهم داود .

ماج غضب هيرود و هو يُصغى لهذه الكلمات التى تهدد عرشه ، و قد انفجر فى جوفهِ مرجل مخاوفه من ثورةِ اليهود التى قد تطيح بمقعده ، ذلك المقعد الذى حارب من أجله و أراق دماء العديد .. الأقارب قبل الأعداء على حدٍ سواء ، و إذا بهؤلاء الغرباء يقدمون من بلاد بعيدة ليخبروه أن وليدًا قد جاء إلى الدنيا ليستل منه عرشه ، كما استله هو من أبيهِ و من بعده أخيه ، و لو أنه يدرى أين هذا الوليد لقتله ، و قتل نبوءته و خمدها فى معقلها ، و لكنه لا يدرى أين هو ؟ .. فدفن مشاعره هذه و هو يقول مُوجهًا حديثه للغرباء :

- اذهبوا ، فإذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك ، فإنى أرغب فى مثل ما

رغبتم فيه من أمره .

غادر الرجال بلاد هيرود ، على حين قال أحد الكهنة مُخاطبًا هذا الآخير :

- لقد وُلد منذ بضعة سنين غلام ينطبق عليه ما أشارت به التوراة ، و لكنه لم يُولد في بيت لحم ، لقد ولد في أورشليم ، فحسبه الناس المسيح المُرتقب .

- من هو ؟

- ابن نبى الله و كبير كهنة الجليل يحي بن زكريا ، فقد جاء بعد شيبة عظيمة لزكريا و زوجه مما استحال معه الميلاد .

- و لكن الرجال الغرباء اشاروا إلى أن الغلام حديث الميلاد ، ويُولد فى كنفِ بيوت داود ، و يُولد من امرأة عذراء .

قال آخر :

- لقد سمعنا من قبل أن امرأة فى الجليل دعت إنها تحبل فى المسيح ، و قد حكم عليها كهنة الجليل بالرجم هى و رجل كان خطيبها يُدعى يوسف .

- و أين هذه المرأة ؟

- لقد فرت قبل أن تلقى جزاءها بمعاونةِ زكريا زوج خالتها .

- ابحثوا عنها فى كل مكان ، أو اقتلوا كل طفل حديث الولادة فى بيت لحم .

هذا بينما حط الرجال الثلاثة بيت لحم ، اخترقوا الحدائق ، و هم يتلفتون لا يدرون أين يذهبون ، و راحوا يبحثون و ينقبون ، طارقين كل

الأبـواب ، و لكـن دون جـدوى ، لا آثـر للطفـل المُبـارك و لا أحـد يعلـم بقصتهِ .

أقبل الليل عليهم و جن ، و بزغ في السماء نجم ، إنـه ذلك النجم الذى ظهر يوم ميلاد الطفل المُبارك ، فتطلعوا إليه فإذا بالنجم يسير و يقودهم ، فساروا فى آثره ، و قلوبهم تخفق فى حنايا الضلوع .

ثبت النجم فوق منزل مُتواضع ، فقالوا فى فرح عظيم :

- إن الطفل هنا .. فى هذه الدار .

تقدموا خافقة قلوبهم ، يشعرون برهبةٍ ما أحسوا بها قبل لحظتهم ، و قد طرقوا الباب هونا ، فإذا بيوسف يفتح لهم و يدعوهم للدخول ، فتقدموا والخشوع يُعمر قلوبهم ، فقد شعروا برهبةٍ تحط

على المكان ، و على ضوء ذبالة المصباح الخافت تبينوا النزل ، و رأوا ما به من بساطةٍ ، فإذا بمريم جالسة و على ركبتيها ابنها الصغير ، ذلك الطفل المُبارك الذين تحاملوا على أنفسهم مغبة الرحلة من أجلهِ ، و قد احاطت به هالة من النور .

قرأ أحد الرجال السلام على مريم ، فما كان منها إلا أن قالت :

- ﴿ أنى نذرت للرحمن صومًا ، فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾

دنا الرجال من الطفل الرضيع ، فنزل فى قلوبهم الأمن ، و انداحت فى أجوافهم السعادة و الغبطة ، لأن رحلتهم لم تذهب هباءًا ، و قد صدقت رؤاهم فى ميلاد المسيح ، ثم أقدموا على تقديم هداياهم إلى مريم والحُبور يُغرق صدورهم .

- لقد جئنا من فارس يا سيدتى لنُبايع نبى الله و المبعوث فى اليهود بالخير و نصدقه البيعة ، و هذه بعض الهدايا المُتواضعة التى نرجو قبولها .

نام الرجال الثلاثة و الفرحة تعم صدورهم ، و قد اتخذوا القرار بأن يخبروا هيرود بمكان الوليد المُبارك كما وعدوه ، لولا أن جاءهم طائف فى المنام يُحذرهم من مغبةِ هذه الفعلة ، لأن هيرود سيسعى لقتل الغلام حفاظا على عرشهِ ، فعدل الرجال عن مُخططهم ، و اخذوا دربهم عائدين لبلادهم عن طريق شعب و دروب خفية ، لا يعلمها رجال هيرود و أتباعه ، و قد اقسموا على نشر قصة ميلاد ملك اليهود فى فارس كلها و ما والاها .

* * *

كان قلب مريم ينفطر على حال أمها ، و قد تكهن عقلها بما قد تلاقيه من مذلةٍ و مهانةٍ قد تجدها فى عيون الناس ، الذين ظنوا فيها الخطيئة ، وهى منها بريئة ، فكانت الدموع هى سلوتها طيلة بقائها فى نزلها ببيت لحم ، فهى لا تستطيع مُغادرته ، فما كان لامرأةٍ وضعت ما فى بطنها أن تترك البيت قبل أن يمضى على ذلك أربعون يومًا حسب شريعة موسى .

و عند إنقضاء الأيام المعدودة همت مريم و يوسف ومعهما الطفل الرضيع لمُغادرة بيت لحم ، آخذين دربهم نحو الناصرة ، حيث حنة أم مريم .

مريم التى لم تجد فى عيون أهل الناصرة سوى الإحتقار و إشاحة الوجه عنها زراية ، و لكنها لم تطرق لهم بالا ، و لم تحن رأسها ، بل زادت

فى إعتدادها ، فقد كانت على يقين من إنها تضم إلى صدرها أشرف المخلوقات و أعزها .

و أمام باب الدار هبطت عن ظهر الحمار ، الذى كان يسوقه يوسف النجار ، فخف إليها بعض أقاربها يقرعونها أمام عامة الناس ، و من بعيد لمحتها أمها ، فهرولت إليها ، مُستجيبة لنداء الأمومة ، و لكن سرعان ما حط الخزى على جبينها ، عندما رأت فاحشة ابنتها قد أثمرت عن وليدًا يلتقم صدرها ، فطأطأت رأسها حتى لا تقع عيناها على ما يجرح ما تبقى من مشاعرها ، و قد انسالت دموعها حرية صانعة الأخاديد حزنا على نبتتها التى أصابها مس من الشيطان ، و كم تمنت أن تنشق الأرض و تبتلعها و تبتلع معها طعم الحنظل الذى عشش فى حلقها ليسود ما بقى من عمرها ، فما دار بخلدها يومًا أن الزمن يدخر لها ولزوجها التقى هذا الكم من العار و الخزى .

كانت مريم تمتاز بالثبات و الهدوء و استقرار السريرة ، فكانت تتلقى هجوم الناس عليها بشديد المقال بأن تشير لوليدها أن حدثوه ، فقال البعض فى غضبٍ :

- إنها تسخر منا ، كيف نكلم من كان فى المهد رضيعا ؟

- إنها تتمادى فى فاحشتها ، و تلحف على تضليلنا .

- إنها ...

و إذا بالطفل الرضيع يتكلم فيهم قائلا :

- ﴿ إنى عبد الله ، آتانى الكتاب و جعلنى نبيًا ، و جعلنى مُباركا

أينما كنت ، و أوصانى بالصلاة و الزكاة ما دمت حيا ، و برًا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيا ، و السلام على يوم ولدت ، و يوم أموت ، ويوم أبعث حيا ﴾

ساد صمتٌ عظيم ، و العيون تحدق فى دهشةٍ فى ذلك الرضيع الذى تفوه بكلماتٍ مُباركة ، دفعت الظلم عن مريم ، و ألجمت ألسنتهم ، حتى قطع أحد الرجال ذلك الصمتَ الثقيل و هو يُهلل فى فرح جم :

- حقا .. إنه المسيح الذى قصت شريعة موسى أخباره .
- إنه يسوع ملك اليهود .
- لقد أتت مريم البتول بسيد القوم .

انطلق الناس فى الشوارع يُهللون و يصيحون بخبر ميلاد المسيح بن مريم العذراء البتول ، ليمحو عن كاهلها و عن عاتق امرأة عمران أى خزى أو عار قد لحق بهما ، ليعود حُب الناس لهما ، و إبتساماتهم فى وجهِ يوسف النجار ، الذى ظهرت براءته حقا لتعبر عن نبل أخلاقه وطهارة ثوبه .

وسط هذا كله كانت حنة تحدق فى وجهِ ابنتها ، الذى بدى كقطعةٍ من الثلج شديد البياض ، و كأن شلالا جارفا من السعادة قد حط فى قلبها وهى ترى براءة ابنتها تظهر على الملأ ، لتبدد أى حزن قد مر بها ، ها هى ابنتها دون نساء العالمين يختارها الله لتنجب المسيح المُنتظر .

دخلت مريم بيت أبواها ، فإذا بكل ركن به يضوى و يشرق كأنه يحوى بين ضلوعه شموسًا صغيرة ، فأخذت تتطلع لما حولها كأنها تروى

لوليدها ذكرياتها فى هذا المنزل ، الذى شهد طفولتها و صباها .

شاع بين الناس أمر ابن مريم الذى تكلم فى المهد ، ليُعلن عن نبوته و إنه آخر من سيُبعث فى بنى إسرائيل ، فزادت سعادة الناس و بدت الدنيا فى عيونهم كأنها الجنة و قد استقرت فى الأرض ، أما مريم فقد شعرت أن الدنيا كلها تسجد أسفل قدميها ، و الشمس تحج إلى بيتها كل صباح ، والقمر يحرس طفلها فى ليلهِ الهادئ ، و لكن سعادة مريم و أهل الناصرة لم تدم طويلا ، فقد جاءتهم الأخبار بأن رجال هيرود يقتحمون البيوت بدون حياء ، ليقبضوا أرواح الأطفال حديثى الولادة ، ليقضوا على نبوءة المسيح مُخلص اليهود ، و قد خلفوا صهيون وراءهم مُتجهين نحو الناصرة ، فقد علموا أن مريم هى المنشودة و ابنها هو الملك المُرتقب ، و خوف هيرود و حرصه على عرشهِ يدفعهم لنهب الأرض نهبًا ليحطوا عند بيت عمران ، ليغتالوا ملكا طالما حلم به و هو يُقصيه عن ملكه ، فزاد ذلك من توتر الأهالى و خوف مريم على وليدها ، و لكنها تجهل المَخرج من هذا المأزق ، و مع كل إشراقة شمس تستشعر قدوم رجال هيرود ليقتلوا ابنها ، و يقضوا على حلمها .

عسعس الليل ، و اغلق يوسف النجار حانوته ، و عاد إلى بيتهِ ، و قد عادت حياته كما كانت قبل أن يتهم بقطف الثمار قبل أوانها ، بل و قد زاد عليه الطلب ، فكان الفلاحون و الناس تختلق أى عيب فى منازلهم ليعهدوا إليه بأعمال النجارة ، و تناول النذير من الطعام ، ثم عمد إلى التوراة ليقرأ فيها ما ورد عن أخبار المسيح ، غير مُصدق أنه رأى ميلاد ذلك الشخص المُبارك ، الذى تحدثت عنه آيات السماء ، و قد ضمه إلى

صدره مُداعبًا أياه ، ظل على هذا الوضع حتى غالبه النوم و ثقلت أجفانه ، فدخل إلى فراشهِ و نام ، و رأى فى نومهِ من يهتف به :

- يا يوسف يا راعى المسيح ، قم واحمل الطفل وأمه واخرج إلى مصر ، فهيرود يبحث عن الطفل ليقتله ، وقد علم إنه يسكن ها هنا .

هب يوسف من نومهِ ، و قد جحظت عيناه بعض الشئ ، و قلبه يدق بشدة ، و قد عانقت يده المصباح الخافت ، و انطلق إلى حيث كانت مريم ، فألفاها نائمة تضم إليها ابنها فى حنان ، فناداها هامسًا :

- مريم ، مريم .

استيقظت مريم على همس يوسف ، و على ضوء المصباح الخافت وذبالته تتراقص فى مجون رأت القلق يسطر آياته على وجهِ يوسف ، فقالت له بنبراتٍ مُتوجسةٍ :

- ماذا حدث يا يوسف ؟

- انهضى .. إن الله يأمرنا أن نخرج من هنا و نقصد مصر ، حتى لا يفتك هيرود و رجاله بولدك .

نهضت مريم فى سرعةٍ تعد عدتها لسفر طويل وشاق ، و كان خوفها على طفلها يدفعها للعجلة ، بينما تجهز يوسف بالزاد و الماء ، و لما تم كل شئ حملت مريم رضيعها ، و ركبت حمار يوسف و ساروا فى سكون الليل ، و الكل يغط فى نوم عميق دفعهم له خوفهم من غدهم وانتظارهم لقدرهم المؤلم على يد هيرود و رجاله ، و أخذوا يطوون الطرق و الممرات حتى اصبحوا خارج حدود الناصرة ، تلمس أقدامهم رمال الصحراء الدافئة ، التى تنبأ بضياعهم فى دروبها .

-٥-

في أورشليم ، داخل هيكل سليمان ، اجتمع كهنة الجليل في محراب زكريا ، و قد حارت الكلمات في حلوقهم بعدما انتشر أمر رضيع مريم ، الذي تكلم في مهده مُعلنا أنه المسيح ، الذي بشرت به التوراة ، فكانت الحروف تجول بين الأفواه مُستنكرة ما ورد من أصحابها قبل ذلك من إتهام مريم و رميها بالخطيئةِ مع خطيبها يوسف النجار ، الذي نزح من الناصرة ليحط في أورشليم بجوار مريم ، مما زاد إعتناق الناس في قطفِ الخطيئةِ قبل أوان استحلالها ، و كيف تعدّوا على نبيهم وكبيرهم زكريا و اتهموه بأنه تستر على جريمةِ مريم و يوسف وساعدهما في الفرار من مُلاقاة مصيرهما الذي اجتمعوا عليه ، ألا و هو رجمهما حتى الموت ، دون أن يسمعوا لكلمات زكريا المُستجدية ، التي تهديهم إلى أن مريم امرأة غير عادية ، قد خصها الله بآياتٍ دون نساء العالمين استعدادًا لحدثٍ جلل ، و أن ما في بطنها هو المسيح المُنتظر ، ولكن دون جدوى ، فقد تبددت توسلاته في غياهب السماء ، لتصم الآذان عن سماع الحق ، و تتجنى الألسن عليه بباطل المقال و الفعال حتى آثر العزلة في محرابهِ ببيتِ الرب ، مُكتفيًا بالتعبد و التقرب من الله ، حتى يشاء و يُظهر الحق من دبر الباطل .

و ها هي الحقيقة تكشر عن أنيابها لتغتال كل تجني و قذف بالباطل ، لتمجد و تكرم مريم و تعطر ذكرى عمران و زوجه ، و ليجلس متهمي زكريا بالمُحاباة بين يديه يطلبون صفحه و رضاه عنهم .

- يا أخوتي في التوراة إن كلام النبي و المُرسل إنما هو وحي من الله

باعثه ، و ما كان كلامى فيكم تجنى و إنما وحى شريف .

بهذه الكلمات المُقتضبة اعلن زكريا تغاضيه عما فعله أقرانه ، على حين قال آخر بوجهٍ تربعت على صفحتهِ إمارات الجزع و القلق :

- إن هيرود يعقر كل طفل وليد فى بنى إسرائيل خشية من زوال عرشه منه ، و مُحاولة لقتل نبوءة المسيح فى مهدها .

- لقد قتل رضع بيت لحم و صهيون ، مُخلفا وراءه بركة عظيمة من دماء الرضع ، و عويل الأمهات الثكلى ، الذى صم الآذان و عبق السماء ، و غضب الرجال المكبوت المكتوم فى كهوف الصدور خشية من عيون هيرود المُنتشرة فى كل مكان .

- لقد تراءى إلى سمعى اليوم أن رجال هيرود اقتحموا الناصرة فى الصباح ، حيث ...

قال زكريا مُستطردًا فى أسى :

- حيث نُزل مريم و آل عمران .

- ماذا نحن فاعلون ؟

قال زكريا فى حماسةٍ بَهتت عليها الأحزان :

- ما أمرنا به الله ، و ما سكتنا عنه أمد بعيد .

- و ما هو يا كبيرنا ؟

إن هيرود جاء لبلادنا مُغتصبًا العرش منا ، و فى سبيلهِ لذلك تخلص من والده بمُعاونةِ هيركانوس الخائن ، الذى لقى جزاءه ، و قد رضخنا لظلمهِ و جبروتهِ و اضطهاده لليهود ، و استحقاره لعاداتنا و تقاليدنا ، حتى بدأ عرشهُ فى الإنهيار بعد قتله لزوجتهِ مريمنة و أخيه فاسيل ، بعدما تجنى

عليهما بالفاحشةِ و حكم بحرقهما و حرق ابناءه دون مُحاكمة أو مشورة كهنة الجليل ، لتفقد الناس تبريراتهم له لترضى بحياتهم الضنك ، لتحوم حوله شبهة القتل العمد خاصة بعدما جلب عائلة شقيقه من روما و قد كتب عليه النفى مدى الحياة .. كل هذا و الجليل ساكن بدمعهِ الحرى ، يُواسى الثكالى و يضمد جراح العجائز و يقود النفوس الخربة المُضطهدة فى صلاةٍ صامتةٍ ، أما الأن فقد جاء صاحب العرش الحقيقى ، من سيُوحد يهود بنى إسرائيل و يُعمدهم بالروح القدس ، شاحذا هممهم ضد ظلم هيرود و طغيانه .. هذا هو أوان الجليل .. علينا أن نستخرج غضب الرجال و النساء و حتى الأطفال ضد هذا الطالوت الطيطان حتى يحين الميعاد المُرتقب .

- صدقت .. فلنشحذ الهمم .

- و ليسقط عرش هيرود و من خلفهِ روما .

فتت كلماتُ زكريا فى عضدِ أقرانه ، الذين عسوا بين الناس يُشعلوا ما بهم من غضبٍ و ثورةٍ ، فانتشرت التجمعات التى تهتف بسقوط عرش هيرود و تنكيس العلم الرومانى ، و أخرى تتطالب بمثول هيرود أمام الجليل لمُحاكمتهِ فيما يخص قتله الأطفال الرضع و هتك رجاله للبيوت الآمنة .

كان غياب هيرود عن أورشليم بمثابةِ الشعلةِ التى اشعلت فتيل غضب الأهالى ، الذى أخذ فى التعالى دون رادع يردعهم ، حتى طال غضبهم قصر هيرود فى أورشليم ، فدخلوه عنوة بعدما ذبحوا حراسه و مثلوا بجثثهم شر تمثيل و علقوها على باب القصر ، لتكون إعلانا صريحًا على عصيانهم للحكم الرومانى الغاشم المُتمثل فى هيرود و حاشيته من الرجال

غليظي القلب ، فكان هم كل فرد من عامةِ الناس الثائرين هو الحصول علـى أكبـر كـم مُمكـن مـن ممتلكـات القصـر ، فكانـت الأوانـى الفضـية والصحاف الذهبية و الحُلى هم ميراث الغضب للفقراء ، الذين تدافعوا على غُرفِ القصر كأمواج البحر العاتية ، الموجة تلو الأخرى يدفعهم الفقر و شدة العوز ، المُتولدان من ظلم الحاكم و تشديده على الرعايا .

نمى إلى علم هيرود ما ألم بأورشليم و ما فعله الثوار فى قصره ، فسيطر الذعر عليه ، و خرج مارد قلقه من قمقمهِ ليُعانق سحابة أفكاره و خوفه على عرشهِ ، لقد ثار الشعب عليه عندما علموا بميلاد نبيهم المزعوم ، وهو مازال فى مهده رضيعًا تمردوا و دمروا قصره و جعلوه كقاع صفصفا ، فما باله عندما يشتد عوده و يصبح فتيًا ؟ .. ستتحقق نبوءة الكهنة و ينتزع منه مُلكه ويجلس على عرشهِ آمرًا فى الناس .

قرر هيرود أن يمكث فى صهيون بضعةِ أيام حتى تخمد ثورة الثائرين فى أورشليم من جانب ، و ليطمئن قلبه أن رجاله قد قضوا على طفل اليهود الرضيع فى الناصرة ، حتى تنهار عزيمة الجليل و تثبط همم الناس بفقدانهم الأمل و الحلم ، ليتوغل بظلمهِ و بطشهِ فى أيامهم دون أدنى مُعارضة أو نضال .

ظل القلق يُراوده عدة أيام حتى جاءه جنده ليخبروه أن مريم فرت و معها طفلها و نزحت خارج البلاد ، و مع هذا فقد ذبحوا كل وليدًا و رضيعًا فى بيت لحم ، فهدأت خيفة هيرود بعض الشئ ، و لكن مازال القلق يُساوره ، ماذا عن غده ؟ .. قد يظهر ذلك النبى المزعوم و يلتف حوله الناس مُهددين عرشه ، الذى سينهار تحت وطأة غضبهم و بطشهم به بلا رحمة

اجتمع هيرود مع ندمائهِ ليبحث في عقولهم عن حل رشيد يقضى على مخاوفهِ و مزاعم اليهود ، فأخذت الحلول و الإقتراحات تتأرجح بين صائب و طالح ، و لكنها بدت حلولا ضعيفة واهية ، لا تخمد ثورة الثوار ، و لا تبتر حلم التخلص من الحكم الرومانى من عقول الأهالى ، حتى نطق أحد الرجال بدُر الكلم فغزا العقول و القلوب معًا :

- فى أيدينا أن نغتال أحلام اليهود فى مهدها و أن نقتل هذا الطفل الذى يُؤرق مضجع مولاى دون أن نسعى خلفه فى الفيافى المُقفرة .

- كيف يتسنى لنا فعل ذلك ؟

- بالإشاعات و التأويل .

- ماذا ؟

- إن الناس تؤمن بكل ما تسمع من مُنطلق مصداقية الجمع والإنتشار ، و الخبر إن ولد بيننا هنا فى صهيون سيشب و ينضج ويُصبح فتيًا هناك فى أورشليم حيث الجليل ، فطبيعة البشر تعشق المُزايدة و التطويل ، فما بالكم باليهود الذين ظلوا يعتنقوا الخزعبلات و الأساطير عشرات الأعوام على إنها مُعتنق دينى .

- أفصح عن مُبتغاك .

- نشيع بين الناس أن مسيحهم قد قتل ، لتموت أحلامهم فى مهدها .

قال آخر مُحذرًا :

- و لكن هذا سيخلق موجة عاتية من الفوضى فى شتى أنحاء إسرائيل .

- و لكن لكل موجة عاتية نهاية حتمية سيسود بعدها الهدوء ، و ثورة

الشعب على هيرود ملك البلاد منفس حتمى لأغتياله آمالهم التى طالما حلموا بها ، و فى المُقابل سنحطم أسطورتهم فى ميلاد من سيُخلصهم من الاستعمار الرومانى .

خيم صمت مُطبق على القاعةِ ، و هيرود جالس على مقعده كتمثال من المرمر ناظرًا لرجالهِ بعين زجاجية ، بدت خاوية من أى حياة ، حتى قطع صمت الجميع ، مُحطمًا جموده ، قائلا :

- و ليكن ما قاله أجمنتوس .. فلينطلق الرجال فى الأسواق و الشوارع مُعلنين أغتيال المسيح المُنتظر و قد تخلى عنه ربه ليُصبح أضحية فى بلاط هيرود .

شاعت كذبة هيرود فى أرجاء البلاد كالنار التى تقبض فى تلابيب الحطب الجاف ، لتحطم الأحلام و تدمر نفوس الناس ، الذين خرجوا إلى الشوارع مُخربين كل ما تطوله أيديهم ، ناهبين المعابد و دور العبادة ، بعدما فقدوا رمز العبودية و الآله الذى تخلى عنهم و سلم مُنقذهم لهيرود ، و بخل عليهم ببسطة من الحماية و رماهم فى كرب و ضيق ، بينما رجال هيرود تساهلوا مع الثوار ليزداد الدمار و يعم الخراب ، حتى اصبحت البلاد كعجائز نخل مُنقعر تعف الغربان أقتحام دروبها ، خاصة بعدما أصبح تأثير رجال الدين و الكهنة فى الناس مُنعدم ، بل اصبحوا مُضطهدين من عامةِ الناس ، فآثروا الإبتعاد عن مرمى الأحداث حتى تخمد النيران وتقبر الفتنة بأيدى مُشعليها ، لينتصر هيرود ، و يصبح أجمنتوس رجله المفضل ، و قائد جيوشه .

* * *

داخل مخدع هيرود ، افترش هذا الأخير مضجعه بعدما فرغ من هيروديـاس و نهل من أنوثتها ما يكفي لإشباع رجولته ، و عب من خمر شفتيها ما كان كفيلا لرويه ، بينما نهضت هذه الأخيرة تبحث عن ثيابها وقد كانت تقف عارية تماما ، شاهرة أسلحتها الأنثوية فى ضراوةٍ ، حتى اهتدت لثوبها الراكد منذ سويعات .

- ما أجمل الليل فى حضرة امرأة جميلة مثلك يا هيروديـاس !

عدلت هيروديـاس هندامها ، و هى تقترب من هيرود لتجلس بجواره ، وجسدها يُعانق جسده فى ظمأ جارف ، و هى تقول :

- بل ما أجمل الليل و الحياة صافية من الخصومات و العداوات !

- نعم ، فلولا أجمنتوس لظل موضوع المسيح و ثورة أتباعه يُؤرق منامى ، كأنه الشوك فى خاصرى يضرب بنصلهِ فيئن الخاصر و يتداعى الجسد بالحمى و السهر .

قبضت هيروديـاس على قنينةِ الخمر و سكبت بعضها فى قدح هيرود ، الذى ضحك فى هستيريةٍ ، قائلا :

- الليلة خمرٌ وعشقٌ ، فآلىَّ بخمر شفتيك يا امرأة طال انتظارى لها .

تلاقت الجباه فى عناق طويل تخلله عصر الشفاة بقوةٍ ، كأنها الأطعمة السمان فى حضرة فقير جوعان ، حتى فرغ هيرود فأرتشف بعض الخمر ، قائلا :

- سلينى ، فاليوم مُجابة هى أوامرك .

لقد فعلت ما فعلت يا مولاى بفاسيل زوجى و مريمنة زوجك من أجلى ، حتى أصبح ملكا لك ، و ها نحن نحيا فى خضم السعادة و أجسادنا تتلاقى

فى عتمةِ الليل يوميًا ، و لكن إلى متى سيبقى الوضع هكذا ؟ .. فوجودى أنا و ابنتى مرهون ببضع أيام و ربما أسابيع ثم يجب علىَّ مُغادرة الشرق فى طريقى إلى روما ، حيث لا يُفترض وجودى هنا بعد وفاة زوجى .

- و ما يمنع ذلك ؟

- أهل هذا البلد .. أنسيت أن هذا يعد تجاوزًا لعاداتهم و تقاليدهم ، وفيه فضح لأمرنا .

- و لكنى لا اقدر أن أحيا بدون هذا الجسد ، بدون حبك .

- إذا فلنتزوج يا مولاى ، ليُصبح هذا الجسد ملكا لك بدون خوف أو خشية من أحد ، و ليبق وجودى بجوارك مُباركا من شعبك ، و ليكن عُرسنا فرصة عظيمة لتهدء ثورة الناس .

أخذ هيرود يعقل كلمات هيروديـاس جيدًا ، فهو قتل شقيقه و زوجه وأولاده لأنه اشتهاها و أدمن خمر شفتيها ، و مُداعبة خاتميها ، و لكنه يرفض أن يُشاركه أحدٌ العرش ، فهل يستطيع أن يستعيض عن حبه وعشقه لأديم النساء بحبهِ للعرش ؟

- فلتضرب الدفوف لتعلن أن هيروديـاس أصبحت ملكة على البلاد .

زادت إبتسامة هيروديـاس ، و هى ترى حلمها فى السلطةِ يتجسد أمامها ، و سوف تجد مكانا لها على عرش إسرائيل لتشارك هيرود الحكم .

* * *

انتشر خبر زواج الملك هيرود من زوجةِ أخيه الراحل بين الناس ، التى استقبلته باستنكار و رفض ، فقد اعتادوا كل غريب و شاذ من ذلك الطيطان ، حتى وصل الخبر لأورشليم و حط بين كهنة الجليل ، الذين

ساورهم الشك فى هذه الزيجة ، خاصة زكريا الذى عاد بذاكرته لذلك الحادث الأليم ، الذى ختل فيه هيرود كهنة الجليل و أقنعهم إنه غلب على أمره ، و لأول مرة يُصبح فيها الضحية ، بعدما اغتال أخاه شرفه دون رحمة ، أخاه الذى عاد من منفاه فى روما دون سبب واضح ، جاء من بلاده ليُقتل فى مُلك شقيقه ، ليفد لبلاده مرة أخرة جثة هامدة ، و تلك الفاضلة مريمنة ، التى كانت مشاعرها تئن و تنفطر عندما تلمس أناملها الرقيقة دموع طفل صغير ، أو فتاة صدر عويلها لضر حاق بها كيف تأذى روحها و تشتهى منى مُحرم ؟

فاق زكريا من شروده على طرق أحد خدام المعبد ، الذى بشره بوجود رسول جاء من بلاد العرب يود مقابلته .

- لماذا جاء يا بُنى ؟

- لا أعرف يا سيدى ، و لكنه يقول إنه رسول من عند زوجة الملك هيرود ابنة الحارث .

استقبل زكريا رسول ابنة الحارث بالبشر و صفاء الوجه ، الذى تبدل وانهار على آثر كلمات الرجل ، التى طابقت ظنون و شكوك زكريا ، لتمحو أى أثر لراحةِ البال ، فسرعان ما حل زكريا على الكهنةِ و خطب فيهم بما جال فى صدره من شكوك و ظنون صدق عليها رسول زوجة الملك العربية ، التى تبغى الرحمة و السماح ، فقد كادت تفقد صوابها من شدة تأنيب الضمير ، فغلت الدماء فى عروق الكهنة ، الذين خرجوا فى الشوارع مُهللين :

- زواج هيرود من زوجةِ أخيه باطل .

و ظلت هذه العبارة تحتل و تستوطن لسان زكريا مدة ليست بالقصيرة ، على أمل أن تصل لهيرود فى معقله لتوقف هذه الخطية ، و لكن سبق السيف العزل .

-٦-

مرت شهورٌ و أعوامٌ و قد توحش الملك هيرود ، بعدما استعاد سيطرته على البلاد بإخماده الفتن و الثورات الداخلية ، و قد هرمت و شاخت بعدما ثبطت عزيمة الشعب بإيمانهِ بوفاة المسيح عيسى بن مريم و هو مازال رضيعًا ، لينخر الحزن حياتهم ، ليجعلها هشة ، واهية كعجائز نخل مُنقعر ، ليُصبح الرجال أشباحًا تعاشر أشباح ، وباتت المُدن شديدة السكون كأنها قبور الموتى ، كما قضى على النزاعات التى شرع فيها كهنة المعبد من يهود صدوقيين و يهود فريسيين ، نشبت أثناء أنشغال الشعب فى أحزانهِ و مراثيهِ ، أيهما يتزعم رئاسة المعبد ، وأيهما أحق بالحصول على المناصب الرفيعة ، لتهدأ البلاد بعدما أصبحت قاعًا صفصفا ، فتحول بجيوشهِ نحو البلاد المُجاورة ، سعيًا خلف أحلامه و أطماعه فى تخليد اسمه و حفره بحد السيف فى سجلات التاريخ ، ليفتح الأمصار و يدخل البلدان داككا الحصون ، و هادمًا الأسوار ، لتصبح أخباره حديث الملوك قبل العامة فى شتى أنحاء البلاد .

سعد أعضاء السناتو بهذه الفتوحات التى باركها العلم الرومانى ، و لكن القلق بدأ يُساورهم عندما امتنع هيرود عن دفع الضرائب لروما ، مُتعللا بأحتياجه الشديد للمال لاستكمال فتوحاته ، ليتحول هذا التمنع لعصيان تام جاهر به ، و قد ظن فى نفسهِ سيد الكون ، فأتى بما أتى به والده مع روما و السناتو ، و قد استعان الرومان به ليطعن والده فى ظهره ويحتل مكانه ليُصبح صنيعتهم ، و لكن من سيختاره السناتو هذه المرة ليكون ذلك الخنجر المضى الذى يطعن هيرود فى ظهره و يردى غروره قتيلا

ليُصبح جثة هامدة ؟ .. ظل أعضاء السناتو يُرددون هذا السؤال شهورًا عديدة مُحاولين الإهتداء للإجابة المُناسبة ، حتى وقع اختيارهم على ابنهِ من زوجهِ المُستبعده عن حياته ابنة الحارث ، التى كانت إحدى أدواته للظلم و القتل ، فلم تملك بعد عودتها لديارها بين أشقائها إلا زرع الكراهية فى قلوب ابنائها ، حتى يحين موعد القصاص ، حتى ارسل السناتو فى طلب الابن الأكبر أرخيليوس ليُقاتل فى صفوف روما ضد طغيان أبيه ، فباركة ابنة الحارث هذا الصراع ، الذى سيُعيد لها بعض من سعادة الأيام التى ولت مُخلفة ورائها طعم الحسرة و عذاب الضمير .
اعدت روما جيشًا عظيمًا جعلت أرخيليوس قائده و أرسلته لبلاد الشام ، حيث فتوحات هيرود ، ليُوازر العرب فى حربهم الضروس مع هذا الأخير ، الذى ظن فى نفسهِ أنه آله تخشى الهزيمة الإقتراب منه .
و كان اليوم الموعود .. يوم لقاء الجيشان ، جيش هيرود الذى يقوده بنفسهِ مُعتليًا فرسه الأبجر فى خيلاءٍ ، و جيش الرومان المُتضامن مع جيش العرب بقيادة أرخيليوس ، الذى قبض على سيفه بفتوةٍ و حماسةٍ ، يدفعه للنزال ثأر أمه من أبيهِ ، مؤازرًا إياه شبابه و فتوته .
تلاقى الجنود فى قوةٍ ، لتومض شرارات السيوف المُتلاحمة ، لتعلن عن أراقة الدماء التى تخضبت بها الأرض الرملية العطشى ، و قد حل ملك الموت و أعوانه ليتربصوا بهذا النزال ، لينتقوا ضحاياهم فى شراهةٍ ، مُخلفين الأجساد البالية و بقاياها المبتورة ، المنثورة هنا و هناك لسرب الطيور الجارحة ، التى انتصبت على قمم الجبال مُنتظرة أن تضع الحرب أوزارها ، ليختلوا بالطعام البشرى الممزوج بالدماء الوردية .

كان قوام جيش العرب عظيمًا ، و لكنه يعوزه الخبرة و الحماسة و القدرة على القيادة ، التى تفوق حماسة الدفاع عن الأرض و العرض ، فقد كان لأخبار هيرود و انتصاراته و جيشه الذى لا يُقهر وقع السِحر فيهم ، فبدأ جيش العرب و معه جيش الرومان فى التقهقر و الفرار مع أول ضربة سيف ، و قد عمل سيف هيرود فى رقاب العرب حتى كلت يداه من ضرب الأعناق و حصدها ، و قد عفت عيناه عن مشاهدة الدماء و قد أغرقت ثيابه ، فقرر إنهاء القتال ، و كان هذا فى عُرف حروب البادية قتل قائد جيش الخصم ، فرمق هيرود موقع أرخيليوس ، فلكز فرسه مُوجهًا إياه صوبه ، على حين تعسر على هذا الآخير قبول هزيمة العرب ، كما تعسر عليه أن يعود لأمهِ دون رأس أبيه ، الذى أذل ناصيتها ، فقرر أن يدع الحرب تضع أوزارها كيفما شاءت ، و يبحث عن والده ليُبارزه و يسلب منه عمره و أيامه .

وقف هيرود أمام ابنه ، الذى غاب عنه معظم سنوات عمره ، فكان من العسير عليه أن يتخيل أن الماثل أمامه و يُناطحه بضرباتٍ سيفه القوية هو ابنه .

تلقى هيرود ضربة السيف على درعهِ ، ليُباغت صاحبها بضربةٍ حادة اصابت ساقه ، ليسقط على آثرها أرضًا ، و ساقه تجود بدمائهِ الورديةِ ، و قد دب الخوف فى قلبهِ ، فها هو والده يستعد ليُجهز عليه كما أجهز على أمهِ من قبل دون رحمة أو شفقة ، و قد بدت نواجزه بيضاء ناصعة و هو يضحك فى تعالى و غرور .

- الأن حان دور رقبتك .

دوى صفير سيف هيرود ماخرًا الهواء ، و قد أشهره عاليًا ليهبط به بقوةٍ على رقبةِ غريمه ، الذى استسلم لقدره ، داعيًا الموت على مضض ، لولا أن دوت كلمات فى أذنهِ شلته و جمدت السيف فى الهواء ، و ذبابته تلامس رقبة الفتى ، و قد جحظت عيناه غير مُستوعبة ما تراه ، و قد فغر فاهه فى بلاهةٍ مُصغيًا :

- اقضى علىَّ كما اجهزت على أمىَّ ابنة الحارث .

ابنه البكرى الذى فر من براثن جنونه بالعرش مع أمه إلى بلاد العرب يقف أمامه مُقاتلا إياه ، راغبًا فى رأسهِ لتزين سيفه ، يُحاول أن يأتى بما أتى به قديمًا ، عندما تآمر على والده أنتيباطر مع رجال مجلس السناتو والكاهن هيركانوس ، ليُرديه قتيلا و يتقلد حكم البلاد من بعده ، و لكنه لن يسمح لأحدٍ أن يتآمر عليه ، لينتزع المُلك منه حتى و لو كان ابنه ، من جاء جراء جرى ماؤه فى رحم زوجه ، فهم بعقر ابنه بإطاحةِ رأسهِ ، لولا أن عاجله هذا الأخير بضربةِ سيف قوية تصدرت صدره ، ليسقط على آثرها مُعانقا الأرض ، ليلفظ أنفاسه الأخيرة فى ذلةٍ و مسكنةٍ ، ليلقى حتفه كأدنى جندى يلقى مصرعه فى قتال ، على حين تحامل الفتى على نفسهِ و نهض مُتعكزًا على سيفهِ صائحًا فى الجنود :

- لقد مات رب جيشكم ، لقد قتلت هيرود الذى لا يُقهر ، لقد قتلت أبىَّ .

كانت لكلماتِ أرخيليوس آثرها فى رجال جيشه ، الذين عمدوا للفرار إلى الفيافى ، ليعودوا و يكروا على أعدائهم ، الذين فجعوا لمقتل قائدهم ومليكهم ، لتنقلب الحرب عليهم ، و تضع أوزارها سريعًا ، ليكون

النصر حليف العرب و الرومان و قد بدا مُفارقهم لحين بعيد .
عاد جنود إسرائيل إلى ثكناتهم ، منهم من يُعانى جُرحًا غائرًا سيحيا على أثره ما تبقى من حياته ، و منهم من عاد فاقدًا عضوًا من أعضائهِ ، حتى الذى عاد سالمًا كسرته الهزيمة ، ليُعانى من شماتة الأهالى ، و يتحمل لومة كهنة الجليل من الصدوقيين الذين عارضوا هيرود فى شن الحروب و التوسع .
رقد جثمان هيرود داخل قلعة ماكيروس ، تلك القلعة التى شهدت مجونه و فجره و عبثه بفروج النساء ، و قد رفضت بعض أنفاسه أن تغادر صدره ، و قد ألتف حوله أمهر الأطباء يُداوون جُرحه ، الذى كاد أن ينفذ لقلبهِ .
و من بعيد وقفت هيروديا تشاهد ما حل بهيرود بعين شاردة ، و قد بدا شبح إبتسامة صفراء يُزيل شفتيها ، و ظل وجهها به إشراقة عجيبة لا تتلائم مع أحداث يومها حتى فرغ الأطباء من مهمتهم ، و الأسى يظهر على وجوههم المُتجهمة ، الجامدة ، و شفاههم تتلمظ ببعض الكلمات الغير مفهومة ، و قد عاقرها الهمس .
- خيرًا .. هل سيشفى من جُرحه ؟
- نأمل ذلك ، و لكن ...
- لكن ماذا ؟
- لقد كانت الطعنة قوية ، و قد نفذت من ظهره مُحدثة تهتك عظيم فى جدار القلب .
- صلوا له من أجل الحياة .

انفض المجلس ، لينبئ عن كارثة ستحل على عرش مملكة إسرائيل وربما على شعبها كله .

اختلت هيروديـاس بنفسـها داخـل مخدعها ، و قد بدت شـاردة ، جامدة الوجه ، و قد برقت عيناها فجأة ، و قد شـود ذهنها بعيدًا ، مُتخيلة إنها تتمخطر فى باحةِ العرش ، و قد برز لها ذلك الكرسى الذهبى خاويًا على عروشهِ ، و جثة هيرود تفترش الأرض بجواره ، و قد جفلت عيناه فى سكون ، راضية بسُنةِ الحياة ، فدوام الحال من المُحال ، فأخذت تدنو من الكرسى الذهبى بخطواتٍ بدت ثقيلة ، و مع كل خطوة تخطوها صوب المقعد يُهئ لها إنه يبتعد عنها عدة خطوات ، حتى وجدت نفسها تجلس عليـه ، مُتحسسـة مسـنده الماسـى ، مقبلـة نتوءاتـه المرصـعة بالزبرجـد والياقوت ، و قد دخلت عليها ابنتها سـالومى ، تلك الفاتنة ، التى شبت سريعًا لتصبح امرأة تنتظر ذلك الرجل الذى سيُداعب خاتميها .

همت سالومى أن تجلس على مقعدها المُعتاد منذ زواج أمها بملك البلاد هيرود على يسار العرش ، لولا أن أوقفتها أمها داعية إياها أن تفترش ذلك المقعد الذى يرقد على يمين العرش ، لتعلن بذلك إنها اصبحت ملكة البلاد المُتوجة ، و ابنتها الفاتنة من تخلفها .

فاقت هيروديـاس من شـرودها غير مُصدقة إنها توشك أن تتقلد الحكم نيابة عن زوجها لتبت فى شئون البلاد ، لتصبح هى الحاكم الأمر النـاهى بعد وفاة هيرود ...

وفاته القريبة ...

انتشـر خبـر هزيمـة هيـرود علـى يـد ابنـه البكـرى أرخيلـوس مـن زوجـةٍ

العربية ابنة الحارث ، الذى أرداه بضربةٍ سيفٍ قاتلة سكنت صدره ، جعلته يُصارع الموت فى قلعة ماكيروس ، تلك القلعة التى شيدها لمسراتهِ و مجونهِ ، يجتمع بين جدرانها بجواريهِ ، ممارسًا معهن الفجر و كل ما هو مُحرم ، و قد كانت الراقصات العاريات يتثنين فى أبهائها الرحبة ، و أصوات المغنيات تتردد فى جنباتها مدوية ، و ضحكات الفحش تعلو على صخب الندماء و المخمورين و التائهين بين فروج الحظيات ، أما الأن فقد لف القلعة سكون رهيب ، و خيم عليها هدوء شامل ، و راح الجنود و الخدم يسعون هونا فى الطرقات ، فالملك الطاغية طريح الفراش ، يشكو ما ألم به من سقم ، كان مسجى فى سريره الفاخر ، يغوص فى الديباج ، و لكن القروح كانت تأكل جسمه ، و قد اصفر وجهه ، و ذبل و غارت عيناه ، و لكن لم تختف قسوته وضراوته .

و مع غياب هيرود ظن الناس إنه مات متأثرًا بجرحهِ الغائر ، فخرجوا فى الشوارع مُهللين مُكبرين بذلك النصر الآلهى ، و الرضا يغمرهم بقصاص السماء العادل من قاتل المسيح عيسى بن مريم ، و قد نادوا فى كهنةِ الجليل بتنكيس النسر الرومانى و التخلص من حكم الطاغية البائد ، فأمر زكريا تلميذيه يوداس و متياس بتنكيس النسر الذهبى ، الذى ثبته هيرود على باب الهيكل الكبير ، على الرغم من إعتراض الكهنة الصدوقيين و الفريسيين ، الذين كانوا يدينون بالولاء لهيرود و من ورائهِ الإمبراطورية الرومانية ، مُعلنين بذلك - زكريا و الشعب - تمردهم وعصيانهم للسلطة الرومانية ، و تخلصهم من ذلك العار المشين الذى

دمغهم ، و جثم على صدورهم أعوام طوال ككابوس بغيض .

*   *   *

داخل الأرض العربية التى تحيط بمملكةِ إسرائيل كما يُحيط السوار بالمعصم ، و داخل أحدى الدور الرابضة بعلى رمال الصحراء ، التى تعكس ظلمة الليل و سواده ، سكن أرخيلوس كاشفا عن صدره المزدحم بشعيراتهِ النافرة المُشعسة ، و قد تخضب بدماء القتلى و الجرحى ، الذين هلكوا فى حربه الضروس مع هيرود ، و قد رقدت أمه أمامه تنظفه ببعض الماء الدافئ ، مُتحسسة ذراعه المفتول و أوداجه المُنتفخة فى خيلاء ، و قد افترشت السعادة وجهها ، و برقت عيناها بشدة ، و هى تتغزل فى فتوة ابنها قائلة :

- ما أسعدنى اليوم من امرأةٍ ! .. لقد منحنى الرب ابنا فتيًا ، له من ضربةِ السيف ما يشق الحجر العاصى ، و خفة فى الكر و الفر تفوق خفة نمور الأرض ، و حدة بصر تغلب حدة بصر الصقور ، و ...

قاطعها أرخيلوس ، و قد خالط الضحك كلماته :

- كفاك يا أماه قبل أن يُطيح بىَّ الغرور ، ما أنا إلا واحد من فرسان العرب و جندى من جنود هذه القبيلة .

- بل خير فرسان العرب و أعزهم ، أنت من قهر طغيان هيرود وحطم غروره و جبروته على ذبابةِ سيفهِ ، أنت من سلب أيامه التى مضت بلا عودة ، و التى لا يعلم أحد سوى الرب كم من رجل كان سيقتل على يده ؟ .. و كم من امرأةٍ كان سيهتك عرضها بسبب نزواته ؟ .. و كم من طفل برئ كان سيشرد بسببهِ ؟ .. لقد اصبحت بُنى فارس

هذه الأمة ، و تلك الأسطورة التى ستروى للأجيال القادمة .

تطلعت ابنة الحارث لوجه ابنها الواجم ، الشارد بعد ما انهت عباراتها المُسهبة ، فلاحظت جمود قسماته ، و عيناه الزائغتان بنظراتها الزجاجية الخالية من الحياة ، فقالت فى دلال الأم المزهوة بانتصار ابنها ، العائد بالقصاص من زوجها الطاغية :

- قص عليَّ كيف عقرت والدك بسيفك هذا ؟ .. و كيف سقط عند قدمك يستجدى الرحمة منك ؟

- هذه هى المرة العاشرة التى تطلبين فيها سماع تفاصيل مقتل ملك اليهود . .

أشارت الأم إشارة ما دلت على شوقها و تعطشها الذى لن يبطل مادامت على قيد الحياة لسماع هذه الرواية ، فسرعان ما استجاب أرخيلوس وأمتع أذنها بتفاصيل الحرب ، و كيف كان يتنقل بين صفوف جيش بنى إسرائيل مربكا إياها فى خفةٍ و مرونةٍ ، كأنه يتراقص على إيقاع الموت ، حتى آن الأوان للقاء والده و إنهاء ما حاق برجالهِ من هزيمةٍ ، و ما نال أمه من ذل و مهانة على يديه ، ليغرس سيفه حتى مقبضه فى قلبهِ ، و قد آل عند قدمه صريعًا ، لا ينبت ببنة شفة ، ليلقى حتفه فى وضاعةٍ ، و قد حمله رجاله على محفةٍ حيث مثواه الآخير .

فاقت الأم من نشوة ما سمعت و ما تخيلته ، حتى ظنت نفسها واحدة من آل القتال ، لينتقل خيالها و يجمح حيث إسرائيل ، قلعة طبرية و حصن ماكيروس ، و العرش الملكى ، و ذلك الصولجان الذى أصبح ملكا لابنها أرخيلوس ، الوريث الشرعى لملك أبيه ، خاصة و مجلس السناتو وروما

كلها تؤيده و تؤازره ، و قد اعربت الأم عن رغبتها فى خروج ابنها وفى بطانتهِ كل رجل عربىً و يعمد إلى أرض اليهود و يغتصب العرش من يد هيروديـاس السـاقطة و ابنتهـا التـى ورثت العهـر منهـا ، و لكـن أرخيلوس اعترض على رغبتها ، مُشيرًا عليها بخروج العيون و العسس ليتأكدوا من مقتل هيرود ، و حرق جثتـه ، فكـان هنـاك شـك يُراوده بـأن سيفه قد خـان عهده معـه فـى حصـد روح أبيـه ، و إنـه مـازال علـى قيد الحياة ، أنفاسه ترفل فى نقى الهواء ، و وافقته الأم على ما رنـا إليـه ، لا لشكها فى عدم موت هيرود بل لثقتها المُفرطة فى مهارةِ ابنهـا ، و قدرتـه على الإجهاز على والده و رجالهِ .

و مرت الأيام سريعًا ، و قد صدق ظن أرخيلوس بعدما عادت عيونه من أرض اليهود ليؤكدوا له أن سيفه كـان عقيمًا ، و أن هيرود مـازال علـى قيد الحياة ، مسجيًا فى فراشهِ يُعانى سكرات الموت ، بعدما فشل الأطبـاء فـى مُداواتـهِ ، ليبقـى الأمـل حـى فـى صـدر ابنـة الحـارث ، التـى قالـت مُستفسرة من كبير العسس :

- اصدقنى القول ، هل هناك أمل فى حياة هيرود ؟

- لقد فشل الأطباء فـى مُداواتـهِ ، لقد اصـابت طعنـة ابنكم قلبـه حتـى نفذت من ظهره .

- و كيف بقى على قيد الحياة ؟!!

- إنه يحيا بدعاء من حوله يا سيدتى .

- و هل لمثل هذا أحدٌ يدعو له ؟

أشـارت ابنـة الحـارث لكبير عيونهـا أن ينصـرف ، لتنفـرد بابنهـا و قـد

قبضت على منكبيهِ فى قوةٍ ، مُحدثة إياه بحروفٍ جافةٍ ، مُنفعلة لتجلى خيبة الأمل و الحزن الدفين الذى تسبب فيه نجاة هيرود من ضربة سيفه عن صدره :

- لا تحزن و لا تعبث ، فهيرود أصبح الأن فى عداد الأموات ، فما سمعنا عن رجل نجا من طعنة سيف قوية اخترقت قلبه حتى نفذت من ظهره ، و لكن الخوف كل الخوف من تلك الحية الرقطاء هيروديا س ، التى ستحاول جاهدة انتزاع العرش ، لتصبح هى الملكة المتوجة من بعد وفاة هيرود ، ليؤول لها و لابنتها كل شئ .. كل شئ .

- و ماذا أفعل يا أماه ؟

- كر عليها بجيش عظيم ، قوامه كل رجل عربئ يحيا على هذه الأرض ، و لا تخش خطب ود الإمبراطورية الرومانية ، المهم أن يحدث ذلك قبل أن ينصبها كهنة الجليل ملكة على البلاد بعد وفاة هيرود ، و انتزع العرش منها كما نزعت زوجى منى ، و حينها عليك بقتلها وقتل ابنتها سالومى ، حتى يموت بموتهما كل صوت فى البريةِ يُطالب بالعرش دونك ، و بهذا تصبح أنت الملك المتوج على مملكة إسرائيل ، ثم تعمل على توحيدها مع بلاد العرب ، لتصبح أنت سيد هذه المنطقة ، الكل يسعى لخطب ودك و كسب صداقتك .

وجدت كلمات ابنة الحارث هوًا فى نفس ابنها ، الذى راوده حلمه عن واقعه ، فعمد لنشر دعوة الجهاد فى صفوفهِ بين القبائل العربية لمساندتهِ لكى يُصبح ملكا على إسرائيل ، و كان للعداوة و الخصومة التى بين هيرود و ملوك العرب آثرها فى ألتفاف الجميع حول ابنه للقضاء عليه

و التخلص من تهديد بلاده لحدود بلادهم ، كما عمد أرخيلوس لروما خاطبًا ود حكامها ، طالبًا منهم مآزرته فى حملته ضد هيروديـاس وتنصيبه على عرش إسرائيل خلفا لوالده .

و حان الميقات الموعود ليخرج أرخيلوس فى جيش عظيم من العرب والرومان ، مُتخذا دربه إلى إسرائيل ، و الشعور بالنصر يُدغدغ صدره ، و قد عظم هذا الإحساس فى نفسهِ عندما تطلع لجحافل الرجال التى يسوقها خلفه ، و الكل رهن إشارة من أصبعهِ .

الخيانة ديدن البشر منذ هبوطهم على الأرض ، فما أن تلوح القطع الذهبية أمام العيون حتى تسعد النفس و يهن عليها كل غال و رخيص ، و هذا كان حال مساعد أرخيلوس ، الذى كان فريسة لإغراءات هيروديـاس ، التى منحته المال و الضياع و أهدته النساء ، اللواتى لعبن بعقلهِ كما لعب هو بأختامهن ، و خدرن ضميره و أماتن ولاءه ، فباع صديقه و سيده بثمن بخس ، ليجد أرخيلوس و رجاله أنفسهم بين المطرقة و السندان ، بعدما حاصرهم رجال هيروديـاس عند سفوح الجبال ، و قد اعتلوها ، و أخذوا يتصيدون رجال الأول الواحد تلو الآخر ، و هم عاجزون عن درأ الموت عن أنفسهم أو الفرار منه ، حتى هدأت ثائرة الحرب لتضع أوزارها ، لتسفر عن مئات القتلى ، و آلاف الجرحى ، و عشرات الفارين ، الذين ضلوا فى الفيافى ليصبحوا فريسة الرمال الساخنة و الشمس المُحرقة .

سقط أرخيلوس أسيرًا فى يد رجال هيروديـاس ، التى امرت بأذاقتهِ شتى صنوف العذاب ، و قد كانت ترى فيه أمه و غريمتها و شريكتها فى

هيرود ابنة الحارث ، التى ترفعت عليها و أهانتها فى يوم ما ، و قد ساقها غرورها الأنثوى لأمر رجالها بصلب أرخيلوس و التمثيل بجثته ، و وضعها أعلى بوابة المدينة .

علمت ابنة الحارث ما ألم بابنها و بكريها ، و على الرغم من مُحاولاتها المُستميتة للتماسك إلا إنها وجدت دمعة حرى تشق وجنتيها ، صانعة أخدودًا حادًا ، و رغبتها فى ضم جثمان ابنها و غسله و دفنه بجوارها وبين ذويه تمزق نياط قلبها ، فأرسلت بعض الرجال لسرقةِ الجثمان الراقد على صليبهِ ، و لكن هيروديا كانت تتوقع مثل هذا التصرف الأخرق من غريمتها ، و استعدت له ، فقبض على المُتسللين و تم صلبهم ، و دق جثمانهم بجوار أرخيلوس ، أعلى البوابة ، ليكونوا عبرة للرائح و الغادى ، و دليلٌ قاطع على قوة عهدها و أحقيتها بالعرش خلفا لهيرود .

* * *

ساد أورشليم و البلاد اليهودية ظلام دامس ، عشش فى نفوس الناس ، منذ استشراء خبر بقاء هيرود على قيد الحياة ، و أن طعنة ابنه لم تنجح فى حصد أنفاسه ، فنزل بنفوس الناس هم ثقيل و حاق بهم القلق ، و دب فى قلوبهم الخوف ، خشية من عودة هيرود للحياة ، فيبطش بهم ، إنتقامًا لما اتوا به بقصره و رجاله ، فقد انقضى زمن طويل دون أن يظهر فيهم نبى أو قائد ينظم صفوفهم ، و يُنادى بحقوقهم ، التى ضاعت بين شراك الظالمين .

على حين كان يحي عاكفا على العبادة فى الهيكل مع زكريا ، الذى حثه

علـى صـدق العبـادة ، و رفض الظلـم و التنديد بـه ، و نصـرة المظلـوم ، والرضـا بالقليل مـن متـاع الدنيا ، و الزهـد بمـا تجـود بـه مـن مُغرياتهـا ، فظن هذا سُنة الكهنة و ديدن رجـال الدين ، و لكنه لمس عيشـة الرغد التى يحياهـا الرهبـان الفريسـيون ، و كـان يصـغى لسفسـطةِ الصـدوقيين واحتيالهم على الناس ، لاستدرار قوتهم ، فاحتله شعور بزيـف من حولـهِ ، و تدنى صـورة رجـال الـدين فـى عينـهِ ، بعدما رأهم يُتـاجرون بالـدين وقدسية المكان من أجل حفنة زائلة من الذهب و الفضة ، فـآثر أن يخـرج للبريةِ ، يعيش بين الوحوش ، فارًا بنفسهِ من ذلك النفاق و الريـاء ، و لـم يعترض زكريـا علـى ذلـك ، علـى الرغـم مـن رفض إليصـابات ، و عـدم مُباركتها لهذه الرحلة .

هـام يحـي فـى البـرارى ، يأكـل مـن ورق الشـجر ، و يـرد مـاء الأنهـار ، ويتغـذى بـالجراد ، و تستر جسـمه مدرعـة مـن الشـعر ، و علـى حقويـه منطقة من جلد ، و ظـل فـى عزلتـه يتأمل الطبيعـة من حولـه ، يتعبد فـى صمتٍ ، حتى هداه عقله لحتميةِ وجود رسالة له ، يهدى بها الناس لعبادة آله واحد دون غيره من أعاجيب خلق البشر ، فذهب إلى الأردن يدعوهم إلى الله ، فـالتفوا حولـه ، فـأمن مـن آمـن و كفـر مـن كفـر ، حتـى ذاع فـى الـبلاد أن نبيًـا خشـنا قـام فـى البريـة ، يـدعو لعبـادة رب واحـد و يبشـر بـأقتراب ملكـوت السـماء ، و لمـا كـان اليهـود يترقبـون عـودة إيليـا ، مخلصهم من الفسـاد ، اعتقدوا أن يحـي بـن زكريـا هـو إيليـا ، و قـد هبط فيهم مُبشـرًا ، فخـرج الرجـال و النسـاء و الأطفـال مـن كـل فـج عميـق ، مُهطعـين إلـى الأردن ، بـاحثين عـن نبـى آخـر الزمـان ، فجـاءوا إليـه

يعترفون بخطاياهم ، فيُعمدهم و يُطهرهم .
و بلغ نبؤه أورشليم ، و سمع الناس أن نبيًا جديدًا قام فى إسرائيل ، نزل ذلك الخبر على قلوب الناس نزول الغيث على الأرض المُجدبة ، فنبت الأمل ، و ارهفت الإحساسات ، و لاح فى الأفق تباشير عهد جديد ، وقد سعى أحد عيون هيروديـاس ، التى نبتت منذ مُصاب هيرود إليها ، ليخبرها أن نبيًا لاح فى البرية ، يحض الناس على الثورة على دولة الأغنياء ، يحض من له ثوبان على أن يُعطى من لا ثوب له ، فبعثت إلى رجال الدولة ، الذين تجادلوا فى كيفيةِ القضاء على ذلك المُتقشف وأنصاره من اليهود ، الذين هدوا أرواحهم له ، حتى اتفق الجمع على إخلاء الساحة للسنهدرين ، الذين ارسلوا بدورهم الفريسيين فى كبريائهم ، الغرور يسرى فى عروقهم مسرى الدم ، و قد اعتقدوا أنهم أهل علم وكتاب ، فهم لا يُغادرون نضد التوراة ، يقرءون فيه و يقرءون ، ثم يعودون فيقرءون ، لا شغل لهم إلا قراءة التوراة ، حتى حفظوا النصوص ، فتزمتوا فى تطبيقها دون الأخذ بروح نصها .
عمدوا إلى ذلك الرجل الناحل ، العارى إلا من مدرعةٍ من شعر ، و لم يفطنوا إلى إنه ابن زكريا ، ذلك الرجل الذى عرفوه نبيًا ، فزادت أحقادهم عليه لألتفاف الناس حوله ، و هجرهم مجالسهم ، سواء أكانوا صدوقيين أو فريسيين ، و ظنهم أنه يصنع الوقيعة بين الجانبين ، فتارة ينصر الصدوقيين على الفريسيين ، و تارة أخرى تثمر صنيعته بالنقيض ، فكانوا يتحينون له الفرص لإسقاط نجمه ، و الحيلولة بينه و بين الناس ، فافترشوا مجلس العامة ، يصغون لحديثِهِ ، الذى بدا لهم ماجنا ومُجدفا

، و قد كان يحث الناس على التعاون و حسن المُعاشرة و الجيرة ، والتمرد على الظلم و الطغيان ، و ضرورة مساعدة الغنى للفقراء ، حتى تستوى النفوس ، و يسلم المجتمع من شيطان الضغائن .

و مازاد جنون الفريسيين هو دعوته فى الناس بالإمتناع عن تقديم القرابين من طعام و حُلى لرجال بيت الرب من كهنةٍ و عُباد ، لأن الله خلق الإنسان ليعبده دون حجاب ، و الله يعلم ما يجول فى نفس العبد ، ويفقه بما فى قلبهِ فلا يحتاج إلى كبش أو قطعة حُلى ليُنظر إلى عبده .

قام أحد الفريسيين مُقاطعًا كلمات يحي :

- من أنت ، حتى نخبر من أرسلونا ، المسيح أنت ؟

فقال يحي بروية :

- لا ، إنما أنا صوت حى يصرخ فى البريةِ بما أوحى الله له ، حتى لا يضل عباده فى محراب وثنية البشر .

- فما بالك تخطب فى الناس إن كنت لست المسيح ، ألا تخش أن تضلهم عن درب الحق

و ما لديك من سلطان ؟

تبادل الفريسيون النظرات الساخرة ، و قد ظنوا صاحبهم قد نال من يحي ، الذى كان صلبًا كالصخر ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، لا يرجو عطف الناس ، و لا يخشى مقتهم ، فكان خشنا خشونة الصحراء التى يهيم فيها ، و قد رأى غطرسة الفريسيين و تكبرهم ، الذى نضح من كونهم من نسل إبراهيم ، و قد عفت نفسه عنهم فهجرهم ، فزحفوا إليه يُريدون به شرًا ، فقال لهم بصوتٍ كالرعد :

- يـا أولاد الأفـاعى ، مـن أراكـم أن تهربـوا مـن الغضـب الآتـى ، فاصـنعوا ثمـارًا تليـق بالتوبـة ، و لا تفكـروا أن تقولـوا فـى أنفسـكم لنـا إبراهيم أبًا ، لأنى أقول لكم ، إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجـارة التـى تسكن الثرى ، أولادًا لإبراهيم ، و الأن ها أنذا قد وضـعت الفـأس علـى أصل الشجرة ، فكل شجرة لا تثمر ثمرًا جيدًا تقطع و تلقى فى النار ، إن كنـت أقـول فيكم كلمـة بغير سـلطان ، فسيأتى بعدى مـن يهديكم لـدرب الهداية بقبس من نور .

تـدفق النـاس علـى يحـي ، العـوام و الخـواص ، يُهللـون بإسـمه ، فعلـم الفريسيون أن العارى ، الماثل أمامهم هو ابن زكريا ، فتدلت أعناقهم فـى خيبـةٍ ، كالشـاة المُشـرفة علـى نحرهـا ، و قـد رسـخ فـى صـدرهم أن الفريسيين و الصدوقيين لن تنهض لهم نهضة و لن يسمع لهم فـى وجـود زكريا و ابنه يحي .

ذاع سيط يحي فى أرجاء إسرائيل ، حتى ظن الناس أنـه المسيح المختـار ، و مـا إنكاره إلا تواضـعًا منـه ، فأصبح مجلسـه آمـال النـاس ، و كلماتـه سنتهم .

* * *

عاش عيسى فى كنف مريم و يوسف بين ضواحى مصر ، و قد أخذ هذا الأخير علـى نفسـه تـوفير قـوت يـومهم ، لتتفـرغ مـريم لرسـالتها العظيمـة لإعداد ابنها عيسى ليكون قائد اليهود و مخلصـهم من نير الظلـم الواقـع عليهم بيد أوغسطس قيصـر حاكم رومـا ، فكانت تروى له قصص الأنبياء و الرسـل ، الـذين بعثـوا فـى قومـهِ إسـرائيل لهـدايتهم لصـالح الأمـور ،

، شارحة بعض مآثرهم و خصالهم ، و ضرورة وجودهم فى حياة الناس ، فالمبعوث فيهم بالحق يعد نبراسًا يهديهم لطريق الفضيلة ، ليكون هو الصلة بين الناس و ربهم ، و مُجدد الأمل فى صدورهم ، و من جانب آخر أخذت تغذى فيه حب التوراة و الناس و تحمل أضرارهم ، التى تنبع منهم دون وعى أو فهم لحقيقة الأمور ، معرفة إياه أن الحلم سيد الأمور ، كما أن حب الناس هو سيد المجد .

كان يوسف ينتشر بين الناس مُروجًا لصناعتهِ ، فكان يُقبل عليه الفقراء ، من كانوا أعسر منه حالا ، فكان قوت يومه شحيحًا يكاد يكفيهم .

مرت الشهور و الأعوام ، و عيسى فى مصر ، يرقب بزوغ الشمس ومغيبها ، و جريان النيل و زيادته و نقصانه ، و بذر الحب و ترقب الثمار من الرب ، و المصريون و هم يدشنون المعابد و الأهرام فى صبر و جلد ، و كان يصغى لأمهِ و هى تعلمه الدعاء و الصلاة ، فكان فى هجعةِ الليل يرنو إلى النجوم المتلألئة فى السماء الزرقاء ، ثم يأخذ فى مناجاة ربه فيحس على صغره ، كأنما ملئ قلبه نورًا و حكمة .

و تعاقب الليل و النهار ، و مرت الشهور إثر الشهور ، و جرت الفصول سنوات ، و عيسى فى مصر يرى قسوة الحكام ، و ذلك الثراء الذى يخرج من الطين دون عناء نتاج الزراعة ، و إنبهاره بالعلم و التقدم ، وكان ما يُوغر قلبه أن كل هذا موجه لغير الله ، فكان المصريون يعبدون الأوثان و الملوك من دون الله .

و ذات ليلة دخل على أمهِ ، فألفى الوجوم و الحزن يُخيمان على المكان ، فنظر إليها فعرف فى وجهها الشجن ، فقرب منها قائلا :

- ماذا بك يا أماه ؟

- سرقت خزانة رب الدار .

- يا أم أتحبين أن أدله على السارق فيسترد ما سرق منه ؟

- يا ليتك تفعل يا ولدى .

- قولى له أن يجمع من فى الدار مساء الغد .

ذهبت مريم إلى صاحب الدار ، الذى كاد أن يُجن بعدما سُرقت أموالـه ، و طلبت منه أن يجمع كل من بداره ، و فى الموعد المُحدد عمد عيسى إلى رجلين منهم ، أحدهما أعمى و الآخر مُقعد ، فحمل المُقعد على عاتق الأعمى ، ثم قال له :

- قم به .

قال الأعمى فى شئ من المسكنة :

- أنا أضعف من حمله .

- فكيف قويت على ذلك البارحة ؟

فلما سمعوه يقول ذلك ، بعثوا الأعمى حتى قام به ، فلما استقل قائمًا بلـغ المقعد كوة الخزانة ، قال عيسى للرجل :

- هكذا احتـالا علـى مالـك البارحـة ، فقد استعان الأعمـى بقوتـهِ ، والمقعد بعينيه .

ولم يستطع الرجلان نكرانا ، فقالا :

- صدق رجلكم .

و ردا المـال إلـى صـاحب الدار ، الذى عمد إلـى مريم و بحوزتـه المـال ليقول لها :

- يا مريم ، نصف هذا المال من حقك .

- إنى لم أخلق لمتاع المال .

- إذا ، فهو من حق عيسى .

- هو أعظم منى شأنا .

و هكذا عظم شأن عيسى بين جيرانه فى مصر ، و قد ملك حبهم بحسن طباعه و زهده فى متاع الدنيا ، و ذات ليلة و قد نشر الظلام سترته السوداء ، المُرقعة بالنجوم ، دلف يوسف لمخدعه بعد يوم شاق من العمل ، فرأى فى منامهِ من يقول له :

- قم و خذ عيسى و أمه ، و اذهب إلى أرض إسرائيل ، لأنه قد هلك الذى كان يطلب نفس الصبى .

راح يوسف يتجهز للعودة ، حتى إذا تم كل شئ ، انطلق الركب فى الطريق مُتهدهدًا ، تداعبهم الآمال إذا هم مُقبلون على قومهم ، ينتظرون وعد الله و مكتوبه ، و مع كل خطوة يخطوها الحمار فى طريقهِ كان قلب عيسى يخفق من السعادة ، لكونه سيرى تلك الإناس الذين سمع عنهم من أمه ، من خرج فيهم الأنبياء و الرسل .

ظلت الأحلام و الأمانى تراود العقول ، حتى شارفوا على أعتاب الديار ، التى غابوا عنها سنوات طوال ، كانت هى كل عمر عيسى .

-٧-

بعدما لمس زكريا فى ابنه القدرة على قيادة الناس إلى طريق الهدايا ، آثر العزلة ليدعه يخوض رحلة الأنبياء من مُعاناة مع الناس ، العالم منهم و الجهول ، فعمد إلى محرابه لا يبرحه ، مُكتفيًا بإسداء النصح و الإرشاد لمن يرغب من عامة الناس ، و قد آل أرث زكريا من النبوة لابنه الوحيد يحي ، الذى خرج فى الناس ناصحًا ومُبشرًا بعودة المسيح ، و إن طفل مريم لم يُقتل على يد رجال هيرود ، و ما نمى إلى علمهم من خبر مقتله منذ عدة سنوات كان شركا أعده هيرود ليغتال أحلامهم ، و ينجح فى السيطرة عليهم ، و لكن الناس لم تصغ له فيما يخص مريم و طفلها ، فقد تملكت منهم أسطورة مقتل المسيح ، حتى بلغت حد الإعتناق ، ظانين أن المسيح المُنتظر هو يحي بن زكريا .

و ذات مرة و يحي يُعمد فى الناس ، قام رجل و قال له بلهجةِ العالم بخبايا الأمور :

- يا يحي يا ابن نبى الله اصدقنى القول .. ألست أنت المسيح ؟

قال آخر :

- نعم .. كلنا يعلم إنك المسيح المُنتظر .

- لقد كان زكريا يُنادى فينا بمجئ المسيح ، الذى سيُبادر برد حقوق اليهود المنهوبة ، المدحورة على أيدى الرومان .

ترك يحي قدر الماء ، الذى كان يُعمد به ، و ألتفت إلى الناس مُخاطبًا :

- يا أخوتى .. إنى لست أنا المسيح ؟

- إذا ماذا أنت ؟ .. إيليا أنت ؟
- لست أنا يا أخوتى .
- ماذا تقول عن نفسك ؟
- أنا صوت صارخ فى البريةِ ، قوّموا طريق الرب كما قال إشعياء النبى .
- فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح و لا إيليا ؟
- أما عن نفسى فأنا أعمد بماءٍ ، و لكن فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه ، هو الذى يأتى بعدى ، الذى صار قدامى ، الذى لست بمُستحق أن أحل سيور حذائه .

لم يلق الناس بالا لكلام يحي ، فانفضوا من حولهِ و الشفاة تتلمظ بكلماتٍ غاضبةٍ ، حتى أصبح يحي وحيدًا ، ثابتا كأنه تمثال من المرمر يُعبر فى براعةٍ عن خيبة الأمل ، فألقى نظرة أخيرة عبر الأردن و طفق راحلا صوب قلعة ماكيروس ، حيث كان يختلى بنفسهِ بالقرب منها ، ليعزف على مزماره نغماته الشجية ، التى تحكى ما وقر فى صدره من آنات .

و من بعيد كانت سالومى ابنة هيروديا تقف فى شرفةِ مخدعها مُشنفة أذنيها بنغمات يحي ، التى إن بلج فى عزفها حتى يُهئ لها أن صفحة السماء تصفو ، و السحب تنسحب فى هدوء خجلة ، و طيور السماء تسكن الأشجار الوارفة لتسترق السمع ، كان يُهئ لها أن الدنيا تتغير معالمها لحزنهِ ، و كانت تحاول جاهدة أن تدقق بصرها فى صفحةِ وجههِ ، لتشاهد ذلك الجمال الذى لم تره على رجل ، بل على البشر سواء أكان شرقيًا أم أعجميًا ، ببشرتهِ البيضاء كالثلج ، و شعره

و خصلات لحيته و شاربه الداكنة كسواد الليل ، لينسال فى نعومةِ تفوق نعومة الحرير و الديباج و الإبرسيم .

كانت ملامحه الصبوحة التى تفوق ملامح الأطفال براءة تستقطبها فى عبوديةٍ دون وعى منها لتمضى الساعات و هى ساكنة فى مكانها دون حراك ، و دقات قلبها المُتعالية المُضطربة تستجديها أن تتوقف عن الهيام به حتى لا تتأذى ، و لكنها تمضى فى هيامها به غير مُبالية ، حتى ينتهى من عزفهِ لتسبح مع صوته العذب و هو يُناجى ربه بأعذب الكلمات ، التى توارثها عن جده سليمان .

- أيها الرب سيدنا ، ما أمجد أسمك فى كل الأرض ، حيث جعلت جلالك فوق السموات ، من أفواه الأطفال و الرضع أسست حمدًا بسبب أضدادك لتسكيت عدو و منتقم ، إذا أرى سمواتك عمل أصابعك القمر والنجوم ، التى كونتها فمن هو الإنسان حتى تذكره و ابن آدم حتى تفتقده

عندما فرغ يحي من إبتهالاتهِ لربهِ و تأمله فى الطبيعةِ لينوى الرحيل ، كانت تشعر بغصةٍ حادةٍ تغزو صدرها ، و تمنت لو تأمر حراس القلعة بالقبض عليه و إيداعه مخدعها ، ليبق معها دائمًا ، و لكن لا مناص من رحيلهِ ، لتسود الدنيا فى عينيها ، و تحتل الغيوم السماء أسوء إحتلال ، وتهجر الطيور الأشجار ، و قد ذبلت فروعها الخضراء إحتجاجًا على رحيلهِ ، لتنفعل على كل مَن تقابله بالسُباب و أحيانا بالضرب الهين ، الذى يتلائم مع أنوثتها و رقتها المُفرطة .

* * *

دلف يحي ليجد أمامه امرأة ذات ملامح هادئة ، زينتها إبتسامة رقيقة

عندما لمحته ، و بجوارها يرقد شاب يُقاربه فى العمر ، أخذ يُحدق فيه بدهشةٍ ، و بجوارهما جلس والديه ، أمه و زكريا الذى لا يبرح محرابه إلا لعسير الأمور .

ظل الجمود و الدهشة يحتلان يحي ، حتى قالت أمه :

- هذه مريم ابنة خالتك حنة و هذا ولدها ...

قاطعها يحي و قد حل الحبور محل دهشته قائلا :

- عيسى بن مريم ، من أُبشر بمجيئهِ فى الناس ، التى ظنت أنه قتل على أيدى هيرود و جلاوزته ، ففقدوا الأمل فى غدٍ أفضل ، يحل عليهم دون إهدار لكرامات الرجال ، و فقد عذرية الفتيات ، و ترمل النساء الثكلى على يد رجال هيرود ، الذين يأتمرون بأوامر هيروديياس زوجه التى اعتلت العرش ، لتذل ناصية الشعب و تجثم على أنفاسهِ بكثرة الضرائب المفروضة ، و سن القوانين الغاشمة .. عيسى ابن خالتى مرحبًا بعودتك من أرض غربتك لتحل مُباركا على أرض رسالتك .

تعانق عيسى و يحي عناقا حارًا ، و كلا منهما يُقبل الآخر فى شوق ، على حين ترقرق الدمع فى مقلتى زكريا و هو يقول :

- لقد جمع الله الشتيتان بعدما فرقتهما أيدى الإنسان ، ليقبرا عهد الظلم و الجبروت ، الذى عشش فى صدور الناس ، ناشرًا سمه بينهم ، فما من بيت فى إسرائيل أو يهوذا لم يُضار فيه والد و لا ولد .

احس زكريا باستجابةِ عيسى و يحي لكلماتهِ ، التى جذبت إنتباههما ، فدعاهما للجلوس ، على حين استنشق نفسًا عميقا قبل أن يُردد قائلا :

- يا ولديّ .. لقد استقاكما الله دون البشر لتكونا خواتيم عهد

المُرسلين من بنى إسرائيل ، هكذا قال الله فى صحف موسى ، فقد انبأنى ملاك الرب ذات يوم بمولد يحي ، ليكون سيدًا و حصورًا بين قومه ، وليكن إمتدادًا لرسالتى فى هدايةِ بنى إسرائيل ماسكا على خمس كلمات ، آن الأوان أن تعرفهم يا ولدى .

- و ما هم يا أبتى ؟

- الجماعة ، و السمع و الطاعة و الهجرة و الجهاد فى سبيل الله خمس كلمات مُباركات تنادى بهن فى قومك ، من خرج على الجماعة قيد شبر فقد خلع ربق الإسلام من عنقهِ إلا أن يرجع ، و من دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم ، هذه كلماتك فاتق الله و اخش الذنب .

انهى زكريا كلماته تاركا يحي فى دهشتهِ ، و قد لاحظ عيسى و قد غارت رأسه نحو صدره ، لتعانق عيناه الأرض فى خفر ، ففطن زكريا لما رنى إليه عقل عيسى ، فقال مُوجهًا كلماته له :

- أما عنك يا عيسى ، فقد خلقك الله بمعجزةٍ ، فقد فتح الله رحم أمك دون أن يمسسها بشرى ، لينفخ من روحهِ لتولد أنت مُتكلمًا فى مهدك ، لتبهت الظلم و البُهتان الذى وقع على مريم ، لتكون نبيًا و رسولا مُحملا بعشر آيات تبرهن على نبوتك ، أولها مع ميلادك و آخرها مع ختام رسالتك ، عقب خيانة أحد تلاميذك طمعًا فى متاع الدنيا الذى لن يناله ..

يا بنىّ اعلما أن الأنبياء لا يملك الواحد منهم دينارًا ولا درهمًا و لا عبدًا و لا أمة و لا مأوى يُورثه لأبنائهِ ، فزهد الدنيا وسيلتنا لإبتغاء مرضاة الله و جنته ، و أن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، و لكما أن تعلما أن بين الجنة و النار مقام لا يقطع إلا بدموع البكائين ، فعليكما

بالبكاء ليتطهر قلبيكما من صدأ المعصية و الكبر .

فتت كلمات زكريا فى عضد الجميع ، و قد شخصت أبصار يحي وعيسى ، و كلا منهما يعى ما سمعه ، و عين الأول ترقب ردة فعلهما ، فلاحظ أن ألسنتهما معقودة تود لو تنطق بالحوار ، فقال مُخاطبًا يحي :

- يا يحي خذ عيسى و طف به أرجاء المدينة ليراه الناس ، فتشحذ ما بقى من الهمم وشواشى الكرامة المهدورة ، و ليطلع على حال البلدة .

خرج يحي و عيسى و مازال الصمت يعقد الألسنة ، و العقول تعمل فى نشاط مستوعبة ما سمعت ، حتى قبض عيسى على كتف يحي مُوقفا إياه ، و هو يقول ناهرًا :

- يا ابن الخالة ، لقد اصبت اليوم خطيئة ما أظن إنه يُغفر لك أبدًا .

فجع يحي من كلمات عيسى ، فقال و القلق يرسم آياته على وجهه :

- و ما هى يا ابن خالتى ؟

- امرأة صدمتها فى كتفها .

- و الله ما شعرت بها .

- سبحان الله ، بدنك معى ، فأين روحك ؟

- مُعلقة فيما قاله أبى ، و تلك الكلمات التى حُملت بتوصيلها للناس و حثهم على الأتيان بها .

- صدقت .

و عاد كلا منهما لشروده و صمته .

* * *

فى أحد أعياد اليهود التى يتجمهرون فيها على دور العبادة ، طامعين فى

رضـى الله علـيهم ، جلـس العشـرات فـى باحـة بيـت الـرب كعـادتهم ، مُنتظرين كبير كهنة الجليل ليصعد المنبر خاطبًا فيهم بحلو الكلام ، الذى يمس القلوب و يخترقها دون استئذان .

تقلد يحي بن زكريا المنبر ، ليجلس على الشرف فى هدوء ، فتهللت أسارير العامة ، على حين تعالت همهمات الخاصة المُستنكرة إمامة يحي لهم ، و لكن يحي لم يراع لذلك ، فحمد الله و أثنى عليه عدة مرات حتى هدأت ثائرة الناس إحترامًا لقدسيةِ المكان و طهارة الكلام ، الذى بلج يحي فى سرده ، حيث قال :

- إن الله - عز و جل - امرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن و آمركم أن تعملوا بهن ، و أولهن .. أن تعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبدًا من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل و يؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ .. و إن الله خلقكم و رزقكم فأعبدوه و لا تشركوا به شيئا .

- بارك الله فيك .

- مبعوث كريم ابن نبى كريم .

- خير خلف لخير سلف .

استطرد يحي عبارته المُسهبة ، التى ابكت عيناه من شدة التقوى دون أن يهتم بالتعليقات الجانبية :

- و آمركم بالصلاة ، فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، و آمركم بالصيام ، فإن الله مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابةٍ كلهم يجد ريح المسك ، و إن خلوف فم

الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، و آمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقهِ و قدموه ليضربوا عنقه ، فقال : هل لكم أن افتدى نفسى منكم ، فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه ، و آخيرًا آمركم بذكر الله - عز و جل - كثيرًا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا فى إثره ، فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه ، و إن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز و جل .

انهى يحي كلماته ، و قد جادت عيناه بغزير الدمع من شدة الورع ، على حين نهض نفر من الحضور يُنادى بأن يحي هو المسيح المُنتظر ، و قد تعاطف معه الجميع مُهللين بأسمه ، و قد كان بينهم عيسى ، الذى آمن بحاجةِ الناس لقدوةٍ يقتدون بها ، لهدايتهم لطريق الله ، على حين صاح يحي مُخاطبًا :

- يا أخوتىّ ، أنا لست المسيح ، أنا صوتٌ يخشى الله انطلق فى البرية ، رضيت بالوبر لباسًا و بورق الشجر غذاءًا طيبًا ، و بالمزمار سلوة عن الناس ، أما الأن فقد جاءكم عيسى بن مريم المسيح ، المُبشر به ، من جاء من امرأة عذراء ، بتول ، نمت و ترعرعت بين دوركم .

- و لكن رجال هيرود قضوا عليه فى مهده .

- المسيح حى لا يموت ، و ها هو عيسى بن مريم يجلس بينكم يتألم لآلأمكم ، فرحبوا بنبيكم و أوصيكم به خيرًا .

حطت العيون على عيسى ، الذى قص على مسامعهم ما سمعه من مريم و يوسف النجار من أمر فرارهم إلى مصر ، هروبًا من هيرود وأتباعه

، الـذين أرادوا بـه السـوء ، فعلـت همهمـات النـاس بـين مُسـتنكر و بـين مُصدق ، حتى قال أحد كهنة المعبد ليحسم الأمر :

- أن المسيح المُنتظـر سـيأتى فـى قومـهِ بعشـرة معجـزات ، أولهـا حديثـه فـى المهـد ، هكـذا قـال موسـى .. يـا سـيدى إن كنـت حقـا عيسـى المسيح المُنتظر فأتنا بمعجزةٍ لنؤمن بك ، و لتكن معجزتك فى بيت حسدا

كان بيت حسدا عبارة عن بركة كبيرة ترقد على أعتاب حى بـاب الضـأن بأورشـليم ، عنـدها كـان مُضـطجعًا جمهـور عظـيم مـن مرضـى و عُمـى وعُرج و عُسم ، حيث نسج رواية عن ملاك يهبط من السماء ليُحرك ماء البركة بجناحيهِ فيبرأ من يهبط فيها قبل أن يسكن الماء .

عمد عيسـى و النـاس إلـى بيت حسدا ، فوقـع بصـر الأول علـى عشـرات المرضى يضطجعون حول البركة ، و قد عب سماءها صوت تأوهاتهم .

و قد عرف بين سكان بـاب الضـأن رجـل بـه مـرض منذ ثمـان و ثلاثين سنة ، فأشار إليه أحد الحضور ليكون هو التحدى ، فاقترب منـه عيسـى والبشر يملأ وجهه ، و قد سأله قائلا :

- أتريد أن تبرأ ؟

- يا سيد ، ليس لى إنسان يُلقينى فـى البركـةِ متـى تحـرك المـاء ، بل بينما أنا أت ، ينزل قدامى آخر .

وضـع عيسى يده على رأس الرجل و هو يُردد :

- بسم الله الشافى القادر قم ، احمل سريرك و اذهب إلى دارك و قد برأت .

نهض الرجل فى تؤدةٍ غير مُصدق ما حل بـه ، و قـد جحظـت عيـون مـن

حولهِ و هم يُشاهدون معجزة عيسى و قد شفى من استوطن المرض جسده أمد بعيد ، و قد نخر عظامه حتى اصبحت هشة لا تقو على حملهِ ، فآمن الجمع أن الماثل أمامهم هو المسيح عيسى بن مريم ، الذى فر من بطش هيرود و رجاله منذ عدة سنوات ليعود مرة آخرى مُبشرًا و نذيرًا .

* * *

انقطع يحي عن مكوثه فى منزلهِ عدة أيام ، و لم يره أحد فى بيت الرب أو فى مكان آخر ، فزاد توتر زكريا على ولده خشية مكروهًا قد أصابه ، على حين لم تكف عينا إليصابات عن ذرف الدموع ، حتى كادت عيناها تثمل ، و نواحها أصبح نديمها فى ليلها و نهارها ليذهب عنها النوم والراحة .

و عندما أوشك ليل اليوم الثالث أن يجن ألحفت إليصابات على زكريا أن يخرج باحثًا عن يحي ، ابنها و سيدها ، من جاء بعد حرمان عظيم ، فاستجاب زكريا بإيحاء من قلقهِ و توتره و خوفا من ردة فعل زوجه .

اخذت أقدام زكريا و أليصابات تدب فى كل مكان قد يكون ابنهما زاره ، و لكن دون جدوى ، حتى هداهما عقلهما لزيارة مقابر موتى بنى إسرائيل ، فكان من عادة يحي أن يتردد على هذا المكان ليقوّم نفسه ، ويكسر ذلك الغرور الذى قد يحتل نفسه من جراء رقى الناس به .

- يا بُنى أنا أطلبك منذ ثلاثة أيام ، و أنت فى قبر قد احتفرته قائم تبكى فيه ؟

وجد زكريا ابنه و قد احتفر قبرًا و أقام فيه يبكى بحرقةٍ ، و قد كان حاله يرثى له و الطين يُلطخ وجهه ، و قد سقط وبره عنه ليبدو جسده شديد

النحول ، حتى كادت معدته تلتصق بعموده الفقرى ، فكرر زكريا سؤاله مرة أخرى و عينه تجاهد ألا تذرف دمعها ، فقال يحي :

- يا أبت ألست أنت أخبرتنى أن بين الجنة و النار مقام لا يُقطع إلا بدموع البكائين ؟

- ابك يا بُنى .

امر زكريا زوجه بالعودة لدارها ، و جلس بجوار ابنه فى قبره ، الذى حفره و بكى معه .

* * *

انقطع يحي عدة أيام عن زيارة تلك الربوة التى تواجه شرفة سالومى ، التى كان يخلو بنفسه عندها ليعزف أشجى الألحان ، فزاد قلق هذه الأخيرة و توترها ، و قد ظنت أن مكروهًا قد ألم به فحجبه عنها .

زحف التوتر و القلق على صوتِ سالومى و سلوكها ، فزاد تحرشها بوصيفاتها و سبها لهن ، و هجرها مجلس أمها فى قاعةِ العرش ، لترقب كيفية حكم البلاد ، و كيف تضرب على أعناق عامة الشعب بيد من حديد فى النهار كان جمر الشوق يكويها و هى تتطلع لمكانهِ الشاغر على الربوة ، و فى الليل تهجر مضطجعها لتئن أقدامها من كثرة الذهاب والإياب داخل الحجرة ، و سئ الأفكار يعصف برأسها فى شراسةٍ ، ومشاعر الأنثى المُغرمة ، المُتعطشة لتلاحم الأجساد و تلاقى الأرواح تزلزلها .

ظلت سالومى على هذا الوضع طيلة ليلتها ، حتى سبغت الشمس أشعتها و نضحتها على شرفة غرفتها ، و قد اهتدت لإرسال أحد جلاوزتها يعث

يعث عليه و يأتى لها بأخباره .
و لم يطل إنتظارها طويلا ، فقد جاءها الرد ، و لكن ليس من تابعها ، بل من يحي نفسه ، الذى تزعم عشرات الرجال و الشباب و العديد من النسوة اللواتى تمركزن فى دُبر الحشد و كان عيسى يقف بجواره ، والكل يُندد مقتل عيسى بن مريم ، و قد جاء فيهم بالحق ليُخلصهم من طغيان الاستعمار ، و تشتت النفس بين عبادة الأوثان و الأنداد و البشر من دون الله .
لم تعر سالومى هذه الإنتفاضة الشعبية و الصحوة الإنسانية إهتمامًا ، بل كانت شديدة الثبات و الإبتسامة العريضة تفترش وجهها ، و قد غمرت جذوة حنينها فى بئر من فيض الحبيب ، فبدت مُتخشبة ، هائمة ، حتى عادت لعالمها على صيحةٍ من أمها وأدت راحتها و سعادتها برؤية فارسها الحزين و الإطمئنان عليه و هى تأمر رجالها بأعتقال المُتجمهرين ، و إرداء من يعترضهم قتيلا ، فخرج الحراس فى الناس والسيوف مُشهرة تتوق لعناق الأجساد و إراقة الدماء ، و هى تعمل فيها بهمةٍ دون كلل أو ملل ، غير مُميزة رجل أو امرأة .. الكل سواء على ذبابة السيف .
كان لعنف الحراس و غلاظتهم دوره فى تدشين الرعب فى صفوف المُتجمهرين لينفضوا من حول القصر ، فبدوا كالفئران المذعورة التى تحاول أن تفر عبثًا من براثن وحش عظيم ، فسقط منهم العديد ليصبحوا ندماءًا لأقدام الفارين ، التى اخذت تدق الأعناق و تحطم الصدور فى همجية و بدون وعى ، و من لم يسقط على الأرض ليصبح عصفا

لأقدام الموتورين سقط فى أيدى رجال هيروديـاس ، فمات منهم من مـات و سبى الباقون ، ليزج بهم فـى سجون القصـر ، التـى عمرت بصـياحهم لحين النظر فى أمرهم .

كاد قلب سالومى يتوقف و هـى ترصـد تحركـات يحي ، الذى أخذ يزود عن صـاحبه عيسى ، و يتصدى لرجال القصـر فى بسـالةٍ ، و هم يسلبون أرواح العزل فى يسر ، حتى غاب يحي عنها بين طرفة عين و آخرى ، فبـدت كالمجنونـة و هـى تبحـث عنـه ببصـرها فـى وجـوه الناصـريين المفزوعة دون فائدة ، فتحجرت عيناها و شحب وجهها ليُحاكى شحوب الموتى ، و قد سقطت على أقرب مقعد حـال بينهـا و بين بـاب حجرتهـا ، وقـد تحينـت أفكارهـا السـوداء الفرصـة لتغزو رأسـها ، لتنهـال دموعهـا زخات على وجنتيها ، صـانعة الأخاديد ، و صـوتها المخنوق يُحـاول أن يفر من صدرها ليُعبر عن مرارة حالها .. هل سقط يحي دون عودة ؟

اسدل الليل عباءته السوداء المُرقعة بالنجوم ، لتغفو النفوس القنوعـة قبل العيـون المُرهقـة ، إلا سـالومى ، التـى خاضـت الردهـات و الـدهاليز وبجوارهـا جاريتهـا ، التـى ظلـت ترتعش رعبًا فبدت كذبالـة النـار التـى اخذت تتراقص بين يديها حتى خرجت خارج القصر ، لتبحث فـى وجوه الموتى المنشورين حول القصر عن حبيبها يحي ، و مع كل وجه تطالعه يرتجف قلبها خشية أن يكون هو ، و قد هيأ لهـا الضـوء الخافت أن كل القتلى يحي الناصرى ، صـاحب المزمـار الحزين ، حتـى تسمرت عند رمة بعينها ، لتشاهد ملامح صـاحبها ، لتخر علـى ركبتيهـا و قد تفجرت عيناها بغزير الدموع ، و قد ضمت الرأس لصدرها فى شوق تاقت لـه ،

و اخذت تناجى صاحبه :

- أيا صاحب المزمار ، من سلب الفؤاد قبل العين بسحر نغماته وعذب كلماته ، أيكون هذا لقاؤنا الأول .. فراق قبل لقاء ؟ .. أقسم برأسك التى بين يدى و التى ستظل ملكا لى ما حييت أن أنتقم من قاتلك .. من أمى هيرودياس .

و ظلت تبكى و الدنيا تشاركها البكاء فى حزن عجيب قلما حدث .

-٨-

١ استشعر هيرود صوتا خافتا لأقدام تقترب منه فى حرص ، فحاول أن يفتح عيناه ، و قد تثاقلت أجفانه لتعصى أوامر سيدها ، و مع تعاظم شعور هيرود بالخطر استجابت أجفانه ، لتنهض من خمولها الذى طال ، لتسمح للضوء أن يغزوها .

- من أنتما ؟

بدت الرؤية مُتعثرة على هيرود و هو يُبصر شبحان يقتربان منه فى خطواتٍ ثابتةٍ ، فكرر سؤاله مرة ثانية ، لا مُجيب ، حتى بدت ملامح الأول تتضح رويدًا رويدًا :

- إنه أنت .. أنت ؟

أجاب الشبح بصوتٍ عميق ، غليظ النبرات ، قاسى الحروف :

- نعم .. أنا أرخيلوس .. أبنك .

جحظت عينا هيرود و هو يرى ابنه يقترب منه ، و شبح الموت يطل من عينيهِ ليلوح له بمنجلهِ ، على حين سكن الشبح الثانى فى مكانهِ ، فى ركن قصى من الحجرة ، حيث ذاب بردائهِ القاتم فى سواد المكان .

- لماذا جئت ؟

- لأقتلك ، فما كان يجب أن تحيا بعدما طعنتك بسيفى فى المعركة .

- و لماذا تريد قتل والدك ، سر وجودك فى الحياة ؟

- لأنك كنت سر عذاب أمىَّ فى حياتها ، و لقد جاء اليوم لتكفر عن كل لحظة آلمتها فيها .

ثم دنا من أبيهِ شاهرًا كفيه ليُجهز عليه ، و قد حاول هذا الأخير أن يفر

مـن مرقـده ، لكـن بـاءت جميـع مُحاولاتـه بالفشـل ، كـأن جسـده قـرر الاستسلام لمصيره المحتوم .. الفناء ، و قد قبرت صرخاته المُستغيثة فى صدره ، لتتحول لجزع و فزع رسما آياتهما على وجهه ، و هو يستشـعر كفا ابنه وهما يُعانقان رقبته فى قوةٍ ليعتصرهما بلا رحمـة ، و قد وقـع طرفـه علـى هيئـة الشبح الثـانى ، ليرى آخـر شخصـًا توقـع وجـوده فـى مخدعهِ ، لقد كانت ابنة الحارث ، و قد طبعت السعادة آياتها على وجهها ، و هى تقول بصوتٍ هادئ و مفعم بالشماتةِ آمرة ابنها :

- اقضـى عليـه .. اقتلـه ، العرش فـى إنتظـارك لتحكم هذه البلاد ، لتنعم بخيراتها و ترفل فى أغاديرها .. عجل بعقره .

توغلت أصابع أرخيلوس فى عنق هيرود لتنهل من سويعات عمره القليلة الكثير ، و هذا الأخير يُحاول جاهدًا طرد صوته خارج صدره لينقذه أحد ، و ...

- انقذونى .. إنه هنا .. إنه يقتلنى .

هرع الأطباء و الخدم ليقتحموا مخدع هيرود فى فوضى ، ليجدوه يتلوى على مخدعهِ كأنه يُصارع أحدًا فى منامهِ كاد يتغلب عليه ، و آيات الفزع تغزو وجهه ، على حين احتار الخدم و الأطباء بدورهم ، هل يوقظوه وينتشلوه من صراعهِ الوهمى ، أم يتركوه ليُصبح قلبه ضـحية إنفعالـه الكاذب ؟ .. و ظلت الحيرة تحتل العقول حتى حسم هيرود الإجابة على السؤال ، و قد اختار أن يُغادر معركتـه الوهميـة ، بل و يهجر غيبوبتـه إلى غير رجعة ، لتبصر عيناه نور الشمس لأول مرة بعد غيبوبة طالت أشهر عدة ، استوطن فيها المرض جسده ، لينهل من قواه ما جعله فى

هوان عظيم .

تهللت أسارير الحاشية و هم يُبصرون هيرود و هو يُحاول استعادة توازنه ، و عيناه تمسح وجوههم فى دهشةٍ ، كأنه يراهم لأول مرة ، على حين عمد أحد العبيد إلى باحةِ العرش ليُبشر هيروديـاس بعودة الملك من غيبوبتهِ .

تربعت هيروديـاس على كرسى العرش فى إعتداد و خيلاء ، كأنها ولدت لتكون ملكة ، و كان بجوارها يرقد جسد ابنتها سالومى مسجيًا بأحزانهِ و شجونهِ ، و قد ظنت فى رحيل يحي ، حتى زينتها و بهرجها فشلا فى التغلب على مسحةِ الحزن التى استوطنت وجهها .

آمرت هيروديـاس قائد جيشها أجمنتوس بأن يأمر جنوده بأحضار آسرى التظاهر الآخير أمام قصرها للنظر فى أمرهم ، و أثناء ذلك كانت تختلس النظر لابنتها و قد ظهر عليها الوجوم و الشرود ، كأنها تحيا فى برزخ غير عالمنا ، فبدت كتمثال حى من الرخام ، يُعبر فى مهارة عن الحيرة و الشرود .

دلف المتظاهرون إلى باحةِ العرش فى هوجاء ، تعلو منهم الأصوات الصخباء المُنددة ، و قد حُبست أيديهم و أرجلهم فى الأصفاد الحديدية ، فبدت خطواتهم شديدة الثقل .

انزعجت هيروديـاس من الهرجلةِ و الأصواتِ الصارخةِ ، فلوحت بيدها لأجمنتوس ، الذى لوح بدوره لرجالهِ ، الذين تسارعوا فى حمل العصى لينهالوا بها على سيقان الأسرى فى عنفٍ و هم يتصايحون :

- حطة .. حطة ، أنتم فى حضرة ملكة البلاد هيروديـاس .

أخذ الأسرى يتساقطون على وجوههم الواحد تلو الآخر ، و هيروديـاس تحملـق فـيهم و لعـاب الزهـو بالسـلطةِ يسـيل مـن شـدقيها ، حتـى هـدأت الأمـور و سـاد الهدوء القاعـة ، إلا من همس الأنفاس المُتلاحقة ، حتى قطعته هيروديـاس بقولها :

- حسبت فى بنى إسرائيل الخنوع و الولاء للعَلَمَ الرومانى ومليكِكم و ولى أمركم هيرود العظيم ، فلماذا الهرج و المرج أيها الرعـاع ؟ .. لا تحسبن أن فى وفاة هيرود نجاة لكم و لأولادكم ، فإن كـان عصـر هيرود أشرف على البُهتان فقد خلف وراءه هيروديـاس ، التى سيبلج عصـرها ، ليكن مـن أقوى عصـور الحكم الرومـانى فـى بـلاد الشرق ، و لـن أسـمح بأى تهاون أو ضعف ، و لن يجد المُتخاذل منى سوى تمنى المـوت و لـن يناله ، من هول ما سيراه علـى يدى .. يدى أنـا و ليست أيدى رجـالىّ ، و...

- خرب القوم الذين ولوا امرأة أمرهم ، فما كان لفساد أهوائها أن يُعمر الأرض ، و لا لجنون مزاجها أن يُحقق العدل ، فإن مـات زوجك ارحلى عن هذا الكرسى لتشرى نفسك من نار تلظى ، يوم لا تجدى غير عرشا واحدًا .

احتبست الكلمـات فـى فم هيروديـاس ، و قد أتتها كلمـات الأسير ، الذى تاهت ملامـح وجهـه فـى لجـة الأوسـاخ التـى تعتمرهـا بغتـة ، فجحظـت عيناها ، حتى كادت أن تفر من بؤبؤها من جرأة ما سمعت ، واستنكارها لتطـاول ذلـك العبد البربـرى علـى مليكتـهِ و فـى حضـرتها ، فحاولـت أن تتمالك ربطة جأشها ، و تقبر دهشتها و هى تقول فى حسم :

- مَن ذلك الفانى ، الذى تطاول و تعدى ليُحادث هيروديياس ، وكتب نهاية مُفجعة لأيامهِ ليأمرها .. مَن ؟

- أنا الصوت الصارخ فى البريةِ بكلمةِ الحق ، و قد آتانى الله الحق آية لأخوض بها فى الناس .. أنا يحي بن زكريا بن لدن بن مسلم .

غزت العبارة الأخيرة أذن سالومى ، لتنتشلها من وحدتها و شرودها ، لتعود بها حيث ساحة العرش ، حيث جالت عيناها الموتورة وجوه الأسرى ، ماسحة إياها فى استنكار لما سمعته ، حتى اهتدت نظراتها لوجهِ يحي الصبوح ، الذى زاد إشراقا و جمالا فى عينيها ، على الرغم من الأوساخ التى تكلله ، فتهللت أساريرها ، و استشرت الإبتسامة وجهها ، الذى خرب من جراء الحزن ، فقالت فى دهشةٍ مقاطعة أمها ، التى استشاطت غضبًا و هى تتوعد يحي بغليظ الوعود :

- كيف فعلت هذا ؟ .. إن جثمانك يتربع فى غرفتىَ ، و يتوسط مضجعىَ ، و قد عطرته بدموع الحزن و الأسى ، فكيف عدت إلى الحياة أيها الناصرى ؟

ألجمت كلمات سالومى لسان يحي كما فعلت بهيروديياس و الحضور ، ليُخيم الصمت الثقيل و يُطبق على القاعةِ ، و العيون تتبادل الحملقة بين يحي و سالومى ، و قد شردت العقول الضالة و تفتقت فى إفتراء عن علاقة مُحرمة نشأت بين ذلك الناصرى الأبق و أميرته الرومانية ، التى نهضت من مرقدها لتسبح على جناح الريح ، لتحط أمام يحي ، المُتسمر فى مكانهِ ، و قد داعبت بكفيها وجنتيه ، ماحية منهما الأوساخ ، و هى تقول :

- كم ضاقت الدنيا بيَّ ذرعًا عندما ظننت فيك الرحيل !

فاق يحي من جموده ، مُحاولا التملص من أصابع سالومى المُشتاقة لعناق مُحرم ، و قد استطاع

أن يُلملم أطراف حكمتهِ و هو يُردد :

- زمى يا نفس و اقبرى شهواتك ، فما النساء إلا شهوة زائلة ، والشهوة قطعة صغرى من جهنم .. زمى و ارقدى فى سلام .

مَثل أحد عبيد القصر أمام هيروديا ، بعدما اقتحم القاعة و البشر ايته ، و قد قال بلهفةِ من نال حريته :

- لقد أفاق مولاى من غيبوبته .

ارتدت هيروديا فى جلستها ، غير مُستوعبة ما سمعته ، فقالت فى استهجان مُستفسرة :

- مولاك مَن ؟

- هيرود العظيم ، لقد أفاق من غيبوبتهِ منذ دقائق قليلة .

بدت كلمات العبد كأنها سكين تلمة توغلت فى جُرح قديم لم يندمل ، فأدمته ليُراق الدم أنهارًا ، أو إيذانا بهدم أحلامها ، التى بُنيت على فناء هيرود و طوى صفحته ، لتبدأ فى سطر صفحتها .

نهضت هيروديا من مرقدها و اتجهت صوب ابنتها ، و آيات الضجر تفترش سحنتها ، و قد قبضت على يدها فى قوةِ ألمتها ، و قد عبرت عنها بنكشيرةِ هينةِ ، و قالت آمرة أجمنتوس :

- اذهب بالأسرى إلى مثواهم ، وضع هذا الناصرى المُجدف على أسياده فى السجن وحيدًا حتى انظر فى أمره .. فى أمرهم جميعًا .

جزعت سالومي لأوامر أمها ، فقالت مُعترضة :

- و لكن يا ...

- هيا بنا .

ساقت هيروديا ابنتها خارج قاعة العرش ، و هي تتجه صوب مخدع هيرود ، و نظرة الأخيرة مُعلقة بيحي ، كأنها تستنجد به و تطلب عونه ، و قبل أن ترحل هيروديـاس عن القاعـة توقفت بغتـه لتلتفت صـوب أجمنتوس آمرة أياه :

- اقتل هذا العبد نذير الشؤم شر قتلة .

* * *

بعدما أبلى عيسى في حسدا بلاءًا حسنا ، و قد برأ المريض على يده ، شاع في الناس ظهور المسيح المُنتظر ، فتبعه البعض و قد آمنوا أنه أتى بكلمةٍ من الله ينشرها في بني إسرائيل ، فاتخذ عيسى منهم تلاميذًا ، يبث رسالته من خلالهم ، و ينشر آيات السلم و السماحة عبرهم ، فانقطعوا عن متـاع الـدنيا ليتبعوه اينمـا ذهب ، فكـانوا يلمسـون فيـه طيب الخلـق ورحابـة الروح ، و يسمعون منـه عجب الكلام ، الذي يقتحم صدورهم عنوة ليجد طريقه لقلوبهم فيُحييها بعد مماتها .

أحال الناس أمورهم و شئونهم لعيسى - حتى المُلحد و الكافر بـه - ليبت فيهـا بـوحي مـن عنـد ربـه ، ممـا زرع بعض الثورة و الحقد في قلـوب بعـض اليهـود مـن كهنـةِ المعبـد ، خاصــة اليهـود الفريسـيين و اليهـود الصدوقيين ، الذين توحدوا للمرة الأولى للقضـاء على رسـالةِ عيسى قبل أن تعظم ، كما توحدوا من قبل من أجل زكريا و من بعده يحي ، حتى لا

تقتل أحلامهم التى تنمو و تترعرع داخل المعبد ، و لا تبخس من هبات و عطايا الناس لهم ، و تربحهم من العبث بأحلامهم ، ليحصد العداوة والتربص به فى مُحاولةِ للتشكيك فى رسالتهِ .

و ذات يوم اقتحم بعض كهنة المعبد من يهود صدوقيين و فريسيين خلوة عيسى بتلاميذه و قد كان يقرأ عليهم بعضًا من علوم الدنيا خاطا على الأرض بعض العبارات بأصبعه ، و قد تجمهروا على امرأة و أحاطوها كما يُحيط السوار بالمعصم ، و قد قُد ثوبها كاشفا عن مفاتنها فى سُفور ومُغالاة .

- هل أنت عيسى المسيح المزعوم ؟

قال بطرس أحد تلاميذ عيسى فى تحفز و غضب :

- اعرض قضيتك بشئ من الإحترام و الأدب أو أغرب عن مجلسنا ، الذى اقتحمته عنوة فى تبجح لم نعهده من كهنةِ المعبد ، أنت فى حضرة عيسى بن مريم المسيا .

- (هذه امرأة أُمسكت و هى تزنى فى ذات الفعل ، و موسى فى الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم ، فماذا تقول أنت ؟) .

اخذ الجمع يرمق المرأة الزانية بازدراء ، و الكل يتوقع من عيسى أن يُقر برجمها مع من زنت معه ، و لكن هذا الآخير أحنى رأسه و أخذ يُداعب بأصبعهِ حبات الرمل كاتبًا شيئا ما ، على حين أعاد السائل سؤاله مرة ثانية ، دون إجابة من عيسى ، و فى المرة الثالثة استجاب عيسى بأن رفع رأسه قائلا :

- (من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر) .

ثم استطرد كلماته بأن انحنى ليكتب على الأرض ، تاركا إياهم يُحاسبون أنفسهم و يتساءلون .. هل منهم من سيموت بلا خطية واحدة يُحاسب عليها ، فلما بهتوا من قول عيسى آثروا الإنسحاب و الرحيل تاركين المرأة وحيدة ، ترصدها عيون تلاميذ عيسى ، الذى انهمك فى عمله فلم يلحظ إنسحاب الناس من حولهِ ، حتى انهى عمله فرفع رأسه عاليًا ليجد المرأة تنتصب وحيدة ، مُتسمرة فى مكانها تحرسها أعين تلاميذه ، فقال سائلا إياها :

- (يا امرأة أين هم أولئك المُشتكون عليك ؟ .. أما دانك أحد ؟) .

- (لا أحد يا سيد) ، فقد بهتوا لقولك و آثروا الإنسحاب .

- (و لا أنا أدينك ، اذهبى و لا تخطئى إيضًا) .

سعت المرأة تعدو فى الشوارع قاصة ما كان من عيسى حيالها ، و قد اقسمت إنها لن تزن طيلة حياتها برًا بعهدها مع عيسى ، و لن تفارق مجلسه يومًا ، على حين بدا الوجوم و الشرود على وجه تلاميذ عيسى ، و قد صعب عليهم فهم ما أتى به من أمر المرأة ، فقال أحدهم مُتسائلا :

- لماذا لم تحكم على المرأة طبقا لشريعة موسى ، التى عهدنا عليها منذ أمد ؟

- يا أخوتى فى حب الله .. عليكم بدفع الخطية بالحسنة ، و إن عاد صاحبها للأتيان بها عليكم بقرعه بالعصى ، هذا ما حث عليه موسى فى ناموسه ، و هذه المرأة رأيت فيها أنها مظلومة و قد زنت عنوة ، و ها هى تقبل على التوبة بصدر رحب .

- لماذا لم تعر صاحب الشكوى إهتمامًا ، و اخذت تعبث بثرى

الأرض ؟

- لقد اقتحموا مجلسنا عنوة و أنا أخذ فى خط ما علمتكم إياه ، فكان عليَّ استكمال ما شرعت فيه .. الحق أقول لكم ، إن حطت الدنيا أوزارها و فى يد أحدكم عملاً فلينجزه قبل أن يُحاسب عليه .

افترش البشر وجوه الجميع و قد استوعبوا ما رنا إليه مُعلمهم ، إلا واحدًا منهم ، ظل وجهه جامدًا ، عابثا ، و قد سأله عيسى عن سبب وجومه ، فصمت قليلا ليبحث عما يقوله حتى أبلج قائلا :

- هل ليَّ بسؤالك ؟

- نعم .

- هل يحي بن زكريا نبى ؟

- الحق أقول لكم ، إنه نبيٌّ كريمٌ ، و ابن نبى كريم ، ولد سيدًا و حصورًا ، و سيُلقب بالشهيد ولد الشهيد ، لشهادته ضد الباطل كما فعل أبوه قبله .

- إذا لماذا يُلاقى هذا العذاب و الإضطهاد ، فالله قادر على عفوه من ذلك كله ؟

- الحق أقول لكم ، إن ابتلاء الله للعبد فى الدنيا هو اختبار عظيم ، فما من نبى أو مبعوث آلهى لم يُبتلى و لم يُعان و يُهان فى قومه ، فقد بُعث فيهم للهدايا ، و العصيان أولى خطوات الهدايا و التوبة ، و سوف يأتى منكم من يخون عهدى و يتنكر ليَّ يوم حاجتى له ، و منكم من سيبيع لحمى مقابل النذير من متاع الدنيا .

هتف الجميع فى حدة ، مُستنكرين هذا الفعل عن أنفسهم ، على حين أومأ

عيسى برأسه أن نعم ، و هو يدعو ربه دعاءًا خفيًا أن يثبت أقدام يحي بن زكريا .

* * *

اقتحمت مريم خلوة زكريا فى محرابه ، و قد كان يُناجى ربه فى خشوع ، و الدمع يشق طريقه على وجنتيه فى غزارة مُبللا لحيته البيضاء ، وقد انتصبت شعيراتها استجابة لجلل الموقف .

دنت مريم من زكريا مُقبلة منكبيه ، مُرددة و الحزن يمخر عباب صوتها :

- حنانيك يا سيدى ، إن عيناك كادت أن تثمل من شدة البكاء ، والقلب فقد قواه من شدة الكدر .

- إنه يحي يا مريم ، سيد أيام عمرى ، و نتاج دعوات ليلى ، وخامد جذوة شوقى للذرية .. إنه يحي يا مريم ، ذلك الوتد الذى اتعكز عليه حتى لا يحيق بى نير الزمن .

انهى زكريا كلماته ، ليطبق الصمت على الحجرة إلا من نهنهة الأول ، على حين اغمضت مريم عيناها لبرهة ، و قد بدت آيات التعمق والتركيز تجد طريقها لجبهتها ، التى انفرجت مع إبتسامة رقيقة طبعت على جانب ثغرها ، و قد قالت مُبشرة :

- إن يحي سيعود لك ، و لكن جُرح عظيم سيُوغر صدره ، سيكون فيما بعد سببًا لأحزانه

- و لكن ما من أحد فر من براثن هيرود و أتباعه ؟

- لم يحن ميقاته بعد ، سيُسخر الله له آية من حملة عرش هيرود ،

كما سخر لموسى آية آسيا زوج فرعون مصر ، ستكون سببًا فى نجاته من موت مُحقق ، كما ستكون سيفا يجتز رقبته .

- كيف ؟

- لا أعلم يا سيدى ، و لكنها رؤية حق استشعرتها .

طرب زكريا لخبر نجاة ولده ، و لكن سرعان ما شعر بغصة فى حلقه ، عندما تذكر ختام كلمات مريم ، التى انبأته بميلاد يحي من قبل ، وصدقت ، و ياليتها تصدق فى أمر نجاته و تضل فى أمر هلاكه .

* * *

قصت هيروديا على مسامع هيرود ما كان من أمر الناس عندما علموا بأمر أصابته الجد خطيرة ، و قد ظنوا مقتله فخرجوا على القصور يذبحون حراسها و ينهبون ما بها من صحاف ذهبية و مشغولات فضية ، و قد عمت الفوضى فى جنبات البلاد ، و كيف قضت عليها بمعاونة قائد الجيش أجمنتوس ، الذى أمدها بخبرته العسكرية فى ثبط جماح الناس ، و ما كان من أمر ابنه من ابنة الحارث ، الذى داعبه حلمه فى الاستيلاء على إسرائيل بعدما ظن إنه نال منه و قضى عليه .

و عند هذا الحد صمتت هيروديا عن سرد ما لديها من أخبار ، وعيناها ظلت تمسح وجه هيرود ، الذى بدا عليه القلق ، بعينيه الزائغتين ، اللتين تبحثان عن بقية لهذا الحديث .

- و ماذا حدث بعد ذلك ؟

لاذت هيروديا بالصمت ، و قد اكتفت بأن لوحت بأنملها نحو الشرفة ، و قد لمعت عيناها ببريق خاطف ، صاحبه شبح إبتسامة سكنت طرف

منزوى من شفتيها ، و هى ترى هيرود يتحامل على نفسه ، مُحاولا النهوض من مرقده ، و القلق و التوتر يدفعانه دفعًا نحو الشرفة ، ليرى بأم عينيه نهاية رغبة زوجه - ابنة الحارث - فى الإنتقام منه ، التى دفعتها بزج ابنها ليقف أمامه فى ساحة القتال مُبارزًا ، راغبًا فى رقبته التى صعب على آل الأرض نيلها ، فكانت ستودى بحياته لولا القدر ، و ها هى تعيد الكرة مرة ثانية ، و تدفعه ليسلب مُلك أبيه بدون وجه حق ، ليلق هلاكه .

- إنه ابنى .. أرخيلوس .

- نعم .. من عمد إلى قتلك و سلب عرشك .

- من فعل هذا به ؟

- أنا .

- لماذا ؟

- لقد جاء غازيًا ، راغبًا فى الاستيلاء على العرش ، أى إنه بعدما سيحصل على مُبتغاه سيسعى للتخلص منك ، و قتلى أنا و ابنتى حتى يخلو له حكم الناس .. أبعد هذا كله تسأل لماذا صلبته و مثلت بجثته ؟

- أبهذه الوحشية كان أنتقامك؟

- هذا عهدى بك .

بدت أمور عدة تتضارب فى رأس هيرود ، إنه ذلك الطاغية الذى تعاون على قتل أبيه ، و عمد لقتل زوجه مريمنة و أولاده منها و شقيقه فاسيل و حرق جثثهم دون أن يطرف له جفن ، و هو ذلك الرجل الذى اضطربت أنفاسه ، و ضاق صدره و اوغرت عيناه عندما لمح جثة ابنه

مصلوبة على بوابة مدينته .

قبض هيرود على كتفى هيروديا بقوة ، و هو يصيح فى وجهها قائلا :

- هذا ابنى ، روحه و روح كل من يحيا على هذه الأرض ملكى أنا وحدى ، ازهقها متى شئت ، و ليس من حق أى عبد مهما كانت صلتى به أن يتدخل فى ميقات موت أحدهم .

ثم اعقب عباراته الغضبى بصفعة قوية انهالت على وجه هيروديا ، ارتج لها جسدها ، الذى لم يحتمل عنف الصفعة فأنهار و سقط على الأرض ، و قد سال خيط رفيع من الدماء الوردية من ركن فيها .

- سوف تدفعين ثمن فعلتك غاليًا أيتها العاهرة الأبقة .

-٩-

راح قرص الشمس الباهت يختفى خلف التلال ، التى تشرق عليها أورشليم رويدًا رويدًا ، آخذًا معه الباقى من فلول الضوء ، ليسدل الليل ستائره المُرقعة بالنجوم ، ليسكن الناس الدور خشية الظلام ، فطفق يوسف يُغلق حانوته ليعمد إلى داره .

دلف يوسف إلى الدار ، ثم أتجه إلى فراشهِ ، و قبل أن يندس فيه ، توجه إلى الله بالدعاء ، و أخذ يقرأ فى التوراة بنظراتٍ زائغةٍ ، و قلب وجل ، حتى انتهى ليسكن الفراش مبهور الأنفاس ، و الضيق قد استعمر صدره ، فقد نخر سوس الوهن عظامه ، و سرت الحُمى فى بدنهِ .

اعتادت مريم و عيسى زيارة يوسف عقب عودته إلى داره ، فاقبلت وفى يدها مصباح ، و دنت تنظر فى وجههِ ، فإذا العرق اللزج يتفصد من جبينهِ ، و قد غارت عيناه ، فراحت تمرضه ، و قد انقضى الليل و مريم و عيسى إلى جواره يخفق قلباهما بالحزن العميق تارة ، و تنسال الدموع على وجناتهما تارة أخرى ، إذ يريان يوسف راح فى غيبوبةٍ طويلةٍ ، ولم ينبس بكلمةٍ ، و لم يفتح عينيه مرة ، كأن الثبات هو أقصى ما يفعله .

لجلج الليل و انقضى لتشرق شمس اليوم التالى ، لتغزو أشعتها الدور الرابضة فى سكون ، فخرج عيسى إلى حانوت يوسف كما أعتاد ، يعتصر الأسى قلبه ، فما خرج وحده قط ، فكان يوسف خليله الذى يُؤنس وحدته ، و مُعلمه الذى يُلقنه فنون النجارة ، حتى أصبح نجارًا ماهرًا .

أخذت قدماه تقطع الطرقات فى بطئ ، و قد شرد عقله حيث الموت ، وما سوف يراه العبد بعد الموت ، على حين أخذت نظرات مريم تمسح

وجه يوسف ، المسجى أمامها بحزن ، فها هو من صدقها يوم كذبها الناس ، و من آمن بابنها و صدق به قبل أن تكتحل برؤيتهِ عيناه ، و فر بهما من وجهِ الطغيان يُشرف على الموت .

فاق يوسف من غفوتهِ لِيُبصر وجه مريم ، الذى اغرورق بالدموع الملحية ، فربت على راحتها بوهن ، و قد شخص ببصره إلى السماء ، و هو يُغمغم فى صوتٍ خافت :

- إلهى ، أعيد إليك وديعتك ، فقد انتهى عملىَ ، إلهى إنى ذاهب إليك فتقبلنى قبولا ً حسنا ، واحفظنى فأنت خير الحافظين .

و اسبل جفنيه ، و ذهب إلى حيث يذهب المؤمنون الصادقون ، و غطت مريم وجهه بنقابها ، و جرت عبراتها على خديها ، و قد حُبست صرخاتها المُلتاعة فى حنجرتها ، و أقبل عيسى يذرف الدمع الهتون على مُعلمهِ و رفيق دربه ، قبل أن يُواريه الثرى .

و بعد عدة أيام ، استأنف عيسى العمل فى حانوت يوسف ، كان يعمل على غير عادة الناس ، فكان جسده حاضرًا بينهم ، أما روحه فكانت تتصل بخالق السماء ، فأصبح الليل بلونهِ الداكن و صمته المُوحش نديمه ، لأنه فيه ينفرد بنفسهِ مُناشدًا ربه ، فإذا أراد أن يُناجى ربه ابتهل إليه فى خشوع ، و إذا أراد أن يُصغى إليه فتح التوراة ليقرأ آياتها ، فيخفق قلبه من حلاوة ما يقرأ ، و تضطرب مشاعره من جلال ما يحس ، و إذا جاء يوم السبت ، ذهب إلى المعبد ، ليندس بين العُباد ، يُرتل صلاته فى خشوع ، فإذا قضيت انسل إلى قمةِ إحدى التلال التى تشرف عليها أورشليم ، يقف بين الأزهار البرية المُتفتحة ، ليملأ رئتيه بالنسيم العليل

الذى يُداعب شعره الداكن ، و يمد طرفه إلى ما حوله ، مُبصرًا حقول التين ، و بساتين الفاكهة المُتباينة ، و المنازل البيض الرابضة فى صمتٍ كعابد يسجد فى محراب الله ، و يمس أذنيه رفيف الطيور ، و حفيف الشجر ، و زفيف النسيم ، فيُصغى إليها كأنما يتلقى وحيًا من السماء ، كان يحس و هو فى عزلتهِ شفافية فى روحهِ ، و رقةٍ فى قلبهِ ، و صفاء فى نفسهِ ، فكان يُخيل إليه أنه امتزج بالكون ، أو أن الكون ذاب فيه ، كان قلبه ناصعًا ، أنصع من الثلج الذى يراه أمامه فوق قمة جبل حرمون ، و روحه عذبة أعذب من مياه نهر قيشون ، وكانت نفسه هادئة أهدأ من سطح بحيرة الجليل فى يوم صاف هدأت عواصفه ، ونامت رياحه .

كان لغياب يحي و وفاة يوسف النجار آثره العظيم فى نفس عيسى ، التى أخذت تتطلع فى حال الناس و بيت الرب ، الذى أصبح أسيرًا فى يد كهنته من فريسيين و صدوقيين و كتبة .

فكان يُجالس الفقراء و يستمع إلى شكواهم ، و كان يُصغى إلى الكتبة والفريسيين ، و لكنه لم ينصاغ لمواعظهم ، فكلماتهم كانت أقرب إلى الزيف ، تخرج من الفم ميتة بلا روح ، فتضل طريقها إلى القلب ، وكانوا ينطلقون فى الطرقات يتجسسون على الفقراء ، ليتحققوا من طهارة ثيابهم و منازلهم و حوانيتهم ، و لكنهم لا يهتمون كثيرًا بطهارة النفس ، فالأثم و الفواحش ترتكب على جوانب الطرقات دون أن يحركوا ساكنا ، فإنما كل ما يهمهم نظافة الثوب ، و طهارته ، كما اصغى لكبار الحاخاميين فى المعبد ، فألفى شريعة موسى البسيطة قد عُقدت ، وتفرعت مذاهب ، فما يُحلله الله يُحرمه الإنسان ، فأثر الإعراض عن

حلقات السفسطة و الجدل ، و أقبل بنفس مُتفتحة على الكون يغترف علمًا و حكمًا من معين الله الرقراق ، و أخذ يغوص بين الناس ، ليتعرف على مشاكلهم ، و قد ألتفوا حوله يلتمسوا علمه و حلمه .

* * *

لمست أليصابات حركة زوجها المُضطربة ، القلقة ، و كان يرقد بجوارها يغط فى نوم عميق ، ففاقت من نومها ، لتسمع بضع كلمات مُتباينة يلفظها لسان زوجها ، فاستشفت أن كابوسًا جثم على صدره ، جعل لسانه يهذى بعجيب الكلام .

استيقظ زكريا من غفوته ، و قد زاغت عيناه و هو يُبصر زوجه التى مسحت وجهه ، الذى احتلته آيات الفزع ببصرها ، و قبل أن تتفوه لتستفسر عن رؤية زوجها ، قال هذا الأخير بطرفٍ مُرتجف و حلق جاف :

- كنت أظن إنها هجرتنى منذ سنوات ؟

- من ؟

- تلك الرؤية التى زارتنى منذ سنوات عدة ، و قد رأيت فيها رأس الشاب ، جميل الطلعة ، التى سكنت طبق الفضة ، و التى كانت تندد ببطلان زيجة ما ، و قد اخبرنى الفارس إنها رأس تحمل اسمى و تنحدر من نسلى .. اتذكرين ؟

اضطربت أليصابات استجابة لتوتر زوجها و أنفعال كلماته ، فأومأت برأسها أن نعم ، على حين غارت عينا زكريا و قد أحنى رأسه و هو يُردد بلسان بارد الطرف ، ود لو تجمدت الأحرف عليه و سكنت :

- إنها رأس يحي .

ألجمت العبارة لسان أليصابات ، و لكنها فشلت فى مُداراة جحوظ عيناها ، التى كادتا أن تخرج من بؤبؤهما ، قبل أن تنهار و تسقط على الأرض مغشيا عليها ، مُعانقة اياها .

* * *

جلست سالومى أمام هيروديا صامته ، جامدة ، كأنها تمثال حى من الشمع سكن المخدع ، على حين احتارت هذه الأخيرة اتبصر ابنتها فترى الشفقة فى عينيها حيال ما فعله هيرود بها ، أم تدارى وجهها الذى اصبح كتربة خصبة تحتضن آثار كف هيرود عليها فتفقد شكيمتها و ينكسر غضبها ؟

آثرت هيروديا أن تحجب وجهها عن ابنتها ، خافية آثار هزيمتها ، وآيات فشلها فى استمالةِ ذلك الوحش الرابض فى أعماقِ بأعمالها :

- من ذلك المُتبجح الذى غازلتيه فى باحةِ العرش ؟

- لا أعلم .

- أتجهل امرأة كُنية عشيقها و من يُشاركها مُتعة الفراش ؟

- و لكنه ليس بعشيقى .

و ماذا تسمين ما فعلتيه فى باحةِ العرش مع هذا الهمجى أمام عامة القصر و حثالة البشر من قاطنى هذه المدينة ؟ .. لقد تناسيت أنك أميرة ، تصبحين لتجلسين على عرش ملكى لتأمرى فى الناس و تمسين على فراش لا يطوله إلا الملوك و الأمراء .. لقد تناسيت كل هذا و ركعت أسفل قدميه ، و لعقت أوساخه كأى حظية رخيصة تبغى ماء سيدها ..

أليس هذا دليلٌ قاطع على مُخادنتك إياه ؟ .. أليس هذا دليلٌ باتر على أنك سَكنتِ طرفه خاتميك ليسقيك من مائهِ المَهين .

اهتدت كلمات هيروديا لأذن ابنتها ، التى استشاطت غضبًا من إصرار أمها بنعتها بالساقطة ، و الحافها على وجود علاقة طالما اشتاقت لها شوق الظمأن للماء بينها و بين ذلك البرى ، و لكنها كظمت غيظها ، وقد رسمت على جانب ثغرها إبتسامة خفية ، و هى تردد بحروفٍ باردة ، هادئة :

- أليس هذا ما تفعلينه مع أجمنتوس ؟ .. ألم تمكنيه من خاتميك ، ليعبث بك كيفما شاء ؟

وقعت كلمات سالومى وقع الصاعقة من هيروديا س ، التى جحظت عيناها دهشة ، غير مُصدقة ما سمعت ، فواجهت ابنتها بملامح تئن من نعوتها ، فقالت مُستنكرة :

- ما أفعله مع أجمنتوس .. ماذا تقصدين ؟

- لقد اصبحت قصتك أنت و أجمنتوس كالعلكة التى يلوكها حاشية القصر بين أفواههم ، و تسللك ليلا إلى مخدعهِ ، و صوتك نشوانة يصُم الأذان ، و صدى ضحكاتك الماجنة يُصيب جدران القصر بالخجل ، كل هذا و ملك الملوك غارق فى غيبوبتهِ مختولا فى امرأتهِ ، الذى سال ماؤها لقائدِ جيشهِ ، الذى طعنه طعنة أشد ضراوة من طعنةِ ابنه .

تسمرت هيروديا س فى مكانها غير مُصدقة ما تسمعه ، فبدت كالمسمار الذى دُق على قارعةِ الطريق و نُسى أمره ، و قد نشر الصمت غلالته لتشمل أطرافها أنحاء الغرفة ، و كلا منهما ينظر للأخر فى تحدٍ و سفور

حتى قطعت هيروديياس ذلك الصمت بصفعةٍ قويةٍ اسكتتها وجنة ابنتها ، التي سقطت على الأرض من شدة الصفعة ، التى حملت جام غضب أمها ، و التى زلزلت كيانها الرقيق ، و مع هذا لم يند من عينيها دمعة واحدة ، إحتجاجًا على عُنف أمها معها ، بل قالت بنبراتٍ قويةٍ ، صارمةٍ ، لا تهاب العقاب :

- لماذا صفعتنى .. لأننى أخبرتك بحقيقتك ؟ .. كل من فى القصر شاهدك و أنت تتسللين خلسة فى جُنح الليل إلى حجرة ذلك الحقير أجمنتوس لتشاطريه الفراش ، الكل سمع تأوهاتك و صَمّ آذانه من شدةِ ضحكاتك المُستهترة ، التى تشبه ضحكات الغوانى و الحظيات ، الكل لمس خطواتك الثقيلة و أنفاسك اللاهثة مع أشعةِ الشمس البكر و أنت تتحسسين خطاك سعيًا لحجرتك لتتوارين بها .. الكل يعلم بهوايتك يا أمى فى إمتصاص قوى الرجال ، و لكنى أرفض أن أحيا فى الظل مثلك ، أن أشاطر رجل الفراش من أجل المال و السلطة ، و أغوص فى ديباج آخر من أجل المُتعة ، و أرتمى فى حضن ثالث من أجل الحب ، و ...

قاطعتها هيروديياس صارخة فى توسل :

- كفى .

لم تعر سالومىَ إهتمامًا لتوسل أمها ، و استطردت عباراتها الزاعقة :

- لقد اخترت أن أحب رجلا بعينهِ ، يجعلنى حُرة أمام نفسى قبل الآخرين .

- كفى .

- لقد احببت ذلك الناصرى ، الذى يرقد فى السجن ، و اخترته ليكن

رجليَّ .

- و لكنه فقير ، من عامةِ الشعب .

- سوف أرفعه إلى جوارى ليكن ملكا على البلاد .

- لن يسمح هيرود بذلك ، سوف يقتلكما قبل أن يرمش لكما جفن .

- لن يجرؤ ، لأنه سيخشى ثورة اليهود و أنصار من أحبه ، الذين سيقومون عليه قومة رجل واحد و يفتكون به .

- إنه يهودى .

- و ما يُضيرنى فى ذلك ؟ .. الحب لا وطن له و لا دين .

- سيرفض الزواج بك لأنك رومانية .

- لن يحدث ، لأنه يُحبنى ، يجوب الأرض ما شاء ثم يعود لربوتهِ التى ترقد أمام شرفتىَّ ، مُنتظرًا طلتى منها .

- سوف يرفض ذووه هذه الزيجة .

- لن يحدث .

- شريعتهم تمنع ذلك .

- سوف أقتله إن لم يتزوجنى ، فلن أسمح لامرأة أخرى أن تنعم به و برجولتهِ ، و لك أن تعلمى يا أمى إن اعترض أحد على زواجى من ذلك الناصرى سواء أكان أنت أو زوجك هيرود سوف أهدم المعبد على ساكنيهِ .

انقطع الصراع الكلامى الذى احتدم بين هيروديـاس و ابنتها ، و قد ترقرق دمع الأولى من عينيها من قسوة كلمات ابنتها ، التى انهالت عليها كألف سوط ، و قد بدت الأخيرة كالليث الذى يتربص بفريستهِ ، على أثر

جلبة شاعت خارج المخدع ، فخرجتا فى آثرها ، ليلمحا كل من بالقصر يُهرول تجاه باحة العرش ، و القلق و التوتر يرسمان آياتهما على الوجوه ، فاستوقفت هيروديـاس أحد الموتـورين ، سـائلة إيـاه عـنِ سـر الجلبـة ، فأخبرهـا أن هيـرود رابـض علـى العـرش ، كالصـقر الجـريح الـذى عـاد لمملكتهِ بعد غياب طال ، و قد أمر كل ذى شأن بالمثول أمامه .

تبادلت هيروديـاس و ابنتهـا النظـرات ، و قد جَبَلَ قلب الأخيـرة ، و زاد خوفها على يحي ، فقالت لأمها بنبرة توسل و حروف مُرتجفة :

- الناصرى يا أمى .

حدقت هيروديـاس فى وجهِ ابنتها لتبثها نظرة واثقة ، ثم عمدا إلـى باحـة العرش ، ليجـدا هيـرود قـد اسـتعاد شـكيمته ، و قـد تربـع علـى كرسـيهِ ، مُستعيدًا عهده البائد بهذه القاعـة ، و قـد مَثَلَ أمامـه العشـرات مـن رجـال الدولـة ، الكل يُدلى دلـوه بمـا حـدث فـى غيابـهِ ، فـأرادت هيروديـاس أن تسكن مقعـدها علـى يمـين هيـرود و تُجلس ابنتهـا علـى يسـاره ، فخطـت أقـدامهما السـاحة بضـعة خطـوات ، لتتخشـب علـى أثـر صـيحة هيـرود لزوجهِ ، مُشيرًا لها بالبنان ، و قد بدا صوته كهزيع السماء :

- قفى مكانك أيتها المرأة ، فمكانك منذ اليوم مخدع النسـاء ، لتكونى واحدة من عشرات النسوة ، اللواتى ينتظرن إشـارة مـن أخمصـى ليفنين أنفسهن لإمتاعى .

كانت كلمات هيرود صدمة عظيمة لم تحتملها هيروديـاس ، فسقطت علـى الأرض مغشيًا عليها ، و قد انخلع قلب سالومى عليها ، و قد عانقتها فـى لوعةٍ و هى تردد اسمها ، و قد استجابت هيروديـاس لنداء ابنتها المُلتاع ،

لتفيق من رقدتها ، لتهمس لها ببضعةِ كلمات ، جحظت لها عينا سالومى ، و جمدت ملامحها ، لتنهض مُهرولة خارج القاعة ، تاركة أمها و قد استسلمت لأيدى الخدم ، التى حملتها حيث مثواها الجديد ، مخدع النساء على حين استأنف هيرود جلسته ، ليصغى فى إمعان لكل ما حدث بمملكتهِ أثناء صراعه مع الموت ، و مع كل كلمة كانت تسكن رأسه كان غضبه يثور ، كبركان خامل حان أوان نشاطه ، و قد كادت حواجبه تعانق بعضها البعض من هول ما يسمع ، و قد عجب من إنتهاز اليهود فرصة رقوده ليُفسدوا فى الأرض و يعيثوا فيها فسادا ، و لم يعر أمر النبى الجديد إهتمامًا ، بكل ما رواه رجاله من معجزات أتى بها ، و لا ألتفاف الناس حوله ، و لا كونه عيسى بن مريم ، الذين ادعوا قتله قديمًا ، و هو يقول بصوتٍ مُمتلئ ، صارم :

- لقد ظننتم موتى ، موت هيرود العظيم ، و لكنكم لم تعلموا أن هيرود لا يموت ، هيرود خالد إلى أبد الأبدين ، سوف تموتون أنتم وأولادكم و لن يموت هيرود ، و غضبة لما اقترفه اليهود أثناء رقدتى ، مع إشراقة صباح غد يُصلب كل من بالسجن ، و تترك أجسادهم لا يقربها أحد من ذويهم كعصف لطيور السماء ، هذا و تزيد الضرائب على عامةِ الشعب إلى ثلاثة أضعاف ، لا يُستسنى منها أحد ، حتى الكهنة و رجال الدين ، و تجبى الضرائب على العاطل و العجائز والنساء و الأطفال ، و من يمتنع عن الدفع يُصلب فى ميدان عام ، حتى يكون شاهدًا على عصر جديد ، لن يعرف الرحمة و لا الشفقة .

* * *

منذ استشراء قرار هيرود بصلب كل من يقطن سجونه انقلب حال الناس رأسًا على عقب ، و انقلبت أفراحهم لأحزان قاتمة ، و لم ينجو والدٌ و لا ولد من هذا الضُر ، و قد اعتلت الرايات السوداء عشراتِ الدور المنكوبة ، التى طالها قرار هيرود بصلب أحد أفرادها ، و قد بدت الطرقات طويلة ، حزينة ، موحشة ، بعدما سكن الرجال الدور و الحزن يلجم ألسنتهم ، و العبوس يحتل الوجوه ، على حين خرجت النسوة مُجتمعة ، رابضة على جوانب الطرقات و أمام دورهن يندبن و يولولن على ما ألم بهن و بأولادهن و أزواجهن .

و الدور التى نجا أهلها من مقصلةِ هيرود ، أخذ أربابها يعدون عدتهم لمقابلةِ الضرائب الباهظة التى فُرضت عليهم ، و قد خشى كل والد أن يأتى اليوم الذى يضطر فيه لبيع ولده مقابل القليل من قطع الفضة ، التى ستؤول لهيرود ، أو يضطر لهجر داره و أهله لينزح إلى بلد آخر قد يجد فيها العدل داء البشر .

و لم يكن دار زكريا بأفضل حال من سائر الدور ، فكان الحُزن يرفرف أجنحته على أركانهِ ، و قد جلس زكريا و زوجه و مريم و ابنها ، كل واحد منهم يستتر بأحزانهِ خلف أحزان الآخر ، و لكن دون جدوى ، فقد فضحت الوجوه و الدموع المكبوته فى المآقى ذلك الضعف الراسخ داخل كل واحد منهم .

ظل الصمت مُطبق على الدار ، و قد بدا مجلسهم كلوحةٍ بارعةِ التكوين ، تعبر عن مدى الحزن و القهر الإنسانى ، حتى قطع عيسى أواصره ، و هو يقول مُخاطبًا زكريا ، الذى بدا عليه التخشب و قد تحجرت أطرافه

- أأدعو الله أن يُنجى يحي من كربهِ ؟

لم يجب زكريا على استفسار عيسى ، الذى احترم صمته ، ليلزم الصمت بدوره ، حتى قال الأول بصوتٍ عميق ، جاف ، كأنه ينبُع من بئر سحيقة :

- أبدى من دعواتك أن أدعوه أنا ، فهذا ولدىَّ ، من جاء نتاج دعواتىَّ و صلواتىَّ ، و لكن ما هو فيه أحب عليه من عفوهِ منه ، فقد ُخلق سيدًا و حصورًا .

قالت مريم :

- لا تحزن يا أبتى ، فميقات يحي لم يحن بعد .

ود زكريا و زوجه أن يُصدقا قول مريم البتول ، صاحبة الرؤى الحق ، و لكن كل الشواهد التى تحيق بهم تكذبها ، و تنكر عليها الصدق ، و تقر بوفاة يحي على يد هيرود .

-١٠-

م
مع إشراقةِ شمس يوم جديد ، و قد فردت أذرعتها البكر ، حديثة الولادة على شتى البقاع ، لتصبغ الثرى بلون الذهب ، اكتنزت الطرقات بالناس ، التى هجرت دورها لتخلو على عروشها ، وقد نزحت إلى الطريق المُفضى إلى قصر هيرود ، و قد اصطفوا على جانبى الطريق ، الكل يتزاحم ليجد بقعة صغيرة يقف عليها ، الرجال بوجوههم العبوسة ، و النساء المُتشحات بالسواد ، يعلو رؤوسهن الأنقبة البيضاء ، حتى العجائز و الأطفال ، الكل ينتظر فى خفر ، و العيون الموتورة تمشط الطرقات ، مُنتظرة حدوث أمر جلل ، و قد صارت الكلمات المُتعجبة ، و العبارات الدهشة ، و الاستفسارات المُستنكرة سلوتهم ، و وسيلتهم الوحيدة لأغتيال ذلك الخوف الرابض فى نفوسهم .
كرت السويعات بطيئة ، و قد توسط قرص الشمس الدامى صفحة السماء ، التى اصطبغت بلونـهِ ، و الكل مُتسمر فى مكانـهِ ، و العرق اللزج يتفصد من الجباه ، و قد لاذت الألسنة بالحلوق ، فارة من شدةِ الحرارة ، التى اصبحت عاملا حافزًا على زيادة توتر الناس ، الذى لم يخمد مع طول انتظارهم ، حتى رنا فى الأفق صوتٌ واهن مُنتظم لقرع طبول ، وقد ارتجفت القلوب مع دقاتها ، التى تنذر بأقتراب وقوع الحدث الجلل ، و قد سُلبت الأنظار ، لتعلق بالأفق ، الذى لاح فيه حاملو نفير الموت ، ومن ورائهم عشرات الرجال الذين حُكم عليهم بالموتِ ، يحملون الصلبان على عواتقهم الهزيلة ، و بجوارهم رجال هيرود بسياطهم ذات الألسنة العقيمة ، التى تشبه ألسنة الأفاعى المشقوقة ، و قد جف ضرعها

عن إيلاج الرحمة و الشفقة ، و هى تدمى أجساد الأبرياء ، الذين اخذوا يتساقطون الواحد تلو الآخر من ثقل ما يحملون ، لتنهال دماؤهم راوية حبات الثرى العطشى من قيظ السماء ، و من يسقط منهم تنهال السياط عليه فى ضراوةٍ ، مُمزقة جسده دون رحمة ، حتى ينهض و يحمل صليبه الخشن ، الذى كاد يُعانق السماء بأرتفاعهِ الشاهق ، ذلك الصليب الذى سيُدَقُّ عليه ، لينهل من عمره ما بقى منه .

تعالت صيحات الاستنكار ، و عبارات الشفقة و طلب العفو و الرحمة من الحضور ، و قد انهالت دموع النساء زخات ، و قد احتضن الآباء أولادهم بقوةٍ ، كأنهم يحمينهم من هذا المصير ، على حين سقط البعض مغشيًا عليه من ذوى الضحايا ، بعدما فشلوا فى تحمل صورة أبنائهم وهم يحملون صلبان الموت ، التى تسوقهم لحتفهم .

و كان زكريا يندس بين الحضور ، و زوجه إليصابات تحتضن ذراعه فى خوفٍ و رهبةٍ ، كأنها تدرأ الأذى عنها و عن ولدها بهذه الذراع الهزيلة ، التى نخر السوس عظامها ، و بجوارهما كانت مريم و ابنها عيسى و بعض تلاميذ الأول .

بدا جسد زكريا و زوجه كورقتان فى مهب الريح ، و هما يرتعدا من شدةِ قلقهما على يحي ، و قد اخذت العيون تمسح جحافل المحكوم عليهم ظلمًا و بُهتانا ، و لكن دون جدوى ، و قد عجزت عن رصد يحي ، شهيدهما و سيد أيام عمرهما ، مما زاد من خوفهم عليه ، ليتحول لرعب كاد يُوقف القلوب .

أخذ زكريا و من معه يدفعون الناس دفعًا ، و هم يعدون بينهم كالفلك

التى تمخر عباب البحر باحثين عن يحي ، الذى غاب عن ناظرهم .
وصل الضحايا للميدان العام ، تلك الباحة التى ستشهد مأساة صلب عشرات الرجال الأبرياء ، الذين لا حول لهم و لا قوة سوى أنهم قالوا كلمة الحق ، و نددوا بالظلم و الطغيان ، و قد ألقى كل منهم صليبه ، ليسكن الأرض و يحتلها أسوأ إحتلال ، لتتسلمه رجال هيرود بأيدى أماتها كثرة الظلم ، ليضعوا عليها الضحايا المغلوب على أمرهم ، بعدما ألقوهم على ظهورهم ، و أخذوا يدقوون الأعمدة الحديدية الحادة على أيديهم ، لتخترقها فى استعباد ، لتنفذ فى الخشب ، مُخلفة خيوطا من دمائهم ، التى اخذت تسيل على خشب الصلبان حتى لاقت حبات الثرى ، لتعانقها فى حميميةٍ عناقا أبديًا .
تعالت همهمات الحضور الغضبى ، التى تستنكر ما يحدث ، عندما بدأ رجال هيرود فى إقامةِ الصلبان فى الأماكن المُخصصة لها ، و قد صَمّت صيحات الضحايا الآذان ، و هم يستنجدون بذويهم تارة ، و بكهنةِ الجليل و رجال الدين تارة آخرى ، و بيحي بن زكريا تارة أخيرة ، ولكن صيحاتهم الفقيرة لم تفت فى قلوب رجال الطاغية ، الذين قبضوا على رماحهم ، و قد برقت أسنتها ببريق الموت ، و قد رست فى قلوبِ الرجال بضراوةٍ ، لتجنى أرواحهم الواحد تلو الآخر ، و تحصد أنفاسهم فى عُجالةٍ .
ساد الصمت باحة الميدان ، كأن الطير حط على الحضور ، و هم يُجاهدون فى كتم عبراتهم الحرى ، التى بللت اللحى و جرحت الوجنات ، فلم يُسمع سوى صوت النواح و عبارات الشفقة ، التى تدعو لذوى

الضحايا بالصبر و السلوان .

رحل رجال هيرود ، و ثيابهم مُلطخة بدماء الضحايا ، التى رقدت رفاتهم فى سكون ، و قد أنهال الآباء و الأمهات ، الزوجات و الأبناء على الصلبان ، كلّ أمام رمة ذويه ، يبكيها، يُلثم أجزاءها قبل أن تغيب فى الثرى إلى أبد الأبدين ، كلّ فى ملهاتهِ ما عدا آل يحي ، الذين كادت عقولهم تشت ، و قلوبهم تتجمد ، و هم يمزقون جمع الثكالى ، ماسحين أجساد الضحايا المُعلقة على الصلبان بأنظارهم باحثين عن يحي ، ليجنو ما حصدوه من قبل من حطام الفشل .

غادر زكريا آخر رمة رقدت فى باحةِ الميدان ، دون أن يعثر على ابنهِ ، فلم تحتمل قدماه ، فسقط على الأرض ، و قد سرى به شعورٌ بالعجز أصاب قدماه ، و هو يُردد بصوتٍ خنقت نبراته بين دموعه و تشنجاته :

- لقد نالوا يحي ، نالوا عزيز أيامىَ ، لقد قتلوه و مثلوا بجثتهِ داخل هذه القلعة السوداء ، و الله لقد مات ولدى شهيدًا .

ودت إليصابات لو تشق ثيابها حزنا على ابنها ، لولا خشيتها نظرات الناس و لمزاتهم ، التى ستنهل من مكانةِ زوجها بينهم ، و تنقص من قدرها بين العامة ، فأكتفت بالنواح ، و إهدار الدموع الملحية الغزيرة ، على حين بدا وجه مريم و ابنها جامدًا ، ثابت الملامح ، و قد قالت الأولى بهدوءٍ يتنافى مع وقع الخراب الذى يمس أطراف أثوابهم :

- لم يحن موعد يحي بعد ، ستكتب له النجاة .
- كيف يتسنى هذا ، و لم ينج اليوم أحد من براثن هذا الجبار ؟
- إنها مشيئة الله ، الذى خلقه بعد أفول الأمل .

- و لكنى لم أبصره اليوم بين الضحايا ، لقد تخلص منه هيرود داخل قلعته ، و بخل علينا برفاته لكى نشيعها مقامًا رفيعًا .
أنهار زكريا ، و كادت عيناه تثمل من شدة البكاء ، فأحترم الجمع حزنه ، و قد آثروا الصمت ، مُصغين لصوت نواحه و عباراته الواهية ، التى استمدت ضعفها منه ، و هو يُردد :

- لقد مات سيد البكائين ، لقد مات سيد الشهداء .

* * *

جلس عيسى أسفل شجرة وارفة ، السماء فوقه ، و العشب الأخضر تحت أقدامه ، و الأفكار تنثال على رأسهِ ، لقد سمع ليحي ، و شاهد نضاله ضد الظلم ، و نصرته للضعيف ، و تحريضه الأغنياء على مُساندة الفقراء ، و أقتسام مُتع الدنيا معهم استشراءًا للآخرة ، التى أخذ يُذكر الناس بأقترابها ، رآه خشنا ، صلبًا كالصخر ، رغم هوان جسده مع كهنةِ الجليل ، الذين تفرغوا للصراع فيما بينهم ، أيهم أحق برئاسةِ الجليل ونيل شرف الإشراف على بيت الرب بعد وفاة كبيرهم ، كذلك شاهد سفسطة الصدوقيين ، و إهتمامهم الزائد بشريعةِ موسى ، التى كادت تختفى و تنقرض من جراء أفعالهم بها ، و قد صار السلس فيها شديد التعقيد ، صعب المنال ، و قد عزف الناس عن العمل بها ، و قد ساور الجيل الجديد الشك فى صحتها ، أو نيل يد الإنسان منها بالتحريف أو التبديل ، و كذلك رأى تفاهة ما يُقدمه الفريسيون للناس ، و مُتاجرتهم بالدين ، و تربحهم منه ، و العامة مُشتتون بين هؤلاء و هؤلاء ، و قد مزقتهم فُرقة رجال الدين ، و حثتهم على هجر دور العبادة ، و قطع

حبائل الود مع الله ، ليعمد البعض لعبادة الأوثان ، التى ألفوا آباءهم يعبدونها ، و يسرح البعض الآخر بلا دين أو هوية .

إنه يعلم أن موسى قد ذهب للقاء ربه ، و انفرد فوق طور سيناء أربعين يومًا و ليلة يُناجيه ، حتى تجلى له و كتب له فى الألواح شريعته ، ويحي كان يَعمد لخلوتهِ فى العراء حتى نال رسالته ، فعزم أن يمكث فى الخلاء ليتعبد ، و يتأهب لوحى السماء ، لعل الله يمنحه ما يهدى به الناس التى ضلت سبيلها .

ركع على ركبتيهِ ، و تطلع طويلا إلى السماء ، و جعل يبتهل إلى الله فى حرارةٍ ، و جرت دموعه ، و بكى بمثل حنين الإبل ، بكاء من ودع الأهل و الأصدقاء ، و قلا الدنيا ، و هو يقول فى خفر :

- يا رب ما أكثر مضايقى ، كثيرون قائمون علىَّ ، كثيرون يقولون لنفسىَّ ليس له خلاص بإلههِ ، سلاه ، أما أنت يا رب فترس لىَّ ، مجدىَّ و رافع رأسىَّ ، بصوتىَّ إلى الرب أصرخ فيُجيبنى من جَبَل قدسه ، سلاه ، أنا اضطجعت و نمت ، استيقظت لأن الرب يعضدنى ، لا أخاف من ربواتِ الشعوب المُصطفين علىَّ من حولى ، قم يا رب ، خلصنى يا ألهى ، لأنك ضربت كل أعدائى للربِ الخلاص ، على شعبك بركتك .. آمين .

انهى عيسى إبتهالاته ، و قد بللت دموعه لحيته ، و قد ودع السماء بنظره ليجد تلاميذه أمامه ، و قد لاذوا بالصمت المُطبق حتى لا يقطعوا خلوة معلمهم ، الذى قال لهم سائلا :

- كيف علمتم بمكان خلوتىَّ ؟

قال يهوذا الأسخربوطى :

- إن خطواتك تنير الأرض ، فيسهل تعقبها .

قال آخر :

- لماذا تركتنا و آثرت خلوتك ، هل أساء أحدنا لك ؟

- الحق أقول لكم يا أخوتىَّ ، لقد طاقت نفسىَّ للحظةِ صفاء ، بعيدًا عن رياء الأرض و آل الإنسان ، فعمدت لخلوتىَّ ، فالخلوة تطهر النفس من خطاياها ، كما تجلى الدموع صدأ القلوب ، و المُناجاة تشحذ الروح ، و تملأ القلب نورًا .

- لماذا كانت كلماتك مع الله حزينة ؟

- الحق أقول لكم ، لقد تاقت نفسىَّ للقاء الله دون البشر ، لذلك عزمت على الرحيل ، لأقيم خلوة مع الله ليمنحنى قبسًا من لدنهِ يُنير درب أخوانكم ، ممن ضلوا طريق الثواب .

انفض المجلس ، و قد عمد عيسى لمنزلهِ ، ليجد مريم مُتكومة فى ركن مُنزوى ، و قد بدا وجهها عبوسًا ، و آثر الدموع الملحية مُنطبع على وجنتيها ، فذهب إليها مُقبلا جبهتها ، رافعًا إياها لتنهض من جلستها لترقد على مقعدٍ خشبى قد صنعه بنفسهِ ، و قد قال لها بنبراتهِ الهادئةِ :

- حسبك نفسك يا أمى ، فما يُعانيه يحي هو قدره ، و قدر كل من حمل رسالة من الله .

- أعلم يا بُنى .

- لقدُ كتب على كل مبعوث أن يُهان فى قومهِ ، و يَلقى من العذاب ما لا يطيقه بشر ، و يُتهم بالجنون تارة ، و بممارسةِ السحر تارة أخرى

هذه سماتنا التى خصنا بها الله دون سائر البشر ، و لا تحسبى أننى سأنجو من هذا المصير ، و ربما ما سألقاه أشد ضُرًا مما حاق بيحي ، فوصيتى لك يا أمى ألا تبكى ، فيتألم قلبى فى مثواى .

ضمت مريم ابنها و قد انزلقت دمعة حرى من عينيها ، و هى تقول فى دهشةٍ :

- لِمَ كلماتك هذه يا بُنى ؟

- الحق أقول لك يا أمى ، إن حساب الضُر قبل السعادة لهو عين العقل ، و ما نحن نلقاه أنبياء الله منذ هبوط آدم أبى البشر لهو الواقع بعينهِ ، لذا قد قررت أن أنتهك درب الأنبياء و أسلك مسلكهم .

- إيلام تنوى يا ولدى ؟

- الحق أقول لك ، لقد نويت الرحيل ، قاصدًا خلوة ، ترقى فيها نفسى .

صمتت مريم ، و قد عانقت عيناها الأرض ، فلمس عيسى حزنها على فراقهِ ، فقبلها و هو يُربت على كتفها قائلا :

- إنه قدر الأنبياء و الرُسل .

- و متى نويت الرحيل ؟

- الأن يا أمى .

- أترحل قبل أن تعثر على يحي ؟

- خير الناس يجب ألا يتعلق بقدر يحي بن زكريا ، و أنا ذاهب لأبحث عن ما فيه خير لهم ، لأتى بقبس من الله يُنير دربهم ، وينتشلهم من وحل الجهل و عبودية العقول .

* * *

انتهز يحي فرصة الظلام الدامس ، الذى يفترش سجنه ، و يتربع فى أركانه ، مُحتلا إياها ، ليعقل كل ما مر به ، و يُحاسب نفسه على كل أثم اقترفه ، ليبكيه ندمًا ، لعل الله يتقبل توبته و يغفر له إثمه ، و أثناء سكونه سمع صوتا هامسًا يُناديه ، ففتح عيناه ليلمح طيف رجل أختفى فى ديباج الظلمةِ ، فقال سائلا :

- من هناك ؟ .. من أنت ؟

- إنه أنا .. ألم تتعرف علىَّ ؟

لمس يحي فى صوتِ الرجل نبرة غير عادية ، لم يألفها فى بشر قط ، فعلم أنه أبليس ، و قد تجسد له فى هيئةِ رجل ، فقال له بنبرةٍ حادةٍ ، وحاسمةٍ :

- اغرب عن وجهى أيها اللعين ، ماذا جاء بك ؟

- إنى أريد أن أنصحك .

- كذبت ، أنت لا تنصحنى .

أخذ يحي يتحسس الأرض بحثا عن حصى يُلقيه على ابليس ، حتى يغرب عنه ، و لكن هاتف هتف به أن يستثمر أبليس لما فيه الصالح له ، فقال له :

- اخبرنى عن بنى آدم .

- هم عندنا على ثلاثةِ أصناف ، أما صنف .. فهم أشد الأصناف علينا ،'نقبل عليه حتى نفتنه ، و نستمكن منه ، ثم يتفرغ للاستغفار والتوبة ، فيُفسد علينا كل شئ أدركنا منه ، ثم نعود له فيعوذ ، فلا نحن

نيأس منه ، و لا نحن ندرك منه حاجتنا ، فنحن من ذلك فى عناءٍ ، أما الصنف الآخر .. فهم فى أيدينا بمنزلةِ الكرة فى أيدى صبيانكم ، نتلقفهم كيف شئنا ، قد كفونا أنفسهم .

- و الصنف الثالث .

- مثلك معصومون ، لا نقدر منهم على شئ .

- على ذلك ، هل قدرت على شئ ؟

- لا ، إلا مرة واحدة ، فإنك قدمت لك طعامًا تأكله ، فلم أزل أشهيه إليك حتى أكلت منه أكثر مما تريد ، فنمت تلك الليلة ، فلم تقم إلى الصلاة ، كما كنت تقوم إليها .

لاذ يحي بالصمت ، و هو يتذكر أحداث ما يرويه أبليس عليه ، و قد انفرجت أساريره و هو يقول :

- لا جُرم ، لا شبعت من طعام أبدًا .

قال أبليس :

- لا جُرم ، لا نصحت أدميًا بعدك .

هم يحي أن يقول شيئا ما ، لولا أن قاطعه صوت أقدام تقترب من باب سجنه ، فالتفت نحو أبليس ليجده اختفى خلسة كما جاء خلسة ، فوقف ساكنا ، مُبصرًا زائره ، الذى لم يكن سوى سالومى ، التى اقتحمت سجنه بأنفاس لاهثة ، سرعان ما هدأت ، و هى تحدق فى عينيهِ ، و قد عُقد لسانها ، و عيناها تجول فى كل خلجة فى وجههِ ، و قد قال لها بصوتٍ صارم :

- ماذا أتى بك يا سيدتىَّ ؟

فاقت سالومى من شرودها أثر عبارة يحي ، و قد قالت له :

- لقد أتيت إليك لكى أخرجك من هنا ، قبل أن يفتك بك هيرود مع أقرانك .

جزع يحي لكلماتِ سالومى ، و قد قال لها :

- ماذا سيلم بأقرانى من الثوار ؟

- لقد حكم هيرود على كل المسجونين بالسجن الكبير بالموت ، سيتم صلبهم غدًا بالميدان العام أمام ذويهم ، لذا قد أتيت لإنقاذك قبل أن يعلم هيرود من عيونهِ بوجودك هنا ، فتلقى مصير أقرانك .

- و لماذا أنا دون الآخرين ؟

- لأنك ...

قطعت سالومى عباراتها ، و قد تخضبت وجنتاها خجلا ، و قد عانقت عيناها الأرض ، قبل أن تقول فى خفر :

- لأنك من أحببت ، و من اخترته رجلا ليَّ دون العالمين .

- ألكونك من الحكام تختارين من تشائين و تلفظين من تشائين ، عذرًا سيدتيّ ، و لكنى لم أختارك دون النساء ، و لن أختار منهن خدينة ، لأنى نذرت نفسى لرب العباد ، و ما يملكه الرب يُحرم على يد الإنسان

قالت سالومى بخيبةِ أمل ، و استجداء لم تعتاد عليه :

- و لكنى أحبك منذ أمد .

زادت دهشة يحي ، و هو يُحاول أن يتذكر صاحبة هذا الوجه ، و قد فشلت ذاكرته فى نجدتهِ من حيرتهِ ، و قد بدت دهشته جلية فى جحوظ عينيه ، و ارتفاع حاجبيه ، على حين استطردت سالومى ، قائلة بصوتٍ

حالم :

- لقد كنت أجلس فى شرفتى كل يوم منذ شروق الشمس و حتى مغيبها مُنتظرة قدومك للربوة ، التى تفترشها مُختليًا بنفسك ، لتعزف أجمل الألحان الشجية ، و تترنم بكلماتك العذبة ، بصوتك الساحر ، و قد اغرورقت عيناك بحبات الماس ، التى تنهال على وجنتيك ، و عندما تتأخر عن موعدك ، أو تغيب يُصيبنى الجنون ، و لن يسلم أحدٌ من الخدم من لسانى و يدى ، و الرغبة الكامنة فى قلبى تحرضنى للسعى خلفك ، باحثة عنك ، كل هذا و لم تشعر بىَّ أيها الناصرى ؟

- سيدتىَّ ، إن النساء كالخمر ، قليلٌ منه يشفى ، و لكننا لا نجنى منه سوى الداء المُزمن ، الذى يسرى فى الأبدان فيجعلها كعجائز نخل مُنقعر ، و ها أنا ذا لا أشرب الخمر و لا أعاشر النساء ، فكفانى ذنوب نفسى الآبقة ، و ما سألاقيه منها ، سيدتىَّ من يُحب الله لا يعرف أحدًا سواه .

حاولت سالومى أن تراوده عن نفسه ، و لكنه كان خشنا معها ، ينكص كل فرصة تمنحها له لكى ينالها ، و يلفظ كل محاولة منها تسوقه نحو شركها ، و قد ظنت أن تمنُعه عنها لقلقهِ على مصيره و مصير أقرانه ، فعدلت عن حلمها بأن تجمعها لحظة مع ذلك الناصرى الذى تمنته ، و قد قالت له فى شئ من التمنع و الخفر ، اكتسبته من شعورها بجُرح عظيم أدمى أنوثتها :

- لك ما تريد أيها الناصرى ، و لكن الأن أسرع فى الفرار من هنا

- لن أبرح مكانى هذا ، إلا للزنزانةِ التى يسكنها أقرانى ، لألقى

نفس مصيرهم ، فما كتبه الرب لا يفرقه العبد .

قالت سالومى فى عنادٍ طفولى :

- لن يحدث هذا أبدًا ، فحياتىَّ مُرتبطة بحياتك .

- و أنا لن أبرح هذا المكان .

لم تجد سالومى بدًا من المُراوغة مع يحي ، فلاذت بالصمتِ ، و هى تفكر فى سبيل آخر لتُخرج هذا الآخير من سجنهِ ، و تعدله عما يُلحف عليه ، فقالت له بعد صمت لم يطل :

- فى خروجك من هنا حياة لأقرانك المسجونين و لأنصارك الأحرار ، اتبعنى للحرية ، ثم حاول أن تخرج أنصارك من حبسهم ، ندد ، أشجب ، تجمهر ، تظاهر ، المهم أن تخرج من معتقلك .

وجدت كلمات سالومى هوًا فى نفس يحي ، الذى تبعها إلى دروب وسراديب القصر ، التى حملتهما فى جوفها مدة ليست بالقليلة ، لتلفظهما خارجها ، حيث ضوء النجوم الباهت ، و الهواء المنعش .

قالت سالومى ، و قد غمرت السعادة وجهها ، و طبعت الفرحة إبتسامة على شفتيها ، و هى تبصر ضوء النجوم المُحتضر ، و تستشعر نسمات الهواء الباردة التى تعبث بخصلات شعرها :

- الأن اطمئن قلبىَّ عليك ، بعدما صرت بعيدًا عن يد هيرود ورجاله .

حاول يحي أن يتعرف على المكان المُحيط به ، فقد استشعر غربة بين جنباته ، فقد كان يُشبه الغابة بأشجارها الكثيفة ، التى بدت فى ظلمةِ الليل الدامس كأشباح تسعى ، فقال :

- أين أنا الآن ؟

- أنت فى الطرفِ الغربىِّ للمدينةِ ، فهذه السراديب هى الدروب السرية التى يستخدمها رجال هيرود فى التلصص على حدود جيرانه من المدن و القبائل .

- أيعنى هذا أننا نسكن الآن أطراف المدينة ؟

- نعم .

- كيف يتسنى لى أن أنقذ الأبرياء من براثن هيرود و بينى و بينهم مسيرة يوم و ليلة ؟

بدا على سالومى الجهل بكلماتِ يحي ، الذى نظر لها شذرًا ثم طفق يعدو كالسهم نحو الغابة ، ليغوص بين أشجارها ، على حين تسمرت فى مكانها دون حراك ، غير مُصدقة رحيل يحي ، و كأنها تنتظره يأتى ليقبض على كتفها ، ثم يعود بها لمخدعها ليُشاطرها فراشها ، الذى تاق دومًا له .

لم يبال يحي بأغصان الأشجار التى جرحت وجهه ، لتسيل خيوط الدم الرفيعة صانعة الأخاديد ، و الأعشاب الجافة التى أدمت قدماه و هو يعدو بكل قوته ، مُحاولا أن يسبق الريح ، أخذًا دربه نحو المدينة ، لعله يستطيع منع تلك الجريمة التى سيشهدها العامة فى الميدان ، كان يشعر بأن مصير الأبرياء الذين حكم عليهم بالموت مُعلق عليه ، و إنه السبب الرئيسى فى ترمل أزواجهم و حرمان أبنائهم منهم ، لذلك كان يحث قدماه على الأتيان بما لديها من سرعة ، و يقسو على قلبه حتى لا ينهار و يتوقف من شدة الإعياء .

أبلجت الشمس بنورها الساطع ، و أشعتها الدافئة ، و يحي يُواصل عدوه دون كلل أو ملل ، و لكنه لم ير سوى الأشجار التى لا تنتهى ، و قد ظن إنه ضل الطريق ، و لكن هاتف بداخلهِ ظل يحثه على استكمال مسيرته ، و قد بلغ الإعياء مبلغه منه ، فكان يقع على الأرض ، لترسم ملامحه على طينها ، و هو يسف ما تجود به ، ليُعاود النهوض مرة أخرى ، وجسده يترنح من الإعياء كالمخمور .

لاحت المدينة أمام يحي ، بمنازلها ذات الطوابق المحدودة ، و قد بدت ساكنة ، هادئة على غير العادة ، فاستشعر ضُرًا يغزوها ، فأخذ دربه إلى الميدان ، و قد بدت أصوات نافرة تغزو أذنه ، لم يفهم منها إلا إنها صرخات إحتجاج ، أو استعطاف ، حتى أشرف على الميدان ليهاله حشود الناس ، و قد دقت الصلبان ، و استعد جنود هيرود لإرسال الضحايا إلى مثواهم الأخير ، و ...

- لا .. لا .

و انتهى كل شئ ، ليسقط يحي مغشيًا عليه ، و آخر ما رآه دموع الأهالى تبكى أبناءها .

* * *

اجتمع كهنة الجليل من صدوقيين و فريسيين و رجال دين داخل مخدع أحدهم ، و قد ضاقت الأنفس ذرعًا لما بين الكهنة من صراع احتدم على من يتولى حكم الجليل ، و قد تراشقوا العبارات الزاعقة ، التى حولت سكونهم لحركةٍ عنيفةٍ تنبأ بأحتدام عراك بينهم ، لولا تدخل حنان و قيافا خصيا حاكم الجليل المخلوع ، و قد قال الأول فاضا الإشتباكات المُندلعة

- ما أجتمعنا اليوم لنتنازع فيما بيننا ، أيّا منا أحق بنيل ذلك المقام الرفيع .

استطرد قيافا عبارة نديمه ، قائلا :

- و لكننا أجتمعنا للحفاظ عليه من المُتـأمرين ، الذين يُخططوا لحرمانكم منه سادة و كهنة الجليل .

لاذ الجمع بالصمت المُطبق ، الذى طبع آياته على وجوههم ، و قد جحظت العيون ، و النظرات المُتبادلة فيما بينهم تعبر عن استنكار هم لما سمعوه ، على حين قال صدوقيا كبير الصدوقيين قاطعًا الصمت :

- من غير الصدوقيين و الفريسيين يطمع لنيل هذا المقام ؟

قال حنان بصوتٍ عميق و حروفٍ جلية :

- زكريا بن لدن بن مسلم .

ضحك صدوقيا ساخرًا و هو يقول :

- و لكنه عجوز مُخرف ، لا يقو على التآمر .

- يحي بن زكريا .

- لقد صُلب مع من صلبهم هيرود .

قال قيافا بصوتٍ يُشبه فحيح الأفاعى :

- و عيسى بن مريم ، ملك اليهود المُبشر به فى صحف موسى ، أليس من حقهِ أن يُطالب بعرشهِ و ينال الجليل ؟

عاد الصمت يفرد ثوبه على الجميع ، لتحشر الألسن فى الحلوق ، كأن الطير حط على رؤوسهم ، و قد أحس حنان و قيافا بأنهما نالا من كهنةِ الجليل ، على حين قال أحد الفريسيين بحروف مُتقطعة ، لم تقنع صاحبها

قبل الحضور :

- لا أظن عيسى يرغب فى نيل منصب أو جمع مال ، فحاله مثل زكريا و يحي ابن خالته ، التقشف و الزهد .

قال آخر مُعارضًا :

- و لِمَ لا يفعل ، ألم يدعى أنه ملك اليهود ، و قد جاء راعيًا لنا ؟

- نعم ، و الجليل غاية رجال الدين ، و يهب من ينسب له سلطة على سائر اليهود .

- و لكن قلة هم أتباع عيسى ، إنه لم يقتن سوى اثنى عشر تلميذًا وبعض العامة ، الذين انجذبوا له لحلو كلامه و عجيب أفعاله .

- و لكنه يأتيهم بالسحر و الشعوذة .

- من قال إنه عيسى بن مريم ؟ .. لقد قتل عيسى منذ صباه على يد رجال هيرود ، و لا يُعقل أن يعود الموتى للحياة مرة ثانية .

- و لكن إيليا المُنتظر لا يموت ، إنه حى متى حيينا .

- إذا من يكون هذا الذى يدعى إنه عيسى ، و يسكن مع مريم ابنة عمران ؟

- يبدو إنه مشعوذ أتت به مريم لتنال من خلالهِ حُكم الجليل ؟

- إذا فالسيد حنان و السيد قيافا على حق ، هناك مُؤامرة تحاك على الجليل .

حُفرت إبتسامة واسعة على وجهى حنان و قيافا ، و هما يُشاهدا صراع رجال الدين ، الذى آل لما رما إليه ، على حين نهض واحد منهم ، و قد بدت عليه آيات الضيق و الغضب ، و هو يجول ببصره فى الوجوه

الثائرة ، المُتحاملة على عيسى ، فقال :

- يا قوم ، ما ليَّ أرى الظلم تملك منكم ، و قد انقلبتم على سيد أيامكم ، إن عيسى بن مريم البتول الذى بين يديكم هو من بَشرت به صُحف موسى ، إنه ملك اليهود ، الذى ارسله رب موسى ، ليُخرج شعبه من ظلمات هيرود ، و سيطرة الرومان إلى نور الحق ، إن عيسى بن مريم جاءكم بالحق المُبين ، و معه آيات نبوته ، فلماذا تغالون فى الإفتراء عليه ؟

صاح الجمع بلكنةٍ استنكار ما نسب إليهم من خطب عداوة عيسى :

- من هذا الرجل ؟

- إنه أرميا بن حلقيا من سبط لاوى .

قال كبير الفريسيين بحروفٍ مُتلمظةٍ ، و عين تمسح وجه أرميا فى تأففٍ :

- ما عهدنا فى أبناء يعقوب الصديق صفاقة اللسان ؟

قال أرميا :

- بل ما عهدت فى رجال الدين و كهنة بيت الرب دحر الحق وهوان الدين من أجل متاع الدنيا ، و الله لو كان الأمر ملك يمينى لمنحت الدنيا لمن اختارهم الله رسلا له ، فلن نجد خيرًا منهم أمناء علينا قالها ثم غادر القاعة ، تاركا الحضور فى بلبلةٍ عظيمةٍ ، و حرب كلامية نشبت مخالبها بضراوةٍ ، على حين كلت مساعى حنان و قيافا فى إخماد ما اندلع ، حتى صار الصمت عزيزًا عليهم .

بدأت حدة الصراع تقل ، حتى حط صمتٌ مُفاجئ على المكان ، كأن

الكلمات نفذت من الحلوق ، لينتهز قيافا الفرصة لينهض فيهم قائلا بصوتهِ الرخيم ، الذى يُشبه فحيح الأفاعى :

- يا سادة الجليل ، إن ما يُحاك على بيتِ الرب أعظم من صراعاتنا الجانبية ، فمُستقبل اليهود مُتوقف على جلستنا هذه ، فدعونا نمضى قدمًا فى القضاء على المُتآمرين ، و ننقذ العامة من مُدعى النبوة .

نجح قيافا فى استقطاب أنتباه الحضور ، و قد ظهرت عليهم آيات الإصغاء ، فظهرت إبتسامة صفراء على ركن فاهيه ، و قد استطرد عبارته ، قائلا :

- من الجهل يا سادة أن نفترض الضعف فى خصمنا ، حتى لو كان كهلا ، هرمًا ، بلغ من العمر أرزله ، فوهن البدن لا يمنع قوة اللسان والعقيدة ، فمن وهن عظمه قوى قلبه .

قال أحد الحضور :

- ماذا تعنى بكلامك هذا يا سيد قيافا ؟

- عندما ذكرنا زكريا النبى ، الجميع استقصاه من النزال لشيبتهِ وهوان بدنهِ ، هذا و لصلب ولده مَن جاء عزيزًا عليه بعد حرمان عظيم هوًا فى نفوسكم لاستقصائهِ ، و لكن هل اعتقد أحدكم أن الشر كل الشر قد يكون من زكريا هذا ؟ .. فإن وهن ذراعه فلسانهِ حى ، مازال يخطب فى الناس ، مُحرضًا إياهم بهجر مجالسكم ، التى أصبحت حائلا بينهم وبين رب البيت ، و قد أشاع بينهم أنكم تتاجرون بالدين لنيل متاع الدنيا ، لماذا افترضنا أن صلب ابنه يحي سيُصبح معولا من المعاول التى ستنهل من صبره و حياته ؟ .. و قد يكون هذا هو الفتيل الذى سيُشعل

عداوته و عداوة أتباعه ضدكم ، لتقاعسكم لنصرتهِ فى نزالهِ ضد هيرود و رجاله ، يا سادة ألم نعى إصرار زكريا لكفالةِ مريم ابنة عمران ، عندما حطت علينا من الناصرة ؟ .. ألم نعى دفاعه عنها و عن يوسف النجار أثناء حملها المُفاجئ ؟ .. ثم اختفائها المُفاجئ ، و ظهورها المُفاجئ و معها شاب فتى تقول إنه عيسى ، ملك اليهود المُنتظر ، الذى قال عنه موسى فى صحفهِ ، ألم يشر ذلك إلى شئ هام و خطير ؟

قال صدوقيا بحماسةٍ من ُختل و أراد الإنتقام ممن ختله :

- لقد صدق السيد قيافا ، إن الشر كل الشر من زكريا ، و لن استبعد كونه مُدبر هذه المؤامرة ، و من حاك خيوطها ؟

قال آخر :

- يجب أن نتخلص منه حتى يخلو لنا وجه الجليل .

ضحك حنان ضحكة سخرية ، و هو يتقدم ليتوسط القاعة ، و هو يقول بثقةِ مَن مَلك زمام القتال فى حرب ضروس :

- إن التخلص منه مُباشرة سيجعله شهيدًا لدى أتباعه ، الذين سينالوا منكم واحدًا تلو الآخر دون رحمة أو شفقة .

- و ما العمل سيد حنان ؟

- نزع القدسية عنه ، و عن أفعاله التى يأتى بها ، أظن أنكم استوعبتم مقصدى .

- أتقصد أن نلقيه بالسحر ؟

قال حنان مُستطردًا عبارة الرجل :

- بل و بالتجديف إيضًا ، حتى يستخرج رجال الدين و كهنة بيت

الرب مرسومًا بصلبهِ لتعديه على الرب .

قال الجمع :

- نعم ، و نعم الرأى رأى السيد حنان .

قال كبير الفريسيين :

- و بهذا نتخلص من زكريا و نبوته ، و قد أراحنا هيرود من يحي ، و لكن ماذا عن عيسى .. هل نقتله هو الآخر ؟

عمد قيافا إلى باب القاعة ، هامًا بفتحهِ و هو يُردد :

- اسمحوا ليَّ يا سادة باستقبال أحد تلاميذ عيسى ، الذى سيفضى لنا ببعض أخباره .

دلف رجلٌ مُتشح بالسواد ، و قد بدا عليه التوتر و هو يُحدق فى العيون التى تبصره ، و قدمه تتقدم خطوة و تتراجع أخرى ، حتى حسم توتره أثر دعوة قيافا له بالمكوث بين سادة الجليل ، على حين قال صدوقيا مُرحبًا به بصوتهِ الرزين :

- مرحبًا بك يا سيد ... ، ما اسم السيد ؟

- أرجو أن أعفى من هذا السؤال ؟

حدق صدوقيا فى عينى الضيف ، التى بدت حائرة ، و هى تحاول أن تهرب من نظراتِ المُحيطين به ، على حين قال الأول فى حسم و نبرات صارمة :

- نحن لم نعتاد التحدث مع مجهول الهوية ، و إن كنت لا تثق بسريةِ جلستنا هذه فلترحل غير آثم .

- لا .. لم أقصد أن أطعن فى أمانةِ و مصدقيةِ كهنة بيت الرب ،

التى شرفت بهم إسرائيل ، ولكن ... يهوذا ، اسمى يهوذا الأسخربوطى .
قال كبير الفريسيين :

- لقد قال السيد قيافا إنك أحد تلاميذ عيسى الأثنى عشر .
- بلى يا سيدى .
- ماذا عندك يا سيد يهوذا عن مُعلمك عيسى ؟

بدت كلمات يهوذا الأسخربوطى شحيحة و هو يقص مآثر عيسى ومُعجزاته التى ذاعت بين الناس ، لتراود أحلامهم الموعودة فى عودة إيليا مُخلص اليهود ، و كم كانت نفوسهم تشتاق لظهوره ، فاستجابوا له فور سماعهم عن معجزاته ، بينما انفرط عقد إصغاء الكهنة له ، و قد رسمت آيات الضجر خطوطها على وجوههم ، و قد قال صدوقيا فى ضجر ، قاطعًا عبارات يهوذا :

- أعتقد أن السيد قيافا لم يأت بك إلى مجلسنا لتقص علينا مآثر ذلك الناصرى عيسى بن مريم ، و تقبل الناس لمعجزاتهِ ؟

ابتلع يهوذا كلماته ، و ارتد فى مقعده آثر خشونة صدوقيا ، الذى لاحظ ما حل بالأول فعدل عن أسلوبه ، و هو يقول بنبراتٍ هادئة :

- سيد يهوذا نود معرفة أهم أخبار عيسى بن مريم التى قد تهدد أمن مملكة إسرائيل أو اليهود و اليهوديين .

بدا على يهوذا آيات الجهل و عدم الفهم ، و قد جحظت عيناه و فغر فاهه ، على حين مال كبير الفريسيين عليه ، هامسًا له :

- إن كهنة الجليل يشكون أن الماثل بينكم ، و يدّعى إنه مُخلص اليهود ليس بإيليا ، و إنما هو ساحرٌ أثيم ، جاء بسحره ليفتن السُذج ،

وينال من خيراتكم ما يجعله من عليةِ القوم ، لذا نود سماع أخباره منك .
ظل يهوذا على وضعهِ الأول ، و قد غلفه الصمت بعباءتهِ ، و هو يعقل ما سمعه من كلماتٍ جد خطيرة ، و قد انهالت عليه الأسئلة التى عجز عن الإجابة عليها ، و ما كان لها إلا أن تثير الشك بداخلهِ نحو عيسى :

- إن لماذا ؟

- إنه يقول إن ربه سيخط له ألواح كما خطها لموسى من قبل .

- عيسى سوف يختلى بنفسهِ فوق إحدى الجبال فترة ليست بالقصيرة

انتفض حنان و هو يُردد :

- أرأيتم ، إنه يُجدف على الرب ؟

قال صدوقيا سائلا يهوذا :

- سيد يهوذا ، لماذا اخترت أن تتعاون معنا ضد مُعلمك ؟

- لقد كنت من اليهود الذين يواظبون على حضور مجالس السيد صدوقيا و غيره من كهنةِ بيت الرب ، حتى قابلت عيسى و جعلنى أسلم له ، و منذ ذلك الحين و أنا أتبعه ، ظانا إنه يتبع ناموس موسى ، و قد جاء مُتممًا له ، و لكن منذ حادثة مريم المجدلية ، التى أتى بها الكهنة الفريسيون و قد أمسكوها فى وضع الزنا ، لمست فى عيسى الشطط عن ناموس موسى ، عندما أفلتها دون عقاب ، أدنى عقاب ، و ما زاد شكى انها بعد ذلك لم تفارق عيسى طيلة نهاره و ليله

- ألم أقل لكم ، إنه يبغى متاع الدنيا .

- يجب التخلص منه .

- يجب أن نقتله .

-١١-

ج

جن الليل ، و قد نشر عباءته السوداء المُرقعة بالنجوم ، و قد بدت قلعة ماكيروس كوحش رابض على ربوتهِ ، و قد غلف السكون أركان القلعة ، ليُعلن الصمت نصره ، لولا حفيف الأشجار ، و نقيق الضفادع ، و خرير مياه الجدول ، الذى يعبر بالقلعةِ .

كانت القلعة بكل ما فيها عبارة عن لوحة جامدة ، توحى خطوطها بالرعب و الخوف الذى يسرى فى الأوصال ، لولا تلك الأقدام الموتورة ، التى تحاول أن تتحسس دربها ، و قد بدا على صاحبها الخوف ، و هو يُحاول أن يستتر بظلمةِ الليل ، مُستغلا غفلة قاطنى القلعة .

- لقد تأخرتى عن موعدك يا هيروديا س ، لقد انتظرتك طويلا .

- عذرًا يا أجمنتوس ، لقد انتظرت حتى نامت الجوارى .

ارتمت هيروديا س فى أحضان أجمنتوس ، الذى ألهب وجهها و شفتاها بالقبلات الحارة ، وهو يُردد بحروف تزاحمت مع مشاعره المضرومة :

- لقد طال شوقىَّ لك ، و أنا أراك كل يوم ، و ألمس أنفاسك و لا استطيع أن أنالك .

- كم أفتقدك كثيرًا يا أجمنتوس .

نفرت هيروديا س فجأة من حضن أجمنتوس ، كأنها تذكرت شئ مُفاجئ ، على حين قال هذا الأخير مُستنكرًا ما أتت به الأولى ، و قد ساوره الشك :

- ماذا هناك ؟

- ما جئت اليوم إليك لكى نتسامر .

لانت ملامح أجمنتوس بعض الشئ ، و هو يُحاول إعادة هيروديـاس لأحضانه ، و قد أبت هذه الأخيرة أن تنصاغ له ، و هى تردد :

- لقد جئت إلى هنا لأمر جد خطير ، له أن يجعلك ملك هذه البلاد .

- ماذا ؟ .. و هيرود ؟

- هذا ما جئت من أجلهِ ، يجب أن نتخلص منه ليؤول العرش لىَّ ولابنتىَّ سالومى .

- و ماذا عنىَّ ؟

- سوف تعتلى العرش بجوارى ، لتكن أنت مَلك البلاد و ربها .

برقت عينا أجمنتوس على الرغم من السواد الذى يُغلف الدنيا ، و قد لاحت إبتسامة جذلة على ركن شفتيه ، كمن سره أن يرى نفسه يجلس على العرش ، و التاج الذهبى يعتلى رأسه ، و الكل يسجد أمامه ، فقال فى حماسةٍ تدل على إنجذابهِ لما رمت له هيروديـاس :

- و كيف سنقضى على هذا الداهية ، و قد خشى الموت أن يحصد روحه ؟

- ما فشل الموت فى حصاده سوف تحصده أنامل هيروديـاس .

و ألتقمت أذناه انهت هذه الأخيرة كلماتها ، و لكنها لم تنه اللقاء ، وجذبها أجمنتوس نحوه ، و هو يقول :

فى شراهةٍ ، لتصب فيها كلماتها المسمومة ، لتغزو عقله ، و تلقى هوًا فى نفسهِ ، و قد عبرت آيات وجهه عن موافقة لما خططت له هيروديـاس للتخلص من هيرود .

- لقد اشتقت إليك ، ألم نتفق على مخططك ؟

- بلى .

- إذا فدعينا نبرم العقد قبل شروق الشمس .

ثم أخذت أصابعه تجردها من ملابسها ، التى استجابت فى سهولةٍ و يسر ، ليعتليها و يدمى خاتميها ، بعدما نال عُسيلتها ، و قد بدت تأوهاتها النشوانة هادئة ، لم تنفض الصمت الذى يُحيط بهما من معقلهِ .

و من بعيد ، كان هيرود يُبصر حرارة اللقاء من شرفتهِ ، و قد شعر بما يضمره أجمنتوس قائد جيشه بالتعاون مع هيروديا‌س ، فقد ضمر فى نفسهِ أن ينال منهما قبل أن يغتالا مجده ، الذى فشل الموت فى القضاء عليه .

* * *

التف عشرات العامة حول بعضٌ من كهنةِ الجليل ، و كان على رأسهم صدوقيا و قيافا و حنان ، و قد سكنوا ركنا قصيًا من السوق ، و قد ألتهبت ألسنتهم بالتعدى على زكريا ، و التشكيك فى نبوتهِ ، و تسفيه أعماله و مُعجزاته ، و أصبح حالُ العامة ما بين مُستنكر لما يسمعه أو مُكذب ، و لكن إجماع معظم الكهنة على أن زكريا أبعد ما يكون عن النبوة ، و إنه ساحرٌ و مُجدفٌ يبغى حصاد الشهرة و المال زرع الشك فى القلوب ، التى توجست خيفة من نتائج الصراع بين كهنة الجليل وبعضهم البعض ، و خشيتهم من الإفراط فى الإساءة لنبى الرب فيضلوا ضلالا مُبينا .

قال صدوقيا بصوتهِ الرخيم ، الهادئ مُخاطبًا العامة :

- يا أخوتىَّ فى الناموس ، و عزوتىَّ فى الدنيا ، لقد عهدتم فىَّ

صدق القول ، و دقة التحرى و الفعل ، و ما نطقت يومًا فيكم بالهوى ، الحق أقول لكم أن السيد زكريا قد ختلنا جميعًا نحن كهنة الجليل ، و قد دخل علينا بسحره و سئ أعماله مُستغلا نبوءة موسى بقدوم نبى من بيت داود يستكمل رسالته و يُتمم ناموسه ، و ينتشل بنى إسرائيل من نير الظلم و الجهل و الوثنية ، ليُعلن نفسه ذلك النبى المُنتظر ، مُستغلا أن زوجه من بيت داود ، و قد سعى بينكم بحلو كلماته و سحر أفعاله ، فخدر العامة و ختل الخاصة ، فانسقتم خلفه و ضللتم طريق الصواب .

ساد الهرج و المرج بين العامة ، و الكل يستنكر ما يسمعه من خصال ضلت سبيلها عن زكريا ، و كهنة الجليل يُحاولون إلصاقها به ، فأخذت الكلمات المُستنكرة و العبارات المُنددة بما يفعله الكهنة تصم الآذان ، على حين قال أحد المُتجمهرين مُدافعًا عن زكريا ، و مُشيرًا بأصابع الإتهام نحو صدوقيا ، قائلا :

- فى إحدى أيام السبت الغابرة ، و على منبر مثل الذى يرتقيه كهنة الجليل الأن خرج علينا السيد صدوقيا بوجهٍ بشوش ، و بصحبتهِ رئيس كهنة بيت الرب ليُعلن لنا أن السيد زكريا هو ذلك النبى المُرتقب كما أشارت التوراة ، و أن هذا الأمر لم يُعلن إلا بعد فحص و تمحيص دقيق فى دلائل و آيات التوراة دام أيام و شهور ، فلماذا تنكرون نبوته الأن ، و تتهموه بالتملق و السعى خلف النبوة و السيادة ؟

قال آخر :

- إن السيد زكريا دون كهنة الجليل كان يُعادى هيرود و أتباعه مُدافعًا عن حقوقنا ، مُعرضا حياته للخطر ، فلماذا تجردوه الأن من

خصال عز وجودها فى زمننا هذا ، حتى فى كهنةِ الجليل ؟
تحجرت أعين كهنة الجليل فى مآقيها و هم يصغون لعبارات العامة المُتعاطفة مع زكريا ، و قد سكن لسان صدوقيا فى حلقهِ ، عاجزًا عن الكلام ، على حين قال قيافا بلهجةٍ من شارف على الهزيمة خاطبًا :
- يا أخوتىَّ فى التوراة ، إن ما اقترفه السيد زكريا أعظم من كونهِ أدعى النبوة ، أو ختل كهنة الجليل ليسكن بيت الرب ، إن السيد زكريا سعى لتبديل الثوابت فى ناموس موسى و تغييرها ، مُجدفا على الرب ونبيه .
زاد الهرج و المرج ، و قد تعالت العبارات المُستنكرة ، المُدافعة عن زكريا ، على حين استطرد قيافا ، قائلا :
- يا أخوتىَّ فى التورا ة ، نحن كهنة بيت الرب لا نسعى لكسب عداوة السيد زكريا إلا غيرة منا على التوراة ، التى نبغيها دربَ حق بيننا و بين الرب ، فكيف يتسنى لنا أن نترك من يعبث فيها و يشرع لخرابها ، و لن ...
ابتلع قيافا عبارته على أثر صيحةٍ نصر دوت من حنجرةِ أحد المُتجمهرين ، و هو يُشير نحو شبح بدى فى الأفق يتمخطر الهوينى ، بخطواتٍ ضيقة لا تكاد تبرح الأرض ، قائلا :
- ها هو السيد زكريا يسعى فى الطرقاتِ عبوسًا حزينا .
سعى بعض الفتية نحوه ، مُخبرين إياه بما أتى به الكهنة من إتهامهِ بباطل التهم ، على حين جحظت أعين الكهنة و هم يُبصرون زكريا يتجه نحوهم ، بتلك الخطى التى أثقلها الحزن على فقدان يحي ، و ذلك الوجه

الذى فقد نضارته ، و قد خط التجهم آياته ليبدو شديد السواد ، و قد شارفت عيناه أن تثمل من شدة البكاء .

- يا سيد زكريا ، ألست نبيًا مُرسلا من عند رب موسى ؟

ألقى أحد المُتجمهرين هذا السؤال على مسامع زكريا ، الذى قال بصوتٍ هادئ ، هامس ، يكاد يُسمع :

- بالحق بُعثت ، أن اقضوا قضاء الحق ، و اعملوا إحسانا ، ورحمة كل إنسان مع أخيه ، و لا تظلموا الأرملة و لا اليتيم و لا الغريب ولا الفقير ، و لا يفكر أحد منكم شرًا على أخيهِ فى قلبكم .. هكذا بُعثت .

قال الآخر :

- ونحن لم نعهد فى السيد زكريا السعى خلف السلطة وجمع المال .

قال زكريا :

- لقد رضى أنبياء الرب و رُسله بوبر الأغنام لباسًا ، و بفقير الدسم طعامًا ، و بقليل الماء شرابًا ، فكيف لنا أن نستشرى مالا أو سلطانا ؟

بدا الكهنة كأنهم تماثيل حية تتسمر فى مكانها كالمسمار ، لا يستطيع أحدٌ منهم أن يبرح مكانه أو ينبس ببنة شفة ليدرأ الفشل عنه ، حتى استطاع حنان أن يتغلب على حالةِ الذهول التى احتلت وجدانه ، ليقول بحروفٍ مُتقطعة ، و نبرة واهنة فشلت فى إقناعهِ بجديةِ و صدق ما يقول ، مُوجهًا عباراته لزكريا :

- يا سيد زكريا ، أنت مُتهم من قبل كهنة الجليل بمُحاولةِ العبث بالتوراة ، و التغيير فى ثوابتِ ناموس موسى ، الذى حمله عن الرب ليهدى به شعبه المُختار ، و أمام هذا الجمع الغفير نتهمك بالتجديف

و التعدى على الذات الآلهية .

لم ينبس زكريا بحرفٍ واحد ، على حين تعالت صيحات العامة المُدافعة عن الأول ، و التى تطالب بالبرهان ، على حين بدا على حنان السكون ، و لكن من ينظر بداخلهِ يجده كالبركان ، الذى يثور فى حدة باحثا عن دليل يُدين به زكريا ، لينقلب نصره لهزيمةٍ تفقده حب العامة ، و تقلل من شأنهِ .

- كلنا يعلم أن الرب أشار فى كتابهِ التوراة إنه خلق الإنسان من تراب الأرض ، و اسكنه جنات عدن فى السماء ، حتى كان من أمر سقوطهِ و عصيانهِ عندما نال من ثمار الشجرة المُحرمة ، فطرده الرب من جناتِ عدن ليعود للأرض مرة ثانية .. أليس هذا ما أشار إليه الرب فى كتابهِ حيث يقول .. [ها الإنسان قد صار كواحد منا ، يُميز بين الخير و الشر ، و قد يمد يده و يتناول من شجرة الحياة و يأكل ، فيحيا إلى الأبد ، فأخرجه من جنةِ عدن ليفلح فى الأرض التى أخذ من ترابها] ؟

انهى حنان عباراته المُسهبة ، مُنتظرًا تجاوب العامة معه ، و لكنه لم يجد منهم سوى الصمت المُطبق ، الذى نضح على وجوههم بالدهشةِ و الجهل بما يرنو إليه الأول ، فما كان من حنان إلا أن وجه عبارته المُستفسرة لزكريا :

- ما رأى السيد زكريا فيما قلت ؟

- إن ما ترمى إليه يا سيد حنان لهو عيبٌ على واحدٍ من كهنةِ الجليل ، فما عهدت فى رجال الدين شيمة الوقيعة و قتل باب الإجتهاد فى

الدين ، و مع هذا سأجاريك فيما تسعى إليه .

- لا إجتهاد فى ثوابتِ الدين يا سيد زكريا .

- إن الرب قد خلق السموات و انتهى من خلقها ليخلقَ الأرض ومن عليها ، و قد خلق الإنسان عليها ليحيا بها دون السماء ، حيث يقول .. [لنصنع الإنسان على صورتنا ، كمثالنا ، فيتسلط على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، و على الأرض ، و كل زاحف يزحف عليها] ، وما ذكر من سمك البحر ، و طير السماء ، و حيوانات البرية لا توجد إلا على الأرض ، و الأرض وحدها ، لأننا نعلم أن الجنة قد خلقت للصالح من البشر دون سائر الكائنات ، فكيف لنا أن ندّعى أن الإنسان الأول قد سكن جنات السماء ؟

قال واحد من العامةِ :

- يا سيد زكريا ، ماذا عن قول الرب .. [و أخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليفلحها و يعتنى بها] ؟

ابتسم زكريا و هو ينظر السائل بعين بهتت فيها سعادة الإجتهاد فى تعليم الآخر ، و قد قال بثغر بشوش :

- ها أنت قلتها يا بُنى .. [ليفلحها و يعتنى بها] ، و هل الرب عاجزٌ أن يفلح جنته و يعتنى بها ، و هو من يقول للشئ كن فيكون ، إلا إذا كان الأمر وكالة منه للإنسان أن أعمل و أعرق لتكفر عن ذنب عظيم ، و هذا يُخالف ايضًا وصف الرب لجناتِ السماء حيث النعيم و الحياة الرغدة ، حيث يعز على الإنسان النوم من فرط السعادة و الغبطة .

قال حنان بنبرة من حصد النصر :

- إذا أين تقع جنة عدن يا سيد زكريا ؟
- فى الأرض .

قال قيافا صائحًا :

- ها أنتم قد سمعتموه يُجدف على الرب ، ها أنتم قد سمعتموه ينسخ قول الرب فى خلق جنات عدن ليُخرب العقول .

تعالت همهمات العامة ، و قد انقلبت سحناتهم ، و قد انقلبوا على بعضهم البعض ، فمنهم من عزى شطط زكريا لصدمةِ فقدانه ابنه يحي ، و منهم من بقى على عهده به و طالب بسماع دلائله و براهينه ، على حين لاذ زكريا بالصمتِ المُطبق ، و عيناه تجول فى وجوه من حولهِ ، على حين تمالك صدوقيا رباطة جأشه بعدما انقلب الحال ، و أخذ يدعو الناس للصمت والهدوء ، داعيًا زكريا لاستكمال حديثه ، و قد قال هذا الأخير :

- إن الرب يقول .. [و أقام الرب الإله جنة فى شرق عدن ووضع فيها آدم الذى جبله ، و استنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة بهية للنظر ، و لذيذة للأكل ، و غرس أيضًا شجرة الحياة] ، و هنا يُشير الرب أن الجنة التى طرد منها آدم لم تخلق إلا بعد خلق الأرض ، و هذا يُخالف قوله .. [فى البدء خلق الله السموات] ، و من جانب آخر فاستنبات الرب شجر يُشبه شجر الأرض فيه نفى عظيم أن هذه الجنة تسكن السماء ، فإن ما فى السماء أشمل و أعم مما يَسكن الأرض ، فإن كانت الجنة تسكن السماء فكان من الأحرى أن يُقال .. [و استنبت الرب الإله من السماء كل شجرة بهية للنظر] .

قال واحد من المُتجمهرين الثائرين :

- إذا أين تقع جنة عدن التى وعد الرب بها شعبه المُختار بنى إسرائيل ؟

- يا أخوتىَّ فى التوراة إن عدن ما هو إلا سهل عظيم يبرح الأرض منذ خلقها ، و كلمة جنة هى تعظيم لكلمةِ جُنينة ألا و هى الحديقة ، فتكون الحصيلة أن آدم قد سكن حديقة غناء على الأرض ، و عندما أراد الرب أن يُعاقبه على سقوطهِ و عصيانهِ أخرجه منها حيث العناء والتعب فى كسب طعام يومه ، و تلافى شرور خلق الأرض ، أما الهبوط فكان هبوطا فى المكانةِ و ليس المكان .

ضحك واحد من العامةِ بشكل هستيرى ، و هو يقول مُرددًا :

- أنتبعك أنت و من يدّعى النبوة على مر العصور منذ إبراهيم و إسحاق ، و نمتثل لأوامركم و نهتدى بخطاكم ضد الرومان و غيرهم من المُعتدين من أجل حديقة غناء .

قال آخر مُستهزءًا :

- أنا أملك حديقة أجمل من تلك التى وصفتها ، فهل بهذا أكون خالدًا لأمتلاكى جنتىَّ ؟

و عند هذا الحد جاء دور كهنة الجليل فى إشعال جذوة تهمة تعدى زكريا على التوراة ، و إتهامه بالتجديف ، و مُطالبتهم بسفكِ دمه ، و أخذت الأصوات تعلو ، و خبر زكريا يستشرى بين الناس بسرعةٍ ، كأنه النيران التى ترعى فى الهشيم ، و حزن زكريا على ولده و مُصيبته فى الناس ، جعلاه طريح الفراش ، سلواه إهدار الدموع الملحية ، و دعوة الله بهدايةِ من ضل سبيله من الناس .

* * *

أخذ القلق ينهل من سالومى ، و سوء التوقعات يحتلها أسوء إحتلال ، والشك يتلاعب بها كما يتلاعب الطفل الصغير بكرتهِ ، خاصة بعد إعدام أنصار يحي ، الذى إن دل فيدل على فشل هذا الأخيرُ فى إنقاذهم ، وكان لغياب أمها هيروديياس ، و عزلها عن العرش ، و إيداعها مخدع النساء آثره السئ فى نفسها ، لتصبح تلك القشة التى قسمت ظهر البعير ، فآثرت العُزلة فى مخدعها ، و قد عفت نفسها عن الطعام و الشراب ، إلا النذير الذى يُقيم رمقها ، و التى تدفعه لها وصيفتها الخاصة ، التى تحاملت ثورتها و تصلفها ، الذى يتحول فى بعض الأحيان إلى قذفٍ وتعدى بالمقال و الفعال .

كان إحساسها بضياع يحي مرة ثانية يدفعها للبكاء ، الذى كان يُروض عقلها و خلاياها الرمادية للأنصياغ لصوتِ شيطانها ، الذى كان يدفعها للأنتحار ، لعلها تلقى يحي اللقاء الأبدى ، الذى لا فراق بعده ، و لكن نداء القلب كان يردها لواقعها ، و يُبشرها أن يحي مازال على قيد الحياة ، و لكنه يأثر العُزلة حزنا على ندمائهِ ، و إنه يُبادلها العشق ، و سوف يعود لها مرة ثانية ليُطارحها الغرام ، خاصة بعد ما بدر منها حياله فى السجن ، فكانت تسعد لهذا الخاطر ، الذى لقى هوًا فى نفسها ، لتجد الإبتسامة دربها لشفتيها المُتيبستين ، فتنهض من مرقدها ، لتضاجع ذلك المقعد الذى يرقد أمام مرآتها ، و تداعب مساحيقها بأصابع فرحة ، و قد سعت لغزو أيات الحزن التى تفترش وجهها ، لتبدلها لغبطةٍ و سعادةٍ بينة ، يدفعها لها ترقبها عودة يحي ، ليجلس على الربوة التى تسكن أمام

شرفتها ، ليعزف على الناى أعزب ألحانه التى يطرب لها قلبها ، و لكنها كانت تفوق من أحلامها على واقع أمها ، فكان ينمو بداخلها شعورٌ عظيمٌ بالإنتقام من هيرود ، و إذلال ناصيته إكرامًا لها .

* * *

ساء حال الناس فى إسرائيل بعدما انتشر ما كان من أمر زكريا و كهنةِ الجليل فى السوق ، فأصبح لسان حالهم التمرد و العصيان على كل ما هو صواب ، فاستشرت جرائم السرقة بين الناس ، و أصبح التحرش بالفتيات و الإغتصاب سُنة الرجال ، فركدت التجارة و بارت السلع ، وأغلقت الحوانيت ، فبدت إسرائيل كأنها أطلالٌ يُحيط بها الخراب من كل صوب كما يُحيط السوار بالمعصم .

سعى تلاميذ زكريا المُخلصين ، و أتباع يحي المُقربين ، و حوارى عيسى المشهود لهم بين الناس ، ينصحون إياهم بطيب الأفعال ، مُحاولين ردهم لطريق الصواب الذين حادوا عنه ، فتوغلوا فى مجالسهم ، و سمعوا شكواهم ، و طربوا لآلآمهم ، اسدوا النصائح ، و عملوا على إعادة الثقة بالكهنةِ و رجال الدين .

كان لأرميا دورًا عظيمًا فى دعوة الإصلاح ، فكان قليلا ما تهدأ سريرته ، و يهنئ باله ، فقد نذر نفسه و ماله لخدمةِ التوراة ، و زكريا نبى الرب المُنزل ، فكان يسعى بين الناس ناصحًا مع شروق الشمس ، و لا تخمد جذوته إلا مع غروبها ، ليعمد بعد ذلك لبيت زكريا العليل ، الذى سكن الفراش ، ليطمئن على حالهِ ، و يُطمئنه على حال الناس ، ليجد الحزن قد خيم على الدار ، و قد احتل وجه و قلب إليصابات ، التى ثملت عيناها

من شدة البكاء على حال زوجها و ابنها ، و قد شاركها مراثيها مريم ابنة عمران ، التى صعب عليها حال خالتها ، و ما ألم بها ، و مريم المجدلية ، التى اقسمت بعدم مُفارقة عيسى بعدما نصرها على كهنةِ المعبد ، وبعد رحيله لخلوتهِ لم تبارح مريم ابنة عمران أينما ذهبت ، فرَق قلبها لحال زكريا .

و ذات مساء ، ألتف الجميع حول مضطجع زكريا ، الذى كان يغط فى ثباتٍ عميق ، و قد كان الصمت المُطبق و السكون لسان حالهن ، حتى قطعته بعض الآنات و الهمهمات التى صدرت من زكريا لتسرق إنتباههن ، و قد لمسن أن زكريا قد مسه حلم فى منامهِ ، فأخذن يُراقبن ملامح وجهه من إنقباضاتٍ و إنبساطاتٍ لم تطل طويلا ، ليُخيم الصمت مرة آخرى على المنزل ، وقد هدأت سريرة النسوة ، وقد ظنن أن زكريا عاد لغفوتهِ مرة آخرى .

- إن يحي سيطرق الباب .

بدت عبارة زكريا واهنة ، و لكن كان لها مفعول السحر على آل البيت ، فقد انطبعت إبتسامة واهنة على الوجوه ، التى اقتربت من المضطجع ، و قد قالت مريم ابنة عمران :

- حمدًا لله على سلامتك يا سيد زكريا .
- يحي قد عاد ، إنه سيطرق الباب .

بدت عبارة زكريا عجيبة ، فتبادلت النسوة نظرات الدهشة فيما بينهن ، على حين سعت إليصابات تجس حرارة زوجها ، بأن وضعت راحتها على جبينهِ ، ثم قالت :

- يبدو إنها الحمى .

لم تكد تتم إليصابات عبارتها ، حتى دوى قرع هين على الباب ، فارتعش جسدها فجأة ، و قد خامرها إحساسٌ كاذب بأن نبوءة زوجها ستتحقق ، لتجد ابنها أمام باب الدار ، فأسرعت نحو الباب مُهرولة بقلبٍ يملؤه اللهفة ، و عين اشتاقت نظراتها لحضن الغائب .

- كيف حالك يا سيدتيَّ ، و كيف حال السيد زكريا ؟

- بخير حال يا سيد أرميا .

دلف أرميا ، ليجلس على مقعدٍ سكن بجوار مضطجع زكريا ، و عيناه لم تفارق وجه هذا الآخير ، الذى ابتسم إبتسامة واهنة ، و هو يُردد :

- بارك الله فيك يا أرميا .

ربت أرميا على كفٍ زكريا الممدودة جواره ، و هو يقول :

- يا سيد زكريا ، أدعو الله أن يشفيك من دائك فتمثل للشفاء ، فما سمعنا عن دعوة نبى يردها الله .

- إن مرضىَّ من عند الله ، فلماذا أعترض بدعائىَّ على مشيئته ، ومع هذا فدوائىَّ فى عودة يحي ، سيد أيام عمرى .

عانقت عينا أرميا الأرض ، حاسبًا زكريا يهذى من الحمى ، فقد انتشر بين العوام و الخواص خبر مقتل يحي على يد هيرود ، و قد حسبه الناس شهيدًا ، على حين قرأ زكريا ما يجول فى رأس أرميا ، فضغط على راحتهِ مُرددًا :

- أعلم ما يدور بخلدك يا بُنى ، و لكن يحي لم يمت ، لم يُقتل على يد هيرود ، لقد زارنى ملاك الرب جبريل فى منامىَّ و بشرنى أن يحي

مازال على قيد الحياة ، و سوف يدُق بابىَ اليوم .

نكصت عينا أرميا أن تبقى على حالها ، فرقت بدموعها ، على حين أبتسم زكريا ، و هو يُردد :

- أتعلم يا أرميا أن بك من خصال الأنبياء الكثير ؟

- هذه شهادة أعتز بها يا سيد زكريا ، أما النبوة فأمر شاق على مَن يحملها ، و تحمل متاعب الآخرين و عداواتهم خصلة لا أحسبنى من أهلها .

عند هذا الحد دوت عدة طرقات هينة على الباب ، تسمر على آثرها الجميع ، و قد علقت العيون على الباب ، على حين قال زكريا بصوتٍ واثق مُخاطبًا زوجه إليصابات التى بدت مشدوهة :

- هذا ولدك يحي يطرق الباب .

تخشبت إليصابات فى مكانها ، و قد تسمرت نظراتها بالباب ، غير مُستوعبة كلمات زكريا ، على حين استجابت مريم المجدلية لإلحاح الطارق .

- إنه يحي يا سيد زكريا .

أبصرت إليصابات ابنها يحي ، بحالتـهِ المزريـةِ ، و ثيابـهِ المُهترئـةِ ، والدماء الجافة التى تفترش وجهه ، فلم تستطع استيعاب سعادتها فسقطت على الأرض مغشيًا عليها .

* * *

بدت خطوات هيرود ثقيلة ، واثقة ، و قد بدت هامته مُنتشية و هو يخطو نحو ذلك المخدع ، الذى تسكنه الجوارى و سبايا الحرب .

تسمرت النسوة فى مكانهن عندما شاهدن هيرود يتسمر عند مدخل المخدع ، فمن كانت تضحك ، كتمت ضحكتها فى صدرها ، و من كانت تلهو تخشبت فى موقعها ، و من كانت تهم بإرتداء ثيابها ، اسقطت ثوبها ليبدو جسدها العارى مرتعًا للناظرين ، كما شخصت الأبصار و تعلقت به .

بدت عينا هيرود موتورة ، و هو يمسح بنظره على الوجوه باحثا عن بغيته ، حتى وجدها ترقد صامتة ، شاخصة فى ركن مُنزوى ، فلوح بأصبعهِ أن أخلو المخدع ، لتبقى بغيته وحيدة ، كالفريسة التى نال منها صيادها .

- لقد افزعت نساءك ، إنهن لم يعتدن منك أن تحضر إلى مخدعهن ، فكان سبيلك لتنال إحداهن أن تشير بأخمصك و أنت جالسٌ على عرشك ، فتضرب الدفوف و تسعى الجوارى يرقصن حولك عرايا ، حتى تشتهى إحداهن ، فتسكنها مخدعك ، لتنهل من عُسيلتها ما يُشبع رجولتك

لمعت عينا هيرود ، و قد لاح شبحُ إبتسامة على وجههِ ، و قد طفق يُصفق برفق و هو يُردد :

- ما هذه البلاغة يا امرأة ، أهى غيرة الأحباء أم آية من مكر النساء ؟

- لا هذا و لا ذاك ، و لكنه استنكار لما تفعله .

- لقد برحت عرشىَ ، و أتيت إلى هذا المكان الوضيع من أجلك أنت يا هيروديا ، لقد اشتقت لرؤيتك ، و توحشت مخدعىَ دونك .

- و لكنك أنت من أمر بوضعى هنا ، مع الجوارى و سبايا الحرب ،

لأعامل مثلهن ، فأصبحت كالغوانى لا هم لىَّ إلى الجلوس أمام المرآة لأتجمل ، لعل سيدى و مولاى هيرود يشتاق لمُخاتنة إحدانا .. أليس ما أنا فيه من صنع يديك ؟

أقترب هيرود من هيروديا و البشر يعلو وجهه ، و هم بمُداعبةِ عنقها بأنفاسهِ الحارة ، التى فتت فى مشاعرها ، فبدت عليها النشوة ، و هى تحاول التملص منه ، و الإنزواء عن مرمى يديه .

- لقد كان لصلب أرخيلوس بذلك الشكل الذى أقترفتيه أثر سئ فى نفسى ، فلم أتوقع أن ذلك الجمال الفتان يأتى بمثل هذه الضراوة والوحشية .

- هذا ما آلفته فيك يا هيرود ، القسوة فى المعاملةِ ، و الجبروت فى إتخاذ القرارات ، و سلب آدمية البشر ، و حب الذات و إمتاعها بكل ما هو مُحرم دون مُراعاة لمشاعر المُقربين منك ، و بعد كل ذلك تستنكر علىَّ ما فعلته حيال حماية عرشك من أطماع زوجك العربية ، و جنون ولدك فى الإنتقام و الخلاص منك ، و الإستيلاء على مُلكك .

انقلبت سحنة هيرود ، و ذاكرته تستجيب لكلماتِ هيروديا ، التى فرغت منها ، تاركة العنان لدموعها التى انسابت على خديها صانعة الأخاديد الرقيقة ، على حين رق وجه هيرود ، ليمثل أمام زوجه ، مُداعبًا وجهها بأناملهِ ، مُكفكفا دمعها ، و هو يُردد بصوتٍ حالم :

- دعينا ننسى ما فات من أيام أليمة عصفت بحياتنا ، و نستقبل بهيج ما ينتظرنا من مُستقبل مُشرق ، فالمال و الجاه ملك أيدينا .

- هلى لىَّ بسؤالك ؟

- سلى ما بدا لك .

- ما سر ما أنت فيه الأن ؟

- حبيبتىَّ .. لقد اشتقت لأنوثتك و دلالك ، و مُشاركتك إياى فى تطلعاتىَّ .. أتذكرين أيامنا الخوالى ، و ما أقترفته أيدينا من آثام ، و ما سفكناه من دماءٍ لكى نتنعم فى درب الهوى دون لائمة لائم ؟

ظلت هيروديا س على صمتها ، و قد بدا القلق و الإضطراب على نظراتها التى تجول يمينا و يسارًا دون هوادة ، على حين لثمها هيرود من فمها برقةٍ ، و هو يستطرد عبارته قائلا :

- و الأن حبيبتىَّ دعينا نضنع عهدًا جديدًا لا يسوده سوى الحب والغرام .

بدت كلمات هيرود قد نفذت ، خاصة بعدما عمد نحو شرفة المخدع تاركا هيروديا س مُتسمرة فى مكانها ، و لكنه ألتفت إليها بغتة و قد ألقى على مسامعها سؤالا بدا نشازًا مع نغم الحوار ، وقد بدت نبراته حادة ، جادة :

- ما رأيك بالخيانةِ عزيزتىَّ ؟

- لا أفهم ما ترنو إليه .

- لا عليك .. تعال إلىَّ حبيبتى لتشاهدى ما أعددته من أجلك .

دنت هيروديا س من هيرود ، الذى ثبت نظره نحو نقطة ما خارج المخدع ، بدت ساكنة فى الساحةِ التى تفضى عليها الشرفة ، على حين دفع الفضول الأولى لتبصر ما أعده هيرود من أجلها ، لتندى منها شهقة فزع ، حاولت تحاشيها بكفها الذى سكن أعلى فمها ، و قد جحظت عيناها ، و أرتفع حاجباها ، و هى تبصر جثة أجمنتوس قد دُقت أعلى

صليب عال كاد يُعانق السماء ، و قد توسط باحة القصر ، و قد شوه جسده العارى ، الذى حطت عليه الطيور الجارحة ، لتنهش من لحمه ما يروق لها .

لم تستوعب هيروديـاس فاجعتها فى أجمنتوس ، فسقطت على الأرض مغشيًا عليها ، و لسان حالها يتساءل .. هل علم هيرود ما دبرته مع أجمنتوس للتخلص منه و الاستيلاء على العرش ، و هل تخلصه من هذا الاخير هو بداية إنتقامه منها جزاء خيانتها ؟

-١٢-

داخل بيت الرب ، مخدع قيافا و حنان ، اجتمع الكهنة و رجال الدين ، و قد علت أصواتهم ، التى تداخلت مع بعضها البعض فى عشوائيةٍ ، فبدا المخدع كأنه سوقٌ للعامةِ ، كلٌ فى ملهاتهِ يسعى ، حتى نادى فيهم قيافا بألتزام الصمت ، و مع مرور الدقائق القليلة ساد الهدوء ، فارشًا جنبات المخدع ، و قد سكنت الإبتسامات الشفاة ، لتبدو السعادة على الوجوه الصامتة ، على حين قال أحد الحضور من الكهنةِ مُستغلا الهدوء :

- أين السيد حنان لِيُشاركنا فرحتنا بالتغلب على زكريا النبى سيد قيافا ؟

قال آخر :

- نعم ، فمنذ جلسنا و نحن نلاحظ غياب السيد حنان ، هل يتغيب المُضيف عن ضيوفه سيد قيافا ؟

بدا التوتر على قيافا ، و هو يلتفت حوله باحثا عن حنان فى وجوه الحاضرين ، كأنه لم يلحظ غيابه من قبل ، فقال بحروفٍ تجهل هويتها :

- لقد اختفى منذ الصباح الباكر على غير عادته ، و لم يُشاهده أحدٌ حتى الأن ، و لكنى لا أحسبه يتخلف عن مجلسنا هذا ، خاصة و اليوم سنتباحث فى كيفيةِ التخلص من السيد زكريا و أتباعه إلى الأبد .

- لعل فى غيابهِ خيرًا لنا و لأمة اليهود .

بدا الصمت يمخر سوسه بين الحضور مرة ثانية ، و قد بدا على قيافا ملامح الشرود و التوتر ، بعينيهِ الزائغتين ، و قد ساوره القلق لغياب

حنان غير المُتوقع ، و قد ظن أن أنصار زكريا قد تخلصوا منه نكالة لسيدهم و نبيهم ، ليبدأ إنتقامهم من كل مَن ساهم فى تكفيره و كسب عداوته ، و إنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من مرمى غضبهم ، ليلحق بصديقهِ و شريكهِ فى مُخططهِ الشيطانى فى هدم أواصر العلاقة بين الكهنة و رجال الدين و بعضهم البعض ، حتى يؤول حكم بيت الرب لهما إلى أبد الأبدين .

فاق قيافا من شروده على أثر صوت كبير الفريسين ، الذى بدا عليه التجهم و هو يستأذن فى الحديث ، و قد آذن له قيافا بنظرةٍ من عينيهِ فقال مُتنحنحًا :

- الكل يعلم مدى حرص الفريسيون على تعاليم التوراة ، و تطبيق تعاليم موسى فى أسفاره الخمسة ، التى نالها عن الرب فوق جبل الطور بسيناء مصر قبل التيه العظيم بدقةٍ مُتناهيةٍ ، دون النظر لبعض الأمور الشكلية التى يهتم بها الصدوقيون ، و التى كانت عاملا رئيسيًا فى الخلاف القائم بيننا نحن الفريسيون و الصدوقيون ، و نحن نعتز بكوننا ورثة عزرا الكاتب ، الذى ورّثنا التوراة بعد هلاكها ، لننشر هذه الأمانة بجد و حزم دون هوادة ، لذلك سعينا معكم فى إضطهادكم للسيد زكريا وأنصاره ، لما لمسناه فيه من شططٍ و تجديفٍ يُنزه عنه الأنبياء .

- يا سيد شمعون عليك برأس الموضوع إعمالا للوقت .

- استميحكم عذرًا فى إسهابىَ ، فالموضوع جد خطير .. إن أسفار موسى المكتوبة بها من الغموض و المُداراة ما يجعل العقل ينزح لمعانٍ غير صحيحة ، قد تشوه مقصد الرب فى ناموسهِ ، هذا و قد كان هناك

أمورًا يدعو لها موسى شفاهة بين أتباعه و حواريه لم تنص عليها أسفاره ، كان يُلقنها هارون أخاه و عونه و كاهنه فى قومهِ ، و كذلك يوشع بن نون غلامه و خليفته فى زعامتهِ ، و بقية الآباء الذين كلفهم حفظ الشريعة فى حياتهِ و بعده .

بدت وجوه الكهنة و رجال الدين دون الفريسيون جامدة ، واجمة ، غير مُستوعبة لما سمعته الآذان ، و قد فغرت الأفواه فى بلاهةٍ ، و جحظت العيون فى نكوص ، على حين قال صدوقيا كبير الصدوقيين بنبرة كبر وتعال تخفى فى طياتها فشله فى فهم ما سمعه :

- يا ليتك تفسر أكثر عن بغيتك يا سيد شمعون ، حتى يتسنى لغير المُلم ببواطن الأمور فهمك و مُناقشتك .

اعتدل شمعون فى رقدتهِ ، و قد لمس فى وجوه الحاضرين ما أدعاه صدوقيا ، فقال شارحًا :

- على سبيل المثال و ليس الحصر أخوتىَّ فى التوراة ما ورد على لسان الرب فى ناموس موسى من أمر الحية أحيل ، و التى ورد ذكرها فى سفر التكوين ، و قد سألنى بعض المُريدين ذات يوم عن كينونتها ، و هل هى أحدى خلق الجنة ؟ .. و هل الجنة خلقت للبشر أم للحيوانات أم لكليهما ؟ .. و هل أبليس السماء هو من وسوس للإنسان الأول أم الحية ؟ .. العديد من هذه الاستفسارات و المواضيع التى يعجز أمامها العقل المُجرد لقصور التوراة عن توضيحها ، و من جانب آخر هناك أمور تناولها موسى النبى شفاهة ، لم تنص عليها التوراة فى أسفارها ، نجد فيها خيرًا لنا نحن اليهود ، مثل ما ذكره النبى سليمان نقلا عن موسى

النبى فيما يخص العلم و الحياة ، حيث يقول .. [على ثلاثةِ أشياء يقوم العالم .. على المعرفة ، و العبادة ، و الإحسان ، و على ثلاثةِ أشياء آخر يقوم العالم .. على الحق ، و الصدق ، و السلام ، هذا العالم دهليز المُستقبل ، فلتعد نفسك فى الدهليز ، فيمكنك إذن أن تدخل القصر] ، وهناك ما كان من أمر مدرسةِ هليل و مدرسة شماى من إختلافٍ عظيم رواه لنا الآباء الأوائل نقلا عن موسى النبى حول الوجود أفضل من العدم ، أم العدم أفضل من الوجود ؟

زادت حيرة الحضور ، و قد بدت آيات الجهل جلية ، على حين أراد قيافا نهاية هذا الصراع الفكرى ، الذى ضرم من جانبٍ واحدٍ ، فردد فى ضيق :

- و ماذا بعد يا سيد شمعون ، ماذا تريدون ؟
- المشناة و الجمارة .
- ماذا ؟
- لقد اجتمع الفريسيون من كهنةٍ و أحبار و قد قررنا خط كتاب يحمل شرح و تفسير أسفار موسى ، و كذلك تعاليمه الشفهية ، لتبدو مكتوبة و واضحة أمام العوام ، و قد اخترنا أسمًا له هو التلمود .
- و ما المشناة و الجمارة ؟
- شقى التلمود يا سيدى ، فالمشناة هو كتاب تفسير التوراة ، والجُمارة كتاب التعاليم الشفهية ، لتصبح التوراة هى أساس المشناة ، والمشناة أساس الجُمارة .

قال صدوقيا بحدةٍ ، اظهرت غضبه ، الذى يعتمل بداخلهِ :

- و ما شأن الجمع من كهنةِ صدوقيين و سنهدرين و رجال دين بإصداركم هذا الكتاب ؟ .. فقد أعتدنا منكم خط الكثير و ألحاقه بتوراة موسى النبى ، و إجبار العامة على تدارسهِ بدعوى إنه كلام حق هبط على آباكم من أحبار و كهنةِ .

صاح شمعون مُستنكرًا ما يقوله صدوقيا :

- هذا إفتراءٌ و إدعاءٌ .

نظر صدوقيا لأحد أتباعه ، الذى كان يُطارحهم المجلس ، نظرة ذات مغزى ، نهض الرجل على آثرها حيث ركن مُنزوى من المخدع ، حيث لفائف من جلد ماعز و أوراق بردى قد توارت عن أعين الحضور ، وقد سلمها لصدوقيا ، الذى لوح بها مُستطردًا حديثه :

- وماذا عن هذه اللفائف التى كتبت بأقلامكم ، و قد وجدناها مع أتباعكم و تلاميذكم ، و التى أطلقتم عليها سفر الملوك ، و التى تتناول أخبار إناس راق لكم تمجيدهم دون وجه حق ، حتى و لو كان هذا التمجيد فى صورة ذم رقيق ، إلا استغلالهم إن كانوا أحياء ، و استدرار أموالهم و نفوذهم ، أو استغلال ورثتهم ، كل هذا لدعم أهواء خبيثة فى نفوسكم وحدها ، و رب التوراة برئ منكم و من أعمالكم .

جحظت عينا شمعون و هو يُحدق فى اللفائفِ التى تسكن فى قبضةِ صدوقيا ، و قد ثار الدم بداخلهِ و هو يستمع لكلماتِ الآخير ، و التى حملت فى طياتها إتهاماتٌ جد خطيرة ، و لكنه استطاع أن يثبط ثورته ، و يجمح كباح غضبه ، حتى ينال منهم مبلغه الذى رنا إليه ، فقال بهدوءٍ لم ينجح فى إخفاء ثورته ، مُشيرًا للفائف التى تسكن قبضة صدوقيا :

- إن إسرائيل لن تصنع مجدًا لها إلا إذا صنعت تاريخا ، و هذه اللفائف التى بين أصابع السيد صدوقيا هى تاريخ هذه الأمة ، فقد دونا نحن الفريسيون فيها تاريخ أمتنا الحديث ، بتفصيل الملوك ، الذين مروا عليها ، القبيح قبل الحسن ، المُخرب قبل المُصلح ، و مع هذا سيد صدوقيا هذه المخطوطات لم يتدارسها و لم يحصل عليها غير الفريسيون ، أى إنها ملكية خاصة ، و نحن الفريسيون نؤمن بأن المجد العام لا يُولد إلا على يد فئة خاصة ، و قد اخترنا أن نصبح نحن هذه الفئة ، فكان كتابنا سفر الملوك راويًا تاريخ بنى إسرائيل ، فمن تبعنا فقد إهتدى و من نكص عنا فغير آثم .

صاح واحد من الحضور :

- لقد صدق السيد شمعون .

على حين قال آخر :

- إن ما أتاه الفريسيون لعمل حق يفخر به موسى النبى .

- إن الصدوقيين يستقطبون شرر الغيرة .

لاحظ قيافا تلك الإبتسامة الصفراء التى طبعت على وجهِ شمعون ، وذلك الغضب الذى حط على صدوقيا و أتباعهِ ، خاصة بعد تعاطف الحضور مع شمعون ، فأشار للحضور آن ألزموا الصمت ، و قد قال مُوجهًا كلماته لشمعون :

- استميحك عذرًا سيد شمعون أن تبدى مآربك ، فما أجتمعنا اليوم لنضرم نيران الصراع بيننا .

استنشق شمعون نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول بحروفٍ هادئةٍ ولدت دون

دون توتر و عصبية :

- عندما أعلنا نحن الفريسيون عن رغبتنا فى خط التلمود بشقيه المشناة و الجمارة انشقت طائفة منا يعتليها رجل كنا نحسبه من المُشطين عن التوراة ، لما دعى له من الزهد و ترك متاع الدنيا ، و البحث عن الرب فى الطبيعة و الجماد ، و قد أتهمونا بالهرطقة و العبث بالدين ، وقد اطلقوا على أنفسهم جماعة الاسينيين ، و قد سكنوا الفيافى و الجبال ، و قد أجمعنا أن هذه الجماعة من الخوارج و الكفرة ، لذلك نرغب من كهنة الجليل و رجال الدين مُساندتنا أمام الرأى العام و أمام هيرود فى حملتنا لتصفية هؤلاء المُهرطقين و القضاء عليهم ، خشية ألتفاف العامة حولهم و هجرهم دور العبادة وآيات الدنيا الغراء ليشروا زهد الاسينيين . همّ قيافا أن يتفوه بعبارة ما ، لولا أن قاطعه إقتحام حنان المخدع فجأة ، و قد بدا الفزع آية وجهه ، و أنفاسه المُتقطعة تتلاحق فى سرعة ، و قد بدت نظراته زائغة ، زجاجية ، لا تميز أحدًا ، على حين انتفض الحضور من مرقدهم مع إقتحام الأول المُفاجئ ، و قد ساد التوتر بينهم ، و علت العبارات المُستفسرة عن حاله و هيئته المزرية ، على حين تخشب قيافا فى مكانه ، و قد كادت عيناه تخرجان من بؤبؤهما و هو يُحدق فى الأول ، ظانا أن أنصار زكريا قد نالوا منه ، فقال بحروف جف مدادها :

- ماذا هناك ؟

- لقد ظهر يحي بن زكريا .

- كيف ؟

- لقد مات على يد هيرود .

قال حنان :

- لقد شوهد فى عتمةِ الليل و هو يقتفى أثر منزله .

ساد الصمت المُطبق على المخدع ، و كأن الطير حط على رؤوس الحضور ، مُعلنا بداية فصلا جديدًا من فصول إضطهاد كهنة الجليل لأنبياء بنى إسرائيل .

* * *

فرد الظلام الدامس عباءته على أورشليم ، فبدت المنازلُ كشواهد القبور التى تحرص الموتى ، و قد زاد لمعان النجوم التى تسكن صفحة السماء المُعتمة رهبة ، فبدت الطرقاتُ خاوية على عروشها ، لا يطأها كهلٌ أو فتى ، حتى صوت العُباد العذب ، الذين يترنمون باسم الرب و يقرون بنعمهِ و فضائلهِ ، و الذى كان يسرى مع نسائم الليل كل ليلة ، ليُضفى عليها سحرًا خاصًا ، بدا هذه الليلة ساكنا ، لتبدو أورشليم كأنها لوحة زيتية قد رُسمت بيدٍ ماهرةٍ لتعبر عن الصمت .

شق سكون الليل صوتُ خطوات يحي المُهرولة ، و صوت نحيبه الذى بدا كصوت خرير الماء ، و قد سالت دموعه زخات على خديهِ ، و قد بدا صوته واهنا ، و هو يُردد عبارة مُوجزة ، بدت كالعلكة التى يلوكها أثناء هرولته :

- باطل الأباطيل .. باطل الأباطيل .

وصل يحي لتلك المنطقة النائية التى تسكن خارج أورشليم ، و التى كان يزورها ليحتفر قبرًا لنفسهِ ، ليستقر بداخلهِ ، فيشعر بالموتِ يدنو منه ،

و أن حسابَ الربُ عسيرُ ، فكان يقسو على نفسهِ و يُؤلمها ، إتقاءًا لعذاب القبر ، الذى بدا على الإنسان الهوان حياله .

رقد يحي فى قبره ، و قد تعرى من كل ما يستر جسده ، ليبدو عاريًا كما ولدته أمه و كما سيُحاسب يوم الحشر ، و قد ساءت حالته و هو يبكى بغزارةٍ ، كأنه السيلُ العرمُ ، و قد اختلطت الحروف التى يتفوه بها مع صوت نحيبه ، و هو يُناجى ربه بقلبٍ خاشع ، وجل ، و بدن تعب من ظلم البشر :

- [باطل الأباطيل .. باطل الأباطيل ، كل شئ باطل ، ما الفائدة من كل تعب الإنسان الذى يتعبه تحت الشمس ، جيلٌ يمضى و جيلٌ يُقبل والأرض قائمة إلى الأبد ، الشمس تشرق ثم تغرب ، مُسرعة إلى موضعها الذى منه طلعت ، الريح تهب نحو الجنوب ، ثم تلتفت صوب الشمال تدور حول نفسها و لا تلبث أن ترجع إلى مسارها ، جميع الأنهار تصب فى البحر ، و لكن البحر لا يمتلئ ، ثم ترجع المياه إلى المكان الذى جرت منه الأنهار ، جميع الأشياء مُرهقة ، و ليس فى وسع المرء أن يُعبر عنها ، فلا العين تشبع من النظر ، و لا الأذن تمتلئ من السمع ، ما هو كائن هو الذى سيظل كائنا ، و ما صُنع هو الذى سيظل يُصنع ، ولا شئ جديد تحت الشمس ، أهناك شئٌ يمكن أن يُقال عنه : أنظر هذا جديد ؟ .. كل شئ كان موجودًا منذ العصور التى خلت قبلنا ، ليس من ذكر للأمور السالفة ، و لن يكون ذكرًا للأشياء الآتية بين الذين يأتون من بعدنا] .

سكت يحي عن الكلام و المُناجاة ، و هو يرى بقعة شديدة الإضاءة على

مرمى بصره ، قد ظهرت من العدم ، أخذت تدنو منه رويدًا رويدًا ، وقد تملكه رعبٌ عظيمٌ شل أعضاءه ، فسكن فى مكانهِ و قد تيبست قدماه فى مكانها ، خازلة إياه فى الفرار من مصيره المجهول ، و قد سكنت البقعة المُضيئة على مقربةٍ منه ، و قد دوى صوتٌ هادئٌ ، حالمٌ من العدم مُرددًا :

- أنا رسولُ ربك ، قد بُعثت إليك بالحكمةِ .

ظل لسانُ يحي مَعقودًا ، و هو يُحدق فى الكائن النورانى الذى يسكن بين يديه ، على حين قال الملاك :

- لقد حزنت الملائكة لكلماتك الشجية ، فلماذا بدت مُناجاتك للرب حزينة ؟ .. فيم نقمك على البشر ؟

هدأ روع يحي ، و قد سكنتُ روحه ، و قال بحروفٍ شجية تقطر حُزنا :

- لقد ساء حالُ البشر ، لقد آل الإنسان للدونيةِ ، و أصبح لحمُ وعرضُ أخاه الإنسان حلٌ له ، لقد سئمت من بطش و ظلم الإنسان بيَّ .

- كل امرء مُبتلى ، و أشد الناس إبتلاءًا هم الأنبياء ، و أنت نبى مُختار ، جئت سيدًا و حصورًا ، فضُر الناس بك كفارة عن أثم قد تناله يدك أو تصيبه عينك أو يطمسه قلبك .

زاد بكاءُ يحي ، و هو يحس بالهوان يُسيطر عليه ، يتوغل عبر رئتيه ليتملك من قلبهِ ، فينهار جسده و يتداعى ، و قد قال بحروفٍ بائسة :

- إن كان قدرى المُعاناة مع البشر ، فمن أين لىَّ بالقوة التى أجابه بها بطشهم ؟

- قوة الإيمان التى تسكن قلبك ، تلك القوة التى جعلتك ترفض الظلم

الظلم من قبل ، و جعلتك تقر بأنك لست عيسى و لست المسية ، مُجابهًا استنكار الناس لما تقول ، تلك القوة التى جعلتك تبشر بعودة المسيح عيسى بن مريم بين الناس مُعرضًا نفسك للهلاك على يد هيرود الطاغية ، و هى القوة التى ستدفعك بين الناس مُنددًا ما فعله كهنة الجليل بزكريا النبى .

اغمض يحي عيناه ، مُحاولا الإبحار بروحهِ داخل نفسه ، باحثا عن تلك القوة التى تكمن بداخلهِ ، لعله ينجح فى السيطرة عليها ، و ترويضها ، وتسخيرها لقتل لحظات الخوف و الضعف التى تسيطر عليه ، و قد بدا على وجهه التعمق و آياته المُنزعجة تحتله ، و تتفاعل مع مشاعره المُضطربة .

لانت قسمات يحي ، و قد رُسمت آيات البشر على وجهه ، لتحل محل آيات الإنزعاج ، و التوتر ، مُعلنة نجاحه فى إيجاد سر تلك القوة التى ترتع بداخلهِ ، ففتح عيناه رويدًا ليجد صورة الملاك تبتعد عنه ، حتى تضاءلت و اختفت ، فأومأ برأسهِ ، و هو يقول فى إيجاز :

- حقا ، إن النبى مُبتلى .

* * *

- اغربى عن وجهىَّ أيتها الآثنة .

صاحت سالومى بهذه العبارة لخادمتها التى وضعت الطعام فى خفر ، لتفر هاربة من ثورة الأولى ، التى قبضت على أطباق الطعام الفضية ، و ألقتها نحو باب المخدع الذى خرجت منه الخادمة ، مُتلمظة بقبيح الألفاظ ، و أسوأ العبارات ، و قد انهارت أعصابها ، لتلقى بجسدها على

مضطجعها ، حاضنة وسائدها ، و قد اجهشت فى البكاء ، مُردد من بين نواحها :

- أين أنت ؟

دلفت هيروديـاس علـى ابنتهـا فـى مخدعها ، و قد عفى عنهـا هيرود ، وخلعهـا مـن مخـدع النسـاء ، و أعادهـا لمكانهـا الأول بجـواره ، حيث العرش ، و لكن بشروطهِ ، فبدت هيروديـاس مُنكسرة ، مهزومة ، و قد زهدت فى متاع الدنيا بعد فشلها فى الإنتقام من هيرود و مقتل أجمنتوس ، لتآثر العُزلة ، مُنفردة بذكرياتها المريرة .

- رفقا بالجوارى يا ابنتىَّ .

نهضت سالومى من مرقدها ، عادية نحو أمها ، التى أحتضنتها فى عطفٍ ، مُكفكفة دموعها ، و هى تردد :

- ما لىَّ أراك مُكفهرة الوجه ، و الأسى شيمتك ؟

- إنه الوجد يا أمىَّ .

- رفقـا بنفسـك يـا ابنتـىَّ ، فمـا زال شـبابك غضـًا ، فـلا ترهقيـه بأصاغر الأفعال .

- إنه يحي يا أمىَّ ، لقد مضى شهرٌ و لم يظهر ، أخشى أن يكون قد أصابه مكروهًا ، أو ضل سبيله فى الأحراش ، أو خرج عليه وحشٌ نال منه .

لمست هيروديـاس حيرة و قلق ابنتها على يحي ، و هى تستعيد صورة ذلك الفتى الذى تصدى لها يومًا ما ، و ناطحها فى قراراتها ، و قد قالت فى خدر :

- إنه لفتى قوى و جرئ ، حسبى أنه نذا قويًا لهيرود .

- ماذا قلت يا أماه ؟

فاقت هيروديـاس مـن شـرودها علـى سـؤال ابنتهـا ، فقالـت فـى سـرعةٍ مُستطردة عبارتها :

- لماذا لا ترسلى عيون القصر فى طلبِ أخباره ؟

لاحت إبتسامة جزلة على وجهِ سالومى ، و قد لقى إقتراح أمها هوًا فى نفسـها ، فأرسلت فـى طلب كبيـر حـراس القصـر ، آمـرة إيـاه أن يُخـرج جميع عيون القصر فى آثر يحي بن زكريا .

* * *

داخـل منـزل زكريـا ، اعتزلـت مـريم ابنـة عمـران مجلـس أليصـابات والمجدلية حول مضطجع الأول الراقد فـى سكون ، لتسكن ركنا مُنزويًا من المنزل ، لازمة الصمت ، وقد اسدلت جفنيها فى هدوءِ ، و قد اسلمت مشـاعرها و كيانهـا للذكـريات تعصـف بهـا كيفمـا شـاءت ، فكانت صـفحة وجهها تفضـحها ، فتـارة تجـد الإبتسـامة الهزيلـة طريقهـا لشـفتيها ، مُعبرة عن حالة السعادة التى تعصف بها ، و تـارة آخرى تجد حاجباها مُنقلبان فى توتر و عصبية ، دلالة على إنزعاجها .

فتحت مريم عيناها بغتة ، و قد ارتد جسدها بعنفٍ ، على آثر لمسة حانية من مريم المجدلية عانقت يدها ، على حين قالت الآخيرة مُستفسرة :

- فيم شرودك يا أماه ؟

- الحق أقول لك يا ابنتىَّ ، لقد توحشت عيسى ابنىَّ و رفيق دربـىَّ ، فشرعت لخلوتىَّ لعلى ألتمس ذكرياتىَّ معه .

همت المجدلية أن تغادر مجلس مريم ابنة عمران ، لولا أن قبضت هذه الأخيرة على كفها ، و عينيها عالقة بوجهها الذى مسح عليه آيات الخجل ، مُرددة :

- إلى أين يا ابنتىَّ ؟

- لقد اقتحمت خلوتك عنوة ، حارمة إياك من لقائك بالسيد عيسى ، فيجدر بىَّ الإنسحاب فى هدوء .

ابتسمت مريم ابنة عمران ، و هى تحتضن كف المجدلية بين يديها ، مُربتة عليها بحنان ، و هى تقول :

- يا ابنتىَّ .. إن يسوع ملكٌ للبشرية جمعاء ، و مآثره ليست حكرًا علىَّ وحدى .

اعقبت مريم عبارتها بأن نظرت للمجدليةِ نظرة ذات مغزى ، قبل أن تستطرد قولها :

- و كونك قريبة منه ، تجلسين بمجلسهِ ، و تنشدين العلم مع تلاميذه ، فأنت جُزء من مآثره يُسعدنى معرفته .

جلست المجدلية بجوار مريم ابنة عمران ، و قد روضت نظراتها على مُعانقة الأرض فى خفر ، و هى تقول بصوتٍ هادئ ، نشوان :

- إن السيد عيسى أعدل الناس و أعلمهم ، لقد أتيت به يا أم ليكن راعيًا لهذه الأمة ، و عهدى به الرحمة و رجاحة العقل .

انهت المجدلية عبارتها ، لتجد مريم ابنة عمران ماسكة على صمتها ، ولسان حالها يحثها على المُتابعة ، فابتلعت لعابها ، قبل أن تقص على مسامعها ما كان من أمرها مع كهنة الجليل ، و إتهامهم اياها بمُعاشرة

أحد الرجال فى حُرمانية ، و قد واقعها كما تواقع الكلاب بعضها البعض دون مُراعاة لأعرافٍ أو تقاليدٍ ، و هى من هذه التهمة براء ، و قد ظنت فى لقائها بعيسى الهلاك ، و إنه سيأمر برجمها مع من اتهمت بمواقعتهِ حتى الموت كما حثت شريعة موسى ، و لكنها لمست فيه العدل و نور البصيرة ، الذى نفذ إلى قلبها ، لينصرها على كهنةِ الجليل ، الذين نقموا عليه ، و اتهموه بخرق ناموس موسى .

- و منذ ذلك اليوم اتخذت عهدًا على نفسى ألا أبرح مكانا يسكنه السيد عيسى .

- و نعم العهد الذى قطعته على نفسك يا ابنتىَّ .

- هل لىَّ بسؤالك شيئا يا أمىَّ ؟

- سلى ما بدا لك .

- هل لىَّ أن أبحر معك فى ذكرياتك مع السيد عيسى ؟

ابتسمت مريم إبتسامة العالم بخبايا الأمور ، مما زاد من خجل واضطراب المجدلية ، التى ألحفت على مُعانقة الأرض ببصرها ، مُصغية لعبارة ابنة عمران ، التى فاحت منها رائحة المُداعبة .

- ألم أقل لك أن مآثر يسوع ليست حكرًا علىَّ وحدى ؟

أومأت المجدلية برأسها أن نعم ، على حين شردت مريم ابنة عمران فى ذكرياتها ، و هى تقول :

فى أحدى أعياد المظال ، دعى أحد الأغنياء يسوع و تلاميذه و قد كنت معهم على عُرس ابنته ، و قد وافق يسوع لما بدا من الرجل من بر بالفقراء ، فقد دعى العشرات منهم ، و قد ضرب وليمة عظيمة ، اجتمع

عليها الفقير و الغنى على حد سواء ، و أثناء تناول الطعام فرغت الخمر ، فألتوت الوجوه تذمرًا ، فما من عُرس خلى فيه الخمر ، فعَمَدْتُ إلى عيسى و أخبرته ، و قد أمر رب البيت خدمه أن يُطيعوا عيسى فى كل ما يأمرهم به .

صمتت مريم ابنة عمران عن الكلام ، و قد زادت إبتسامتها ، كأنها آثرت تذكر ما بقى من الأحداثِ عن روايتها على مسامع المجدلية ، التى قالت فى شوق مُستحثة الأولى على الاستطراد فى روايتها :

- و كيف تصرف السيد عيسى ؟

- كان من عادة اليهود عند إقامة الإحتفالات الإحتفاظ بستةِ أجران ماء ليطهروا أنفسهم إذا حانت صلاة ، فعمد يسوع إليها ، و قال بصوتٍ جهورى (باسم الله ، اسقوا المدعوين) ، و أمر الخدم أن يسقوا المدعوين من

هذه الأجران ، و قد قدم أحد الخدم كأسًا من ماء الأجران لرب البيت ، الذى صاح فى الخدم مُوبخًا .. (أيها الخدمة الأخساء ، لماذا أبقيتم الخمر الجيدة حتى الأن ؟) ، مُستنكرًا أن ما كان بالأجران ماء ، بل خمر .

- و ماذا أيضًا يا أماه ؟

لاذت مريم بالصمتِ برهة ، و قد غارت عيناها ، و ذاكرتها تبحث عن أحداث آخرى تقصها على مسامع المجدلية ، التى بدت شغوفة ، غير مُستقرة فى جلستها ، كأنها تجلس على جمر من نار ، قبل أن تقول الأولى :

- ذات مساء دخل علىَّ يسوع على غير عادته ، مُتأخرًا عن موعد

العشاء ، ليجد الطعام أمامىَّ لم أمسسه ، فأعتذر مُقبلا جبينىَّ كعادته ، وجلس بجوارى لنأكل ، و لكنه وجدنى عازفة عن الطعام إلا إذا عرفت سبب تأخره ، فأخبرنى إنه أشتاق لركوب البحر ، فنزل مع تلاميذه فى مركب مُبحرة ، و نام فى مقدمتها ، لتداعبه نسمات الهواء الرقيقة ، التى لم ينعم بها طويلا ، ليجد أحد تلاميذه يُوقظه بعنفٍ ، حاثا إياه على القفز من المركب ، التى شرفت على الغرق ، و قد سيطر على الركاب الخوف ، و صرير الريح العاتية يصم الآذان ، و غضب البحر و موجه العاتى يكاد يقتلعهم من مكانهم ، على حين نهض يسوع رافعًا عيناه إلى السماء داعيًا ربه .. (يا ألوهيم الصباؤت ، ارحم عبيدك) ، فسكتت الريح و هدأ البحر من فوره ، لتبقى دهشة التلاميذ و سائر الركاب و النوتية .

انهت مريم كلماتها لتلمح الإنبهار على وجهِ المجدلية ، و قد تلاحقت أنفاسها ، فقالت لها :

- و ماذا عن ذكرياتك مع يسوع ؟

- منذ معرفتى بالسيد عيسى ، و أنا أكن له ذكريات عطرة .

- مثل ماذا ؟

غارت عينا المجدلية ، و هى تستعيد ذكرياتها ، مُرددة بصوتٍ هامس :

- إن أول يوم لىَّ مع السيد عيسى بين تلاميذه كان سيكون الآخير ، لما قاله السيد عيسى عن الجسد ، و هوس الإنسان الضعيف بتنعيم جسده ، و قد شعرت أن السيد عيسى يُوجه كلماته لىَّ ، كونى حضرت إليه مُتهمة بالزنا ، مما وَلدَ شعورًا قاسيًا فى صدرى ، أن السيد عيسى يُؤمن بكونى زانيةً ، و ما جعل هذا الشعور يتعاظم بداخلىَّ نظرات تلاميذه الحادة لىَّ

كأنها سياط تنهال على جسدى .

- إن يسوع يقول ما يُؤمن به ، و يفعل ما يقول ، فلا يُمكن أن ينهرك بقول عن فعل برءك منه .

- هذا ما أتضح لىَّ بعد خطبته التى حفظتها عن ظهر قلب ، كما حفظت كل قول أو فعل بدر منه .

- و ماذا قال يسوع ؟

- لقد جادت عيناه بدموع غزيرة ، قبل أن يقول .. (الويل للذين هم خدمة أجسادهم ، لأنهم حقًا لا ينالون خيرًا فى الحياة الآخرى ، بل عذابًا لخطاياهم ، أقول لكم إنه كان نهم غنى لم يهمه سوى النهم ، و كان يُولم وليمة عظيمة كل يوم ، و كان واقفا على بابهِ فقيرٌ يُدعى لعازر ، و هو مُمتلئ قروحًا ، و يشتهى أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة النهم ، ولكن لم يُعطه أحد أياه ، بل سخر منه الجميع ، و لم يتحنن عليه إلا الكلاب ، لأنها كانت تلحس قروحه ، و حدث أن مات الفقير ، و احتملته الملائكة إلى ذراعى إبراهيم أبينا ، و مات الغنى أيضًا ، و احتملته الشياطين إلى ذراعى أبليس ، حيث عانى أشد العذاب ، فرفع عيناه و رأى لعازر من بعيد على ذراعى ابراهيم ، فصرخ حينئذ الغنى : يا أبتاه إبراهيم ، ارحمنى ، و ابعث لعازر لىَّ على أطراف بنانه قطرة ماء تبرد لسانى ، الذى يُعذب فى هذا اللهيب ، فأجاب إبراهيم : يا بُنى ، اذكر أنك استوفيت طيباتك فى حياتك ولعازر البلايا ، لذلك أنت الأن فى شقاءٍ و هو فى العزاء ، فصرخ الغنى أيضًا : يا أبتاه إبراهيم أن لىَّ فى بيتِ أبىَّ ثلاثة أخوة ، فأرسل إذا لعازر ليُخبرهم بما أعانيه لكى يتوبوا و لا يأتوا إلى هنا ، فأجاب إبراهيم : عندهم

موسى و الأنبياء فيسمعوا منهم ، أجاب الغنى : كلا يا أبتاه إبراهيم ، بل إذا قام واحد من الأمواتِ يُصدقون ، فأجاب إبراهيم : إن مَن يُصدق لا موسى و الأنبياء لا يُصدق الأموات و لو قاموا) .

و هنا قال السيد عيسى لتلاميذه .. انظروا ، أليس الفقراء الصابرون مُباركين ، الذين يشتهون ما هو ضرورى فقط ، كارهين الجسد ، ما أشقى الذين يحملون الآخرين للدفن ، ليعطوا أجسادهم طعامًا للدود و لا يتعلمون الحق ، بل هم بعيدون عن ذلك بُعدًا عظيمًا ، حتى أنهم يعيشون هنا كأنهم خالدون ، لأنهم يبنون بيوتا كبيرة ، و يشترون أملاكا كثيرة ، و يعيشون فى الكبرياء .

فرغت المجدلية من كلماتها ، مُبصرة مريم ابنة عمران ، التى أومأت برأسها ، و الإبتسامة تعلو شفتيها ، قائلة :

- حقا ، إنك مِن خيرة من سيحملون آيات يسوع ، إن لم تكونى خيرهم

* * *

على جبل الزيتون ، بدا عيسى وحيدًا ، تحده الفيافى من كل حدب و صوب ، لا يسمع سوى صوتُ نحيبه ، الذى غطى على صفير الريح ، و قد بدا شديد النحول ، و قد وهن بدنه ، بعدما وجد فى نور الرب زهدًا عن متاع الدنيا ، فكان يكتفى بأوراق الشجر طعامًا - إن وجد - و بماء العيون شرابًا - إن جادت الأرض بها - و قد أطلق للحيتهِ العنان ، لتحتل نصف ملامحه ، التى عرفت القسوة ، مُتبعًا سُنن الأنبياء و الرُسل .

انصرف الليل سريعًا و عيسى فى صلاتهِ ، حتى غزته أشعة الشمس البكر ، فرفع يداه إلى السماء ، و دموعه لم تجف بعد ، مُتضرعًا إلى الله :

(يا رب ، إنىَّ عالم أن الكتبة يبغضوننى ، و الكهنة مُصممون على قتلى أنا عبدك ، لذلك أيها الرب الإله القدير الرحيم ، اسمع برحمةٍ صلوات عبدك ، و انقذنى من حبائلهم أنت خلاصىَّ ، و أنت تعلم يا رب أنىَّ أنا عبدك إياك أطلب يا رب و كلمتك أتكلم ، لأن كلمتك حق ، هى تدوم إلى الأبد) .

انهى عيسى كلماته ، و قد اطلق العنان لمشاعره الجياشة ، التى أوضعته فى معون الخشوع ، و قد اغلق عيناه مُلتمسًا رحمة من الله ، و لسانه يُردد دون كلل أو ملل :

- يا رب العباد .. هبنى رحمة من لدنك .
- لا تخف يا يسوع .!

افاق عيسى من نشوتهِ و خشوعهِ ، و قد تملكه الفزع على أثر صوتٍ كهزيع السماء يُطمئنه ، ففتح عيناه ليجد كائنا نورانيًا مَهيب الطلعة يقف أمامه ، و قد لمس إبتسامة هادئة تفترش وجهه ، الذى بدا مطموس الملامح ، من شدة النور الذى يغمره ، و هو يستطرد عبارته قائلا :

- (لا تخف يا يسوع ، لأن ألف ألف من الذين يسكنون فوق السماء يحرصون ثيابك ، و لا تموت حتى يكمل كل شئ و يُمسى العالم على وشكِ النهاية) .
- من .. من أنت ؟ .. إنىَّ استعيذ بالله من شرك و ضرك .
- إنه أنا الملاك جبريل ، رسول الرب لك .

لم يقو بدن عيسى على تحمل قوة الحدث الذى يُعاصره ، فخر على الأرض ساجدًا ، و هو يشكر الله على نعمهِ ، و رحمته به ، و قد أرسل له ملاكه ليُطمئنه ، ليجتاح صدره شعورٌ بأنه قريبٌ من رحمةِ الله ، فقال :

- (أيها الإله الرب العظيم ، ما أعظم رحمتك لىَّ ، و ماذا أعطيك يا رب مُقابل ما أحسنت به إلىَّ ؟)
على حين قال جبريل الملاك :
- (انهض يا يسوع ، و اذكر إبراهيم ، الذى كان يُريد أن يُقدم ابنه الوحيد إسماعيل ذبيحة لله ليتم كلمة الله ، فلما تقو المدية على ذبح ابنه قدّم عملا بكلمتىَّ كبشا ، فعليك أن تفعل يا يسوع خادم الله) .
- (سمعًا و طاعة ، و لكن أين أجد الحمل و ليس معىَّ نقود ، و لا تجوز سرقته ؟) .
أشار الملاك جبريل نحو كبش يمرح على مرمى البصر ، فسعى إليه عيسى بقلبٍ طرب ، مُطاردًا أياه بنفس تتوق لطاعةِ بارئها ، الذى مَن عليها برحمتهِ ، حتى مَثل بين أصابعه ، فعقره ، و طيبه ، و قدمه قربانا حسنا لله .

* * *

عاد يحي من خلوتهِ ، و قلبه عامر بحب الدعوة و النصح فى الناس ، لعلهم يرتدوا عما انغمسوا فيه ، مُحاولا توضيح موقف كهنة الجليل من أبيهِ زكريا ، النبى المُهدى من السماء فيهم ، و تربصهم به ، ليخلو لهم وجه بيت الرب و الناس ، فيتلاعبوا بأحلامهم و أمانيهم فى غدٍ أفضل ، يخلو من بطش الرومان كما يتلاعب الطفل الصغير بكرتهِ ، و يتقاذفوا العقيدة ما بين فريسيين و صدوقيين و سنهدريين ، ليضل العامة بين صراع الطوائف اليهودية ، أيهم أصلح برئاسةِ بيت الرب بعد إنقضاء عهد السلف ؟
خرج يحي و أنصاره و معه أرميا و أتباع زكريا المُخلصين فى الناس ،

داعين إياهم بالحُسنى ، مُخاطبين العقل ، فتارة يسكنوا بينهم فى الأسواق والدروب المُكتظة ، و تارة أخرى يسكنوا الرُبى العالية و الناس من حولهم يصغون فى خشوع ، منهم من يستجيب و ينصاغ ، و منهم من ينفر غير مُؤمن ، و قد كانت عيون كهنة الجليل تندس بين العامة ، تصغى بإمعان لتدلى دلوها عند أسيادها ، و قد برعوا فى إثارة الشغب فى مجلس يحي وأتباعه ، حتى يتشتت الناس و ينصرفوا من حولهم .

و فى أحد أيام السبت خرج يحي و أتباعه على الناس فى السوق ، و قد التفوا حوله فى تؤدةٍ ، و قد جذبتهم كلماته الناصحة ، و قد صاح فيهم خاطبًا و قد قلدوه مكانا عاليًا بينهم :

- يا قوم موسى ، ما حسبتكم بهذه الجهالة لتتركوا مصائركم بيد عبيد لا حول لهم و لا قوة إلا بمشيئةِ الرب ، فما يقره الله لا يُفرقه عبد ، فيسوقوكم كالنعاج يوم نحرها لتعتدوا على شيخ عجوز ، نزل فيكم نبيًا مُحملا برسالةٍ سماوية لهدايتكم فكان آثمكم عظيمًا .

يا قوم موسى ، إن الرب واحدٌ ، نرى صورته فى البريةِ جمعاء ، فى السهول المُمتدة فى رعونةٍ ، و الجبال الشاهقة فى شموخ ، و فى السماء التى تطبق على الأرض بإصرار ، فلماذا نجعل وسطاءًا من عبيد الأرض بيننا و بين الرب ؟ .. فما الفريسيون و الصدوقيون و السنهدريون إلا عبيد لا يملكوا لأنفسهم ضرًا أو نفعًا ، لأنهم عبيدٌ مُصيرون و لا يملكوا حق الخيار لتسيير أمور حياتهم ، فما حاجة المُؤمن لتتبع طائفة دون أخرى والرب واحد و الدين واحد ؟

صاح واحدٌ من أعين كهنة الجليل المُندسة بين الحشود المُتجمهرة ،

مُصادرًا على كلام يحي بأسلوبٍ يفوح بالعداوة و التربص :

- إذا مـا حاجتنـا للأنبيـاء و الرُسل يـا سـيد يحـي ، حسـبيَ أن النبـوة والرسالة بدعة اختلقها رجالٌ رغبوا فى متاع الدنيا ؟

هـاج العامـة و مـاجوا أثـر قـول الرجـل ، الـذى لـم يسـلم مـن تطـاول بعـض الثائرين بالفعال ، مُحتجين على قولهِ ، فمنهم داود و سليمان و موسى الكليم ، من جاء لهم بألواح الهداية من الله ، ليسيروا بقبسًا مـن نورهـا فـى دروب الحياة ، علـى حين لـوح يحي بيديـهِ آن اصـمتوا ، قبـل أن يسـتطرد عبارتـه قائلا :

- يا أخوتيّ ، ما النبى و الرسـول إلا هدايـة مـن الـرب لـلأرض لهدايـةِ أهلهـا ، ليعرفـوه حـق معرفـة دون ضـلالة ، و الحـق أقـول لكـم أن الـربَ يغضب لغضب أنبيائه و رُسله ، فاتقوا الرب حق تقاته و إياكم و البغى .. يا أمة إسرائيل لقد عرفتمونى نبيًا حقا ، أعمدكم بماءٍ مُقدس ، و أنـا مَن كشـف لكـم مُؤامرة هيرود و رجالـه علـى عيسـى بن مـريم البتـول ، ملـك اليهـود والمسيا المُنتظر ، فمن آمن بـيَّ نبيًا من عند الـرب فليسجد علـى الأرض صـاغرًا ، مُنيبًا لرب الكون الواحد ، مُستغفرًا إياه على ...

ابتلع يحي عبارته و هو يرى الناس جمعاء تخر على الأرض ساجدة ، و قد طمست وجوههم فى الثرى ، فسكنت كلماته حلقه دهشـة ، و عينيـه تستنكر ما تراه ، فلم يعهد فى قومهِ الطاعة و الخنوع دون جدال من البعض و كفر بما يُنادى به من البعض الآخر .

و لـم تـدم دهشـة يحـي طـويلا و هـو يـرى فـى الأفـق موكبًـا ملكيًـا يـدنو مـن جمعهم ، فعلم أن سجود الناس من حولهِ ليس طاعـة لله ، و لكنـه خشـية مـن

بطش هيرود و جلاوزته ، فشد عوده فى عزةٍ ، رافعًا رأسه فى إبابةٍ ، و قد انتهج أتباعه نهجه ، على حين عدا الحُراس المُصاحبين للموكب نحوهم ، شاهرين العصى ، و قد دوت حناجرهم بكلمةٍ واحدة :

- حطة .. حطة .

لم تهتز شعرة واحدة من رأس يحي و أنصاره ، و هم يُشاهدون رجال هيرود يستهدفونهم بالعصى ليسجدوا كسائر العامة تبجيلا و إحترامًا للوفد الملكى ، و لكن صوتا أنثويًا عبق السماء و صم الآذان دوى من داخل العربة الملكية ، جعل الحراس يتسمرون فى أماكنهم دون حراك ، على حين بدت سالومى فى الأفق و هى تخرج من عربتها الملكية ، و الإبتسامة تزيل شفتاها ، و هى تخطو نحو يحي ، الذى اعترته الدهشة من حضور الأخيرة قاصدة إياه .

- أين كنت طيلة هذه الأيام ؟
- ماذا ؟
- لقد انتابنى قلق عظيمٌ منذ رحيلك ، و قد انتظرت عودتك طويلا .
- لماذا يا سيدتىَ ؟
- لأنىَ أحبك ، و أنت أيضًا تحبنى ، و كان فرارك من سجن هيرود هو صك هذا الحبُ .

تعالت همهمات العامة ، و رؤوسهم مازالت مُطأطئة ، على حين جحظت عينا يحي و هو يعقل ما يسمع ، و قد استشف الشطط فى المرأة التى تسكن أمامه ، و قد توهمت حبًا غير موجود تجاهر به أمام العامة دون حياء ، فأشاح بوجههِ عنها مُتأففا ، و هو يُردد فى إمتعاض :

- أين حياؤك يا امرأة مما تجاهرين به ؟

- إن الحب لا يعرف الحياء و لا الكبرياء .. لا يعرف هذه المُسميات الدونية .

- حب مَن لمن ؟

- حبك ليَّ و عشقيَّ لك .

عند هذا الحد تنحنح أرميا قبل أن يُمسك بزمام الحوار قائلا :

- يا سيدتيَّ ، هذا يحي بن زكريا نبى هذه الأمة ، و من عفت نفسه عن النساء ، و قبرت الشهوة فى حانوت ظهره ، فلا تتجنى عليه بأوهامك .

انقلبت سحنة سالومى ، و هى تشعر بطعناتٍ حادة تدمى قلبها ، و يحي يرفض حبها ، مُسلمًا اياها للسان تابعه ، الذى بدا كالسوط الذى ينهال عليها بقسوةٍ دون رحمة ، و قد انهالت عبراتها غزيرة ، و قد انتابها غضبٌ عارمٌ و هى تبصر مَن حولها بعين زجاجية ضلت دربها ، و كاد أن يغشى عليها و هى تخطو نحو مركبتها بخطواتٍ ثقيلةٍ ، أعياها الغضب ، و هى تتوعد يحي بأشر إنتقام ، لن ينج منه ذويه .

-١٣-

دلفت هيروديياس إلى مخدع ابنتها مُهرولة ، بعدما أخبرها أحد الحراس بعودتها ، لتفجع فى هيئتها ، و قد بدت فى حالةٍ يُرثى لها ، و قد شقت ثوبها ، كاشفة عن صدرها المُكتنز ، و الخيوط السوداء المُنهمرة من عينيها فى غزارة - بعدما اختلط الدمع بكحل العين - صانعة الأخاديد ، ماحية آيات وجهها ، الذى يُضاهى القار عتمة ، وقد بدا صوتها مُتهدجًا ، مُرهقا و هى تردد العديد من الكلماتِ ، التى تاهت حروفها بين تشنجاتها فبدت كالعويل ، أو آنات مريض يُشرف على الموت .

هرولت هيروديياس حاضنة ابنتها فى حنان ، و قد انخلع قلبها من مرأى ابنتها ، و قد انتابها شعورٌ قوىٌ للوهلةِ الأولى أن ابنتها أقدمت على الإنتحار و تشرف على الموت .

- ماذا حل بك يا ابنتىّ ؟ .. ألم تقابلى ذلك الناصرى ؟

بدا على سالومى إنها لم تنتبه لسؤال أمها ، و قد دفنت رأسها فى صدرها ، مُطلقة العنان لعينيها ، التى جادت بخير ما لديها من دموع ملحية ، ومع تكرار هيروديياس لسؤالها عدة مرات دون أن تتلقى إجابة من ابنتها ، دفعها خوفها لصفع ابنتها صفعة قوية ، ارتج لها جسدها ، الذى بدا كالتمثال ، و قد كفت عيناها عن إهدار الدمع ، و مسك لسانها عن النواح و العويل ، و قد جحظت عيناها برهة ، لتجيب فى رتابةٍ قائلة :

- نعم ، قابلته و يا ليتنى ما قابلته .

- ماذا حدث ؟

- لقد رفض حبيَّ له ، لقد رفضني يا أميَّ .

لمست هيروديا ما تعانيه ابنتها من شعور بالهزيمةِ قد ألم بها من قبل ، شعورُ أنثى حاكت من مشاعرها ثوبًا حريريًا لكى تدثر به مَن أحبت ، وقبلت أن تصبح أحاسيسها علكة فى أفواه العامة ، يمضغونها بسئ الكلام ، و جعلت من كرامتها بُساطا أعجميًا تتنعم عليه أقدام مَن تحب ، و بدلا من أن تنال إحترام و حب مَن عشقت ، لم تجد منه سوى العزوف عن مشاعرها ، و التأفف من جسدها .. شعورٌ هو أقصى ما تشعر به امرأة سوية تعرت أمام رجل من حيائها و أنوثتها فنبذها ، و ترفع عن أنوثتها .

- قصى علىَّ ما حدث .

روت سالومى مأساتها مع يحي بن زكريا على مسامع هيروديا ، التى رفعت حاجباها فى غضبٍ ، اطلق من عينيها ، مُستنكرة ما فعله الناصرى بابنتها من تجاهل لمشاعرها ، فاعتدت فى وقفتها كأنها تعتلى العرش ، و هى تصيح آمرة :

- لابد من القصاص .. لابد من قطع رقبته فى ميدان عام على رؤوس الأشهاد من العامةِ

صاحت سالومى مُستنكرة ما اقرته أمها ، مُلوحة بيديها فى الهواء ، كأنها تدرأ ملاك الموت عن يحي ، و هى تقول فى حبٍ :

- لا .. لا يا أمى ، إنه يحي الناصرى ، من هواه قلبىَّ .

- أبعد ما فعله تبقين على هواه ؟

- نعم يا أميَّ .. جل ما أريده أن يأتى راكعًا فى ذلةٍ و مسكنةٍ أسفل

قدميَّ طالبًا قربيَّ منه ، واضعًا مصيره بين يدى لأبت أنا فيه .. هذا إنتقاميَّ منه لأطوى ما اقترفه اليوم من أثم ، و يصفو قلبيَّ له ، دقاته تناديه بلهفةٍ و شوق ، و الروح تتمناه خليلا لها ، إلا قسمًا بآلهتهم المزعومة سيكون إنتقاميَّ منه رهيبًا ، لن يتخيله عقل بشرى .

- و كيف يتأتى ذلك ؟

لاذت سالومى بالصمتِ ، تاركة هيروديا‌س فى حيرتها التى تسببت فيها ، و هى تعلم أن ما طلبته ابنتها مطلبًا عادلا لامرأةٍ جُرحت أنوثتها و لكن السبيل فى تحقيق هذا دربٌ من الاستحالةِ ، فما من إنسان عاقل رفض حُب امرأة يعود لها بعد ذلك صاغرًا خاطبًا ودها إلا لسببٍ عظيم يُهدد رجولته أو حياته ، و سالومى لن تهدأ سريرتها و تتزن مشاعرها وتطيب جُروحها و تندمل إلا و إحساس الرضا يغمرها من أخمص قدميها و حتى بثور شعرها ، و لن يتأت هذا إلا بالإنتقام ، و بالصورة التى ترغب فيها .

- إن منالك من هذا الناصرى لن يتأت إلا بالقوة و الإجبار .

- و أين الضعف فى هذا يا أمىَّ ، ستكون رغبته فى التقرب منىَّ واجبًا مفروضًا عليه ، حسبى إنه سينكص منه ، فطبيعة الناصرى تعشق التمرد .

زادت كلمات سالومى من حيرة هيروديا‌س ، التى أخذت تتريض فى الحجرة ذهابًا و إيابًا فى رتابةٍ لم تعيها ، و عقلها يعتمل كمرجل تغلى فيه الأفكار ، و قد بدا الفشل فى إيجاد الحل المُناسب قاب قوسين أو أدنى منها ، لولا بارقة أمل أخذت تضوى فى ركن قصى من رأسها ،

فبدت أنفاسها تتلاحق و هى تمنح إهتمامها كله لما تفكر فيه ، غير مُهتمة بنداء ابنتها المُستمر ، و مع كل دقيقة تقبر فى حانوت الزمن يتولد بداخلها شعورٌ عظيم بجنى ما ترنو له .

- دهاءُ النساء .. دهاءُ النساء يا ابنتىَّ يفت فى رجولةِ أعتى الرجال

- لا أفهم يا أمىَّ .

- إن استخدام القوة مع رجل مثل الناصرى لن تفلح ، ليس لإبابتهِ و لكن لعزوتهِ ، فاستخدام القوة سيجلب علينا وبالا عظيمًا مع يهود الناصرة و الجليل مما سيُشعل حربًا ضروسًا بينهم و بين هيرود ، الذى سينقلب علينا و يُضحى بنا إبتغاء مرضاة اليهود ، الذين لن تهدأ ثورتهم إلا بالقصاص منا .. أى أن استخدام القوة لإجبار الناصرى على الإنكسار أمامك ثمنه حياتنا .

ابتلعت سالومى لعابها بتعثر ، مُستشعرة بقاءها على قيد الحياة ، و هى تقول بعنادٍ طفولى يدفعها له غضبها :

- تهون الحياة دون كرامتىَّ و عزتىَّ .

- لن تهن حياتك ، و لن تهن كرامتك ، و الناصرى سيرضخ أمامك خاطبًا ودك ، و من ورائهِ أنصاره يدفعونه لذلك ، مُشيعين حبكما بالورد و الرياحين .

- كيف ؟

- دهاءُ النساء يا ابنتىَّ ، الذى جعل ملوكا تنزل عن عروشها خاطبة ود عامة النساء ، و الذى جعل والدك فاسيل يتحدى روما كلها ليتزوجنى رغم فقر أهلىَّ المُدقع .. دهاءُ النساء الذى يقلب موازين البشر .

- لا أفهم مقصدك .
- ما رد فعل العشائر اليهودية إذا ما بلغها أن أحد أبناؤها سيُولد لـه طفل نتاج علاقة غير شرعية ؟
صـمتت هيروديـاس عـن الكـلام ، مُتطلعـةٍ لجـواب ابنتهـا ، التـى لاذت بالصمتِ غير مُستوعبة ما تسمعه ، على حين استطردت الأولى كلامها بالإجابةِ على سؤالها :
- سيشرع اليهود لإتمام هذه الزيجة حتى لا يضيع نسلٌ لهم ، فهم قومٌ يعتزوا بنسلهم و ما تفرخه أصلابهم .
- لا أفهـم ، مـا علاقـة مـا قلتيـه الأن برغبتـىَ فـى الإنتقـام مـن الناصرى ؟
- يجب أن تلدى طفلا يُنسب للناصرى ، حتى تدفعه عشيرته لإتمام شرعية زواجه بك ، ليُنسب الطفل لهم .
- كيف أنجب من الناصرى و هو لا يقربنىَ ، و يتأفف من الحديث معىَ ؟
- أنا لم أقل إنك ستنجبين منه ، و لكنى ذكرت وجوب ميلاد طفل منك يُنسب له .
بدت أيات تعثر الفهم تنطبع على وجـهِ سـالومى ، مُحاولـة تفسير تلك الأحاجى التى تنطق بها أمها ، التى بلجت فى شرح ما رنت إليه :
- يجب أن يدخل عليك رجلٌ غريبٌ غير الناصرى مُداعبًا خاتميك ، فتلدين منه طفلا ، تنسبيه للناصرى ، مُدعيـة إنـه مَن غرر بك و دخل عليك كاشفا عذريتك فى حُرمانيةٍ يُحرمها دينهم ، فسيدفعه أهله وأنصـاره

إلى قصرك خاطبين ودك ، خاصة بعد ما بدر منك اليوم على مرأى ومسمع من العامةِ و الخاصةِ .

لقى كلام هيروديا هوًا فى نفس ابنتها ، التى جمح خيالها مُتخيلة يحى الناصرى راكعًا عند قدميها ، و الأصفاد تثقل يداه ، و من ورائهِ أتباعه و أنصاره يحثونه على الإقتران بها ، حتى لا يُصبح دم ابنهم منها عكرًا لحُرمانيةِ المُواقعةِ التى أثمرت عنه .

- و لكنىَّ لن استطع مُواقعة الرجال فى حُرمانيةٍ ، مُتجردة من آدميتىَّ لأجد نفسىَّ بعد ذلك حديث القصر و البلد كلها .. واحدٌ من العامةِ واقع أميرة رومانية ، أى شرف فى هذا ؟

- عندك حق يا ابنتىَّ ، لابد من طريقةٍ نتنصل من خلالها عن هويتك .

عادت هيروديا لوضع التفكير ، باحثة عن مخرج لما أشارت به على ابنتها .. يجب أن تتوه شخصية ابنتها سليلة عائلة أنتيباطر ، فارس فرسان المملكة الرومانية ، و حاكم مملكتى يهوذا و إسرائيل ، و والدها فاسيل الابن الأكبر لأنتيباطر ، و عمها هيرود العظيم ، الحاكم الحالى لمملكتى يهوذا و إسرائيل ، يجب أن تواقع مواقعة عامة النساء ، يجب أن تصبح أتنة يعتصرها حمارها فى عنفٍ و عشوائيةٍ ، لا فى كبرياء الأمراء و إبابة و ترفع النبلاء .

- مَن سيدخل عليك لن يرى ملامحك ، التى ستتوارى خلف شالا حريريًا ، سندّعى أنك إحدى جوارى الملك ، و قد فررت من مخدع النساء ساعية لتلبيةِ نداء الجسد ، الذى عف عنه الملك منذ أمد ، حتى

حتى فاض الكيل بك بعدما أصبح كالأرض البوار التى تشتاق للماء ، فعمدتى لمُناكحة الرجال ، و الشال يعلو رأسك حتى لا يتعرف عليك أحد ، فيشى بك عند الملك .

ابتسمت سالومى ، و هى تومأ برأسها مُصوحة بإطرائها بذلك الحل الذى ادلت به أمها ، مُتخلية عن تمنعها ، و صورة يحي راكعًا أمامها تحتل عيناها ، رافضة مُبارحة مُخيلتها .

- سأرسل فى طلب ثلاثة من الرجال ليدخلوا عليك .
- ماذا ؟
- حتى يُصبح الحمل أكيدًا .
- و لكن ...
- انتهى الأمر .

* * *

فى الصباح الباكر ، فى حديقةِ قصر هيرود ، ألتف هذا الآخير وهيروديلس و سالومى حول منضدة عمرت بملذاتِ الأطعمةِ و أطيبها ، و قد صب هيرود و زوجه إهتمامهما فى تناول شتى أصناف الطعام ، على حين بدت سالومى مُتأذية من جلستها ، و قد عفت نفسها عن تناول أى صنف ، و قد لاحظ هيرود عزوف سالومى عن الطعام حاسبًا رفضها إياه لعدم اشتهائها له ، فأشار بأصبعهِ بطريقةٍ ما استجاب على أثرها أحد خصيانه ، الذين يتسمرون على مقربةٍ منه ، عارضًا على سالومى الإدلاء بما تشتهى من أطعمةٍ ، و لكنها صرحت بعدم رغبتها فى الفطور ، و إكتفائها بمشاركتهما المائدة .

بدت سالومى شاردة ، تنظر إلى الأشياء بعين زجاجية ، غير مُهتمة بما يحدث حولها ، على حين بدت عينا هيروديا ترقمها من حين لآخر ، مُحاولة جذب إنتباهها قبل أن ينتبه هيرود لها مُحاولا فك طلاسم شرودها بدا المُناخ هادئا ، و الهدوء يسود الحديقة اللهم من صوت زقزقة العصافير ، و حفيف أوراق الشجر الذى يتراقص مع النسائم العليلة ، وصوت مضغ الأطعمة و قرع الصحف الرتيب ، بدرت حركة مُفاجئة من سالومى حولت المُناخ العام إلى النقيض ، و هى تنتفض من مرقدها واضعة كفها على فمها مُحاولة قبر رغبة فى التقيؤ تجتاحها ، و قد رحلت بعيدًا لتفرغ غثائها حاملة معها أنظار هيرود الدهشة دون نظرات هيروديا ، التى استمرت فى تناول الطعام كأن شيئا لم يكن ، على حين تساءل هيرود فى جهل :

- ماذا حل بسالومى ؟ .. أهى مريضة ؟

- لا ، بل مُصابها يُفشى عن حقيقة مُؤلمة .

- و ما هى ؟

- إن ما تعانيه سالومى لهو مُؤشرٌ واضحٌ إنها حُبلى .

ارتد هيرود فى جلستهِ مُعبرًا عن دهشته و استنكاره ، مُرددًا :

- حُبلى ؟!! .. مِن مَن ؟

- يبدو إنه رجلٌ لا نعرفه ، و لم نعهده فى القصر أميرًا أو رومانيًا ، إلا لكننا أبصرناه و علمنا مدى حبه لسالومى و باركنا علاقتهما ، حسبى أن إنكار سالومى لهذه العلاقة أن مَن واقعته وضيعُ الشأن ، من العامةِ أو حراس القصر .

عند هذا الحد انقلبت سحنة هيرود ، دافعًا المنضدة بما عليها من طعام وشراب لتعانق الأرض ، لافظة كل ما عليها ، ناهضًا من مرقده ، مُلقيًا بمقعده أرضًا ، و صور عبيد القصر تتوالى أمام عينيه و كل منهم يُواقع سالومى ، و كل منهما يتخذ من جسد الآخر لباسًا يُدارى به عورته ، فجن جنونه و هو يصيح باسم هذه الأخيرة ، التى مثلت أمامه ، و جسدها يرتعد ، و قد ظهرت آيات الإرهاق على وجهها ، فبدت كعصفورة تسكن شلالا فى برد الشتاء القارص .

- هل أنتِ حُبلى حقا ؟

بدا الفزع فى عينى سالومى ، و هى تبصر أمها ، كأنها تستنجد بها لتنقذها من براثن هيرود ، الذى يتربص لإجابتها ، ليفترسها فى ضراوةٍ كما يفترس الوحش فريسته ، و لم تجد من أمها سوى اللامُبالاة والتغاضى عن نصرتها ، كأنها تقر بما سيحدث لها ، و قد انتفضت على أثر تكرار هيرود لسؤالهِ مرة ثانية ، فقالت بحروفٍ مُرتعدةٍ ، مُوجزةٍ :

- نعم .

- مَن ؟

لاذت سالومى بالصمتِ ، و قد عانقت نظراتها الأرض فى خوفٍ ، على حين حاول هيرود أن يتمالك غضبه ، و هو يستطرد سؤاله :

- أهو أميرٌ رومانى ؟

- لا .

- أهو واحدٌ من القصر ؟

- لا .

احتار عقل هيرود فى التكهن بمن غازل سالومى ، و خشى لسانه أن يُشير كون مَن داعب خاتميها صعلوكٌ مِن العامة ، نجح فى إختراق قلعته ليُغازل إحدى نسائه ، و يُطارحها الفراش ، و لكن عيناه فضحت ما وقر فى صدره ، و قد قرأته هيروديا ، و أعلنته على مسامع ابنتها ، التى زاد توترها مع زيادة توتر هيرود ، و ترقبه لحركةِ شفاهها ، التى سكنت أثرة الصمت المُطبق ، و استجابة لصمتها و تحجرها صفعها هيرود صفعة قوية سقطت على آثرها أرضًا ، و يدها تعانق وجنتها المكروبة مُستنكرة ذلك الألم الذى حط عليها ، فصاحت فى عنادٍ حسبته نصرًا :

- نعم .. مَن طارحنى الفراش من العامةِ ، إنه يحي بن زكريا الناصرى ، نبى اليهود الذى ذل ناصيتك .

شعر هيرود بألم حاد يستعمر جسده ، و كلمات سالومى تدوى فى رأسهِ كأنها ألف ناقوس يُزلزله ، و صراعه مع يهود إسرائيل يمر أمام عينيه ، دالا على أنهم قوة لا يُستهان بها ، و جمعًا لا تهمل عشوائيته .

- و كيف نالك هذا اليهودى ؟

انهالت سالومى بكلماتها التى تعكس إنفعالاتها على مسمع هيرود ، قاصة عليه كيفية دخول يحي و أنصاره لقصره أثناء غيبوبته ، بعدما أمرت أمها بإعتقالهم نظير تجمهرهم أمام القصر مُنددين موت عيسى بن مريم ، و كيفية عزلها له فى قبو القصر عندما فاق هيرود من غيبوبتهِ و أمر بصلب المُعتقلين و إعدامهم فى ميدان عام ، و داخل قبو القصر كانت تطارح حبيبها الغرام على ضوء القمر ، بعدما تسرح حراسه ، ليثمر

عشقهما عن حمل ينمو فى أحشائها .

انهال هيرود على سالومى ركلا ، و هو يصيح فيها غاضبًا :

- هنا فى قصرىَّ أيتها الساقطة ، أنتِ مثل أمك .. ساقطة تهوى عبث الأجساد .

قال عبارته ، ثم ابتعد بخطواتهِ الموتورة ، و هو يُحادث نفسه بكلماتٍ لم يسمع حروفها أحد سواه :

- لقد هرولت بىَّ الأيام ليهن عظمىَّ ، و يشيب شعرىَّ ، و تخور قوتىَّ ، ليُصبح القتال أمنية أتمناها ، و ساحة النزال حُلم أتمنى أن يُرادونى فى منامىَّ ، و اليهود تزداد قوتهم يومًا بعد يوم ، فكيف لىَّ أن أخطب قتالهم و هم غلبة علىَّ ، خاصة بعدما عاديت السناتو بروما ؟ .. إن إنتقامىَّ من اليهود يعنى زوالىَّ من بلاد المشرق و من الحياة كلها .

نفذت كلماته من فمهِ ، على حين بدا عقله كمرجل ثائر ، و هو يبحث عن مخرج من مأزقهِ ، الذى دفعته إليه سالومى ، ابنة زوجه هيروديـاس ، الذى اشتهى جمالها النادر ، و تمنى أنوثتها التى أفتقر إليها فى نسائهِ ، و رغب فى طفولتها و حيويتها لتحرك أيامها الرتيبة ، و لكن حُرمانية نيلها وقفت حائلا بينه و بينها ، ليُدنى قطوفها عبدٌ من عبيده .

برقت عيناه ، و هو يتسمر فى مكانهِ ، مُبصرًا سالومى التى انهالت دموعها غزيرة ، و قد انعكس عليها نور الشمس ، فبدت عبراتها كحبات الألماس ، فهرول نحوها صائحًا :

- فى إحتفالية يوم مولدى سأدفع لك بأمنيةٍ لا ترد ، فتصرحين برغبتك فى مُباركتى زواجك من الأمير فلاديمير ، ذلك الأمير الرومانى

الذى ألحفتى على رفضهِ مرارًا .

قالت سالومى فى استهجان مزيج بالاستنكار :

- فلاديمير ؟!!

على حين قالت هيروديا بفزع من كاد مُخططه يُمنى بالفشل :

- و الناصرى ، مَن داعب خاتميها ؟

- سيُقتل .

- و لِمَ لا يتزوجها ، و ننعم بذريتهما .

- لا أنساب لليهود مع الرومان .

- لماذا ؟

- حتى لا يؤول حكم بلادهم لهم بعد مماتىَّ .

* * *

وقفت سالومى عند شرفة مخدعها ، مُبصرة قرص الشمس الدامى الآخذ فى الأفول ، و قد بدت شاردة الذهن ، غير مُستوعبة ما يدور حولها ، كأن روحها انسلخت من جسدها حيث عالم آخر ، يُشيده العقل الباطل ، و تدشنه الأحلام و الأمانى ، تاركة الجسد فى عالمنا المادى .

انحدرت دمعة حرى من عينى سالومى على وجنتيها ، صانعة الأخاديد ، و هى تبصر تلك الربوة التى كان يجلس عليها يحي عازفا أشجى ألحانه ، و قد رددت بحروفٍ تقطر حُزنا و حسرة :

- حسبى أن هناك حياة بعد الموت يُمكننا أن نحياها معًا دون فراق ، فالشمس تشرق بعد أفولها ، فهل لأفول حياتنا شروق يا حبيب العمر ؟

عادت سالومى لتبصر قرص الشمس ، الذى يودع الدنيا بنظرةٍ حزينةٍ ،

فبدت أنفاسها تتلاحق و هى تمنح إهتمامها كله لما تفكر فيه ، غير مُهتمة بنداء ابنتها المُستمر ، و مع كل دقيقة تقبر فى حانوت الزمن يتولد بداخلها شعورٌ عظيم بجنى ما ترنو له .

- دهاءُ النساء .. دهاءُ النساء يا ابنتىَّ يفت فى رجولةِ أعتى الرجال

- لا أفهم يا أمىَّ .

- إن استخدام القوة مع رجل مثل الناصرى لن تفلح ، ليس لإبابتهِ و لكن لعزوتهِ ، فاستخدام القوة سيجلب علينا وبالا عظيمًا مع يهود الناصرة و الجليل مما سيُشعل حربًا ضروسًا بينهم و بين هيرود ، الذى سينقلب علينا و يُضحى بنا إبتغاء مرضاة اليهود ، الذين لن تهدأ ثورتهم إلا بالقصاص منا .. أى أن استخدام القوة لإجبار الناصرى على الإنكسار أمامك ثمنه حياتنا .

ابتلعت سالومى لعابها بتعثر ، مُستشعرة بقاءها على قيد الحياة ، و هى تقول بعنادِ طفولى يدفعها له غضبها :

- تهون الحياة دون كرامتىَّ و عزتىَّ .

- لن تهن حياتك ، و لن تهن كرامتك ، و الناصرى سيرضخ أمامك خاطبًا ودك ، و من ورائهِ أنصاره يدفعونه لذلك ، مُشيعين حبكما بالورد و الرياحين .

- كيف ؟

- دهاءُ النساء يا ابنتىَّ ، الذى جعل ملوكا تنزل عن عروشها خاطبة ود عامة النساء ، و الذى جعل والدك فاسيل يتحدى روما كلها ليتزوجنى رغم فقر أهلىَّ المُدقع .. دهاءُ النساء الذى يقلب موازين البشر

ما طلبته ابنتها ، و سبب خطبها لمغفرتها ، و ختامًا لحيرتها و فشلها فى حل طلسم طلب ابنتها استكملت مسيرتها مُهرولة ، حتى لا تتأخر على هيرود ، الذى قبض على كفها بيدٍ و على كف سالومى بيدٍ أخرى ، مُتهدهدًا على سلالم القلعة التى كسيت بالورد و الرياحين ، حتى نزل على الجمهور ، الذى هلل باسمهِ ، و كبر بإنجازاتهِ ، حتى جلس على العرش ، و على يمينهِ هيروديـاس ، التى طبعت إبتسامة واسعة على وجهها خلت من الحياة ، و قلقها على ابنتها يُساورها ، و على يساره سالومى ، التى بدت واجمة ، ملامح وجهها جامدة ، و قد أشار بيمينهِ أن استكملوا الحفل ، فقرعت الطبول ، و صدح المُطربون بأجمل الأغانى ، التى تراقصت عليها الجوارى فى مجون ، جذب أبصار الحضور ، التى انساقت خلف الأجزاء العارية من أجسادهن ، و الشدق يسيل من الأفواه ممزوجًا بالتنهيدات الحارة التى تعبر عن اشتهائها ما ترى ، و قد لاحظ هيرود هذا ، فبرقت بارقة فى رأسهِ لِيُكسب حفله مذاقا خاصًا ، فأشار بيده أن ألزموا الصمت ، و قد نهض خاطبًا ، و قد أمر أن ترقص الجوارى و هن عرايا تمامًا ، دون أن يستر أجسادهن شيئا ، فأطبق الصمت برهة ، و العقول تستوعب ما سمعت ، و تستعد لتقبل ما هو آت ، حتى هتف العامة فى جذل مُشجعين الجوارى على الاستجابةِ لسيدهن ، و قد شرعن فى خلع ملابسهن باستحياء ، و الخجل يكاد يقتلهن ، و إن رفضن فسيف هيرود سيقضى عليهن الواحدة تلو الأخرى ، و مع كل قطعة تخلعها امرأة تتعالى الصيحات المُعجبة بجمال صاحبتها ، حتى تجردن تمامًا من ملابسهن ، لتعزف الموسيقى بهدوء ، و قد بدت

الأجساد مُتخشبة ، شبه ساكنة ، و قد خرجن من كياستهن مع صيحات الجمهور المُتذمرة ، المُتأففة ، التى تثير هيرود ، و قد تدفعه للتخلص منهن ليُسعد الحضور .

و مع إنتصاف الليل ، سكنت الموسيقى و رحلت الجوارى من الساحةِ ، تاركة الحضور مُنغمسًا فى لجةِ الخمر المُعتقة ، التى اذهبت العقول لتبق على الألسنةِ الثملةِ ، التى ألقت بما فى جعبتها عندما أعتلى هيرود منبره ، خاطبًا فى الحضور بصوتهِ الجهورى ، قائلا :

- لقد سعيتُ منذ أعوام عدة أن أجعل من هذه المملكة بلدًا مُتقدمًا ، يُضاهى الغرب فى نظامهِ و قوة جيشه و جمال معماره ، فباتت إسرائيل قطعة من روما ، اقتطعت لتنير بنور العلم و القوة على الشرق ، حتى أمست الدول و القبائل التى تحيط بنا تخشانا و تهابنا كمن يخشى الموت و يهاب الفقر .. لقد اصبحت إسرائيل اليوم أكبر و أعظم على الخارطةِ من ذى قبل بفضل الفتوحات و التوسعات العسكرية التى قمت بها ، وبفضل الجيش العظيم الذى دشنته لكى لا يُقهر ، و بعد ذلك كله اصبح من حقىَّ أن أعتزل ساحة القتال ، و اكتفى بما حققت ...

تعالت صيحات الجمهور المُوالى لهيرود مُستنكرة عليه مُبارحة تطلعاته فى الغزو و الفتوحات ، و التخلى عن حلمه فى سيادة العالم ، على حين استكمل الأخير عبارته مُعللا سبب إعتزاله القتال :

- إن للبدن حق على الإنسان ، فمن وقر فى شبابهِ وقرته شيبته ، ومن ضنى على شبابه ضنت عليه شيبته و أحنت ظهره ، و إحتفاءًا بهذه المُناسبة الميمونة ، ذكرى مولدى سأمنح سالومى ابنة زوجىَّ هيروديا س

أمنية لا ترد ، فاليوم مُطاعة أوامرها ، فلتتقدم منىَّ مُتمنية علىَّ .
نهضت سالومى من مرقدها ، و نظراتها مُتعلقة بأمها ، و لسان حالها يطلب منها المغفرة ، و قد خطت ببطء نحو هيرود ، الذى احتلت الإبتسامة وجهه ، صانعة أخدودًا غائرًا من شحمةِ أذنه اليُمنى و حتى شحمةِ أذنه اليُسرى ، و هو يُردد مُوجهًا عبارته للأولى :

- تمنى علىَّ يا جميلة الجميلات .

- روح يحي بن زكريا الناصرى ، من ولاه اليهود نبيًا عليهم ، ليسُودهم بعلمهِ أحكام دينهم المزعوم .

وقعت كلمات سالومى وقع الصاعقة على الحضور الذى لاذ بالصمت ، على حين فغر فلاديمير فاهه ، و قد تدلى لسانه فى بلاهةٍ ، و قد ظن الأولى ستطلب من هيرود أن يُبارك زواجهما كما أفهمه الأخير ، و من جانب آخر فقد جحظت عينا هيروديـاس و هى تحاول أن تستوعب ما سمعته ، و تجاوب على السؤال الذى يلح على رأسها مُراودًا إياها عن كياستها .. هل لطلب سالومى روح يحي الناصرى علاقة بطلبها السماح و المغفرة منها ؟ .. و عند هذا الحد تعالت ضربات قلبها و هاتف أخذ يطرق رأسها أن سالومى تسعى للقصاص من الناصرى مُضحية بنفسها ، فنهضت من مرقدها مُتجهة صوب ابنتها ، و قد قبضت على ذراعها بقوةٍ آلمتها ، و قد انزوت بها بعيدًا عن هيرود و أعينه المُتناثرة فى كل مكان ، لتسألها :

- لماذا نكصت عهدك معنا ؟ .. لماذا طلبت روح يحي الناصرى ؟

- لأننى فعلت ما فعلت ، مُهينة كرامتىَّ تحت وطأة كلاب البشر من

أجل إذلال الناصرى ، و تحقيق إنتقامىَ منه لا لأتزوج من ذلك التافه ، المُدلل فلاديمير .

- و ماذا بعد قتلك الناصرى ؟

- سأقتل نفسىً ، لأنىً لن أشاهده في الدنيا ، فبموتىً قد أناله فى حياة أخرى .

ضاق صدر هيروديساس ، و خوفها على ابنتها ينهل من رباطـةِ جأشـها ، و هى تستشعر ضياعها و هى مكتوفة الأيدى ، لا حول لها و لا قوة لمنعها من تنفيذ مُخططها ، و وسط ما يعتمل بصدرها من مشاعر القلق برق لها بريق أمل ، فتبدلت ملامحها الموتورة لملامح أقل توتر ، و هى تخاطب سالومى قائلة :

- و إذا تحقق لك ما تبغيه من القصاص من الناصرى ، و فى نفس الوقت رؤيته يوميًا .. هل تقلعين عن فكرة الإنتحار ؟

- و كيف هذا ؟

- بقطع رقبته ، و إحتفاظك بها أبد الأبدين .

لقى إقتراح هيروديساس هوًا فى نفس سالومى ، التى أومأت برأسها أن نعم ، و هى تقصد موقعها الأول أمام هيرود ، الذى ابصرها بعين نارية ، ودت القصاص و النيل منها ، و قد قالت بثباتٍ ، و ثقةٍ عظيمة بالنفس ، و حروفٍ واضحة استمدت ثباتها من ثقتها بنفسها :

- أبغى رأس يحي الناصرى المعروف بيوحنا المعمدان على طبق من فضةٍ ، على أن يأتينى قبل بزوغ أشعة الشمس .

- سلينى غيره .

- سلينى غيره .

- هو ذاك .

كان بين الحضور كبار كهنة اليهود و أحبارهم ، و من بينهم صدوقيا ، الذى رغب فى التخلص من يحي ، الذى هدم كل مُخطط للصدوقيين فى نيل حكم الجليل ، ليكن منهجهم و شريعتهم هى المُعمل بها داخل إسرائيل دون غيرها من مذاهب و شرائع آخرى بظهوره المُفاجئ بعد نجاته من صليب هيرود ، فتقدم من هذا الآخير مُستئذنا بالكلام ، و قد لبس ثوب المسكنة و الذلة :

- لقد اتفق كهنة الجليل مُؤخرًا من صدوقيين و فريسيين وسنهدريين أن السيد يحي المعروف بيوحنا المعمدان ، لتعميده الناس بالماء ، و والده السيد زكريا ليسا بأنبياء ، و الرب من نبوتهما براء ، و كونهما مُدعين على الرب و مُجدفين عليه بأباطيل المقال و الفعال استوجب قتلهما ، كما كان للسيد يحي أن راود العامة و الجهلاء لكسب عداوتكم مولاى ، لذلك أود أن أعلن على مسمع و مرأى منك و من عليةِ القوم تأييد اليهود الصدوقيين و كذلك طوائف كهنة الجليل لك فى إتخاذ القرار الحكيم بقتل ذلك المُخرب ، العابث بناموس موسى يحي بن زكريا الناصرى .

وجد هيرود راحة فى كلام صدوقيا ، و قد وجد فى حميتهِ على يحي مُبررًا للعامةِ لقتل هذا الآخير مُلبيًا رغبة سالومى ، دون إقحامه فى صراع مع اليهود يُهلك الحرث و الأمانى ، و لكنه شدد على صدوقيا مُعززًا موقفه بسؤالهِ :

- عذرًا سيد صدوقيا ، و لكن أليس كهنة الجليل و أحبار اليهود ومن

ضمنهم الصدوقيين مَن بشروا بنبوة السيد زكريا ، و قد أعلنتموه نبيًا عليكم ، ليُناطحني الصراع ، و أليس يحي هذا مَن بشرتم به إنه نبي آخر الزمان و ملك اليهود المُنتظر ، و مسية لكم ، فتجرأ عليَّ مُهينا سُلطانيَّ ، فلماذا أجتمعتم الأن على بطلان ما شرفتم بنسبهِ لهما ؟

تنحنح صدوقيا ، و قد لمس ذلك الشرك الذى أوقعه فيه هيرود ، فأخذ يختلق الأفاعيل الواهية لحين إيجاد مخرجًا لاستفسار هيرود ، و عيون الحضور مُسلطة عليه ، حتى سكنت سريرته ، بعدما بلغت مبلغها ، مُرددًا :

- إن الإنسان ليس بالرب حتى يُعصم من الخطيئةِ ، و لقد وقع كهنة الجليل و على رأسهم الصدوقيين فى خطيئةٍ عظيمةٍ ، كان منبعها شوق اليهود لنبى يربط زمام أنفسهم ، لذلك تسرعنا تحرى دلائل الرب المذكورة فى سطور توراتنا قبل أن نلصق النبوة بالسيد زكريا ومن بعده ولده يحي ، و أعظم الناس نفعًا للناس من يكتشف خطيئته ويُعلن عنها مُكفرًا ، مُنقذا بنى الإنسان ، لذلك انتهز هذه الفرصة لأعلن أن الجليل بكهنتهِ و أحباره براء من أفاعيل السيد زكريا و ولده يحي .

- حسنا .

رقص قلب هيرود طربًا مع كلمات صدوقيا البليغة ، التى احلت دم يحي و انقذته من صراع حتمى مع اليهود ، فألتفت لسالومى و الإبتسامة العريضة تفترش وجهه ، و رغبة القصاص

منها و رد الصاع صاعين لها تنازعه ، و تراوده عن نفسه ، قبل أن يقول :

- لكِ دم يحي الناصرى ، و لىَّ أن ترقصى عارية مثل الجوارى ، تناطح أثداؤك الهواء ، و تلامس أردافك برودة الأرض المُعبدة .

لم تدم دهشة سالومى طويلا مثل العامة بعدما اصغت لكلمات هيرود ، لعلمها أن الآخير لا يُرضيه من متاع الدنيا سوى أمرين لا ثالث لهما ، الفتوحات العسكرية التى ترضى غروره ، و النساء ، و مُتعته الجمة فى مُداعبة أجسادهن ، و لم تستنكر الإقدام على مثل هذا الفعل بعدما هان جسدها ، و قد طارح الأجانب من الرجال ، راغبة فى حمل سفاح تلصقه بإنسان برئ من نسبهِ إنتقامًا منه ، لذلك لم تمتنع و تعترض على طلب هيرود ، إذا كان فيه تحقيق لمآربها ، فأومات برأسها آن نعم وسط دهشة و استنكار الحضور ، الذى ظن فيها عدم الرضوخ لإسفاف هيرود ، الذى توقع أن غرور سالومى و رغبتها فى الإنتقام من الناصرى ستسوقها لشباكهِ عمياء كالبهيمة .

سمح هيرود لخصيانهِ أن يُبادروا بقرع الطبول ، و مع كل دقة هينة كانت سالومى تخلع قطعة من ملابسها ، و عيون الحضور ترقبها فى تحفز و شوق ، حتى باتت عارية تمامًا ، كالطفل حديث الولادة ، و قد بدت بصدرها النافر ، و أثدائها المُكتنزة ، و أردافها المُتناسقة ، وعودها المُهذب مثل البان غراء ، شماء ، رأسها عالية لم تعرف الخزى ، لتبدأ رقصتها ، مُتمايلة فى رشاقة ، مُغازلة النسائم العليلة بثدييها ، و مُقبلة الأرض المُعبدة بردفيها ، و هيرود لم يطرح بصره بعيدًا عنها إلا ليتناول قنينة الخمر ، التى لعبت برأسهِ و اذهبت رشده ، ليشر لسالومى التى انهت رقصتها ، مُنتظرة أوامر هيرود أن تسبقه إلى مخدعهِ الخاص

ليُطارحها الغرام فى حُرمانية .
لم تتردد سالومى فى تلبيةِ رغبة هيرود فى مُطارحتها ، و قد تقدمت نحو مخدعه ضاربة بثورة أمها عرض الحائط ، و نظراتها تسأل هيرود أن يفى بوعده ، فأمر الآخير خصيانه أن يحضروا رأس يحي الناصرى على طبق من فضةٍ ، و قبل شروق الشمس .

* * *

تماثل زكريا للشفاء ، خاصة بعد عودة يحي و رؤيته سالمًا كما بشرته مريم ابنة عمران ، و ما زاد من رغبتهِ فى الشفاء إعتدال العامة ، وتفهمهم لطبيعةِ الصراع الدائر بين الكهنة و بعضهم البعض ، و براءته مما نسب إليه .
ذات مساء ، دعا زكريا ابنه يحي ، و قد صَرّحَ له عن رغبته فى الصلاة داخل محرابهِ ببيت الرب ، الذى توحشه ، فأشفق الآخير عليه من مشقةِ الطريق ، خاصة و هو لم يُشفى تمامًا من سقمهِ ، و لكنه استسلم أمام رغبة الأول القوية ، التى بدت له كأنها القشة التى يتمناها مَن يغرق فى لجةِ الماء ، فساعده كى يبلغ مُراده ، و قد تعكز عليه زكريا ، و سعادته بعودتهِ إلى محرابهِ و المُثول بين يدى ربه حامدًا إياه على عودة ابنه سالمًا ، و نجاته من بطش هيرود تدفعه دفعًا تجاه محرابه ، ليخر ساجدًا لله و بجواره يحي ، الذى كان يدعو ربه أن يُنعم على والده بالصحةِ والعافيةِ ، و للناس بالهدايةِ و التعرفِ على طريق الحق و الصواب .
مع مرور الوقت ، زهد الليل فى الخلود ، و رغبة النهار فى الظهور تلح عليه بالإنزواء ، غلبت سِنة من النوم على زكريا ، الذى لم يفلح فى

الصلاة و التهجد أثناء الليل بسبب علله ، التى حرمته من مُتعةِ التواصل مع ربه ، على حين باشر يحي صلاته و نجاته ، و دموعه تسقط مُنهمرة من شدة خشوعه و طلبه التواصل مع الله .

غزت أصوات عنف نافرة عن هدوء و سكون الليل أذن زكريا ، لتخرجه من غفوتهِ مفزوعًا ، و عيناه تبحث عن سبب الأصوات ، فلاحظ غياب يحي ، فزاد توتره و قلقه عليه ، فصاح مُناديًا ، و لكن لا حياة لمن تنادى ، فتحامل على نفسهِ ساعيًا للخروج من محرابهِ باحثا عنه ، ليرى ما كاد يصرعه ، و قد شاهد ابنه أسير رجال هيرود ، و قد افقدوه الوعى قبل أن يحملوه ، فدفعه خوفه على ابنهِ إلى التخلى عن الإحساس بالمرض والعجز ، ليعدو نحوهم ، مُهلـلا فى مُحاولةٍ لإيقافهم ، و لكن خيولهم كانت أسرع منه ، و قد حملت جثمان ابنه و أخذت تبتعد عن ناظريه رويدًا رويدًا حتى اختفت ، فتولد قلق عظيم بنفسهِ أن هيرود سعى خلفه للقصاص منه بعدما فر من براثنهِ فى المرة الأولى ، خاصة بعد ما أتى به يحي حيال سالومى فى السوق ، فنادى بكل ما أوتى من قوة قد خارت طالبًا عون الجفون الغرقى فى النوم ، فظهر له رجل من العدم ، و كان الأرض لفظته ، و قد سأله قائلا :

- إلى أين أيها العجوز المُخرف ؟
- من أنت ؟ .. أنا لم أشاهدك من قبل ؟
- تحقق يا زكريا ، أنا من تخشاه و يخشاك ، و تبغضه و يبغضك .
- أنت أبليس اللعين .. لماذا جئت إلىَّ أيها القبيح الملعون ؟
- لأكتب نهايتك بيدى و أشاهد نهاية ولدك .

- كيف ؟

استيقظ البعض على آثر صيحات زكريا ، و قد التفوا حوله و عيونهم تسأل عن سر صراخه ، فصاح فيهم أبليس بصوتهِ المُفعم بالخبث والكره لبنى الإنسان ، و عيناه تلقى بشرر نظراته على من حولهِ ، نافذا لنفوسهم الواهنة ، و أصبعه يُشير نحو محراب صدوقيا الذى يُجاور محراب زكريا فى بيت الرب :

- لقد قتل السيد زكريا كبير الصدوقيين .. لقد قتل السيد صدوقيا ويُحاول الفرار بجريمتهِ مُستخدمًا سحره الأسود .

جحظت عينا زكريا و هو يُصغى للتهمةِ التى ألصقها به أبليس ، و قد لمس فيمن يُحيطون به أنهم وقعوا تحت سحره ، فصاح فيهم مُنبهًا :

- يا قوم ، إن من يُحرضكم ضدى هو عدوكم و عدو البشر .. إنه أبليس اللعين ، أنا لم أقتل السيد صدوقيا .

قرأ زكريا الرغبة فى النيل منه فى عيون من حولهِ ، و قد علم أنهم سقطوا تحت طائلة أبليس ، الذى يُسيطر عليهم ، فتحامل على نفسهِ ليفر بحياتهِ ، على حين انتهز أبليس الفرصة ليحث الناس على القبض عليه والنيل منه غضبة للسيد صدوقيا ، فعدا الناس خلف زكريا ، الذى سكن الأحراش عله يتوارى بين أشجارها الكثيفة عن عيون مُطارديه ، و لكن أبليس كان يُنير بصيرتهم ، دالا إياهم على موقعهِ ، و لكن نهاية زكريا لم تحن بعد ، و لم تكتب على هذه الشاكلة ، فدوى صوتٌ فى رأس هذا الآخير يحثه أن يسكن شجرة وارفة ، قد فتحت له كأنها منزل ينزل فيه ، مُتواريًا عن عيون مُطارديه ، فسكن إليها و قد اغلقت على مصراعيها

لتعود لشكلها الأول ، و قد اختفى زكريا فى قلبها ، و العيون الموتورة تبحث عنه بين الأشجار دون جدوى ، و لكن مَن تحن ساعته ، و تسقط ورقته ، و يتربص ملاك الموت به لا مفر من إنقضاء أمره ، حتى لو اجتمعت الدنيا كلها لتحول بينه ، و قد كتب الله نهاية زكريا فى هذا الحين و هذه الساعة ، فأوحى إلى أبليس أن طرف ثوب زكريا ظاهر خارج الشجرة ، فعمد إليها ماسكا الطرف ، صائحًا فى الناس :

- يا قوم ، إن زكريا دخل الشجرة بسحره ، فاقطعوا الشجرة بمنشار لننال منه .

عمد العامة إلى منشار قوى ليقطعوا الشجرة ، و يقتصوا من زكريا .

و داخل قصر هيرود ، خرج هذا الآخير من مخدعهِ و خلفهِ سالومى التى أخذت تعدل من هدامها ، و قد فرغ الأول من مُداعبة خاتميها ، وقد سكنت هيروديـاس بجوارهما ، و قد بلع اللسان المشقوق صرخاتها المُحتجزة ، العاجزة ، التى عجزت عن منع ابنتها من جنى الفحش ، وأمامهم و أمام الحضور ، الذى سكن دون رحيل رقد جثمان يحي المسجى ، الذى بدا عليه عنف و إعتداء رجال هيرود ، وقد صاح هيرود فيه :

- ماذا تملك أيها الراعى البائس لكى تملك قلوب العذارى ؟ .. إن حياتك و مماتك ملك يمينى ، فهل تستطيع تخليص نفسك ؟

- إن حياتىَ و مماتىَ من أمر ربىَ وحده ، أما أنت لا حول لك و لا قوة ، فأنت بشر ضعيف ، طالما سكنت الجيفة القذرة أحشاءك فأنت ميت لا محال .

فلتقطع رأسه جزاء صفاقته .

- إن دخولك عليها باطل .. باطل .

قالها يحي و هو يُشير بأصبعهِ نحو سالومى ، التى جحظت عيناها كون يحي علم بشأن دخول هيرود عليها ، على حين أقترب أحد خصيان هيرود من الأول و بيديه سيف بتار ضرب به عنقه دون رحمة ، و فى نفس الآن قطع أولياء الشيطان الشجرة ، ليسقط جثمان زكريا على الأرض و قد بتر لنصفين ، و آيات النصر تعلو وجوه قاتليه .

انتفضت سالومى من مقعدها و هى تبصر الدماء التى انفجرت من عنق يحي بغزارة ، كصنبور زهد فى السكون ، فأتى بما فى جوفهِ فى إبابةٍ ليُغرق الحضور ، كأن الجثمان يُعلن إشتراك الكل فى قتلهِ ، و قد سعت خلف الرأس المقطوعة ، التى تدحرجت بين أقدام الحضور ، كأنها تشهد على فزعهم ، و جزاعة نفوسهم التى تأففت مما رأت ، حاضنة إياها ، والقطرات الملحية تسيل من عينيها غزيرة ، غير مُصدقة ما حل بمَن عشقته و تمنته يومًا خدينا لها ، و قد بات رفاتا أخرسًا ، خلت منه الحياة ، و قد رددت بصوتٍ نبراته مشروخة ، و حروف اختلطت بصوتِ النواح ، فضلت صوابها :

- حققت ما أبته نفسىَّ ، و سعيت خلف ما راودنى إليه شيطانىَّ ، وحرمت عينىَّ من رؤياك ، و أذنىَّ من سماع همسك ، فاغفر لىَّ ذلتىَّ ، فموتك بات راحة لك ، و بداية لآلامىَّ التى لن تنته ، و عذاباتىَّ التى لن تندمل ، فوداعًا يا حبيب أيامىَّ .

همت سالومى أن تقبل الرأس الساكن بين يديها ، لولا أنها ابصرت عينا

يحي تحملق فيها بحياة ، و شفاهه تردد عبارته المُستنكرة ما أتاه هيرود بها ، فسقطت الرأس منها كردة فعل طبيعية لاستنكارها ما حل بها ، وقد شاركها الحضور ذلك الاستنكار الذى تعدى حدود العقل ، ليتحول لخوفٍ و قلق ، على حين تصور لسالومى أن عبارة يحي ما هى إلا عتابٌ بين الأحباء ، فراودها إحساس بمدى قذارة ما اقترفته من إهانةِ جسدها ، الذى أصبح مرتعًا لكل من هب و دب و عشق المُحرمات ، وهذا فى عُرف الأحباء خيانة ، فظنت أن يحي يُعاتبها لخيانتها عهده ، فنظرت لأمها بعين نارية ، و التحفز يدفعها للنيل منها ، كونها أشارت عليها بكل ما كان له أن يُفرق بينها و بين يحي ، و كان له أن يجنى أيامه ، وعبارته تدوى فى أذنها كأنها ناقوسٌ يأذن لها بالإنتقام ، فنهضت والغضب المُعلن فى عينيها يُقر بتوعدها لأمها ، و قد اعلنته بعبارتها الغاضبة ، التى جعلت هيروديا تنكمش فى مقعدها غير مُصدقة ما حل بإبنتها ، التى صاحت مُتوعدة :

- أنتِ سببُ ما حل بيَّ ، أنتِ من استوجب قتله لا يحي الناصرى ، أنتِ من علمنى الدناسة و قبح ...

ابتلعت سالومى عبارتها المُتوعدة ، و قد نكصت عن العدو نحو أمها ، وقد شعرت بالأرض تزأر أسفل قدميها ، و قد ضربها زلزال عظيم ، أحال الواقف جالسًا ، و الجالس راقدًا على وجههِ ، و قد تعالت صيحات الاستغاثة لتصل إلى عنان السماء ، التى تبدلت عتمتها للون الشفق الدامى بغتة دون ميقاتها المعلوم ، و قد برقت و ارعدت ، راسلة قطرات ماء ثقيلة إيذانا بهطول الغيث ، على الرغم من كون الطقس صيفا ، كأنها

تكشر عن أنيابها غضبة لإهانةِ الأنبياء و الغدر بهم ، فعملت الأقدام على الفرار دون هدى ، و قد اعتلت رؤوسًا انحنت فى ذلةٍ و مسكنةٍ بعد تعال و غرور ، لتكسرها دون رحمة ، مُتبعة قانون الغاب .. البقاء للأقوى ، على حين انشقت الأرض أسفل هيروديـاس ، و قد ابتلعتها كما يبتلع الوحش فريسته ، لتطبق راحتيها على منكبيها فى قسوةٍ حطمت عظامها ، و قد تعالى صوت تهشيم العظام كأنه قرع الصحاف ، ليُغطى على صرخاتها التى تطلب الرحمة و الخلاص ، بعدما تخلى عنها أقرب الناس لها ، فارين بحياتهم من مَلك الموت ، الذى يسعى لحصد أرواح البشر دون هوادة أو كلل ، حتى هيرود فر بحياته متخليًا عن آيات الفروسية و النبالة ، تاركا إياها وسط دموعها و آناتها ، على حين تسمرت سالومى أمام جثمان أمها و قد ملكتها الدهشة من مرأى أمها ، مُجردة إياها من آيات الخوف و الفزع التى إنتابت الجميع ، و قد حاولت فى إستماتةٍ إخراجها من مرقدها دون جدوى ، كأن الأرض أقسمت ألا تبرحها ، فحل اليأس على هيروديإس و قد علمت أن نهايتها آتية لا ريب فيها ، فقالت سالومى راجية إياها و الدمع يستجدى رحمتها :

- إلىَّ يا ابنتىَّ بالسياف ليعجل بموتىَّ .

تعاطفت سالومى مع أمها ، مُتمنية لها الموت رأفة بحالها ، فجالت عيناها بحثا عن صاحب السيف ، الذى نال من يحي ، و لكنها لم تبصر سوى الوجوه الفزعة ، التى تحاول أن تتوارى من الموت ، و بين حالة الهرج و المرج التى تدور رحاها حولها ابصرت ذلك السيف الذى نال من حبيبها ، فعمدت إليه مُهرولة ، قابضة عليه بيد مُرتعشة ، ملوثة

أصابعها بدماء الناصرى الذى لطخه .

- سوف أضرب عنقك بنفس السيف الذى نال من يحي الناصرى غدرًا و بهتانا .

- لكِ أن تعلمى بُنيتىَّ أن ما أعانيه الأن من عذابٍ هو كفارة عن ظلمى للناصرى ، و تجبرى عليه ، فانجى بنفسك و بطفلك من لعنتهِ .

ضربت سالومى عنق أمها بيد مُرتعشة ، ودت لو نكصت عن واجبها ، ثم حملت رأس الناصرى و فرت بها على غير هدى ، هاربة من قصر هيرود إلى البرارى و الأحراش .

-١٤-

كرت الأيام ، و مضت الليالى ، و عيسى لا يشعر بمضى الأيام و الليالى ، و لا يحس بشروق الشمس و غروبها ، و قد غاب عن الزمان و المكان ، و غاب عن كل شئ إلا عن الله ، فهو يفكر فيه بذهنهِ ، و تنبض بذكره خفقات قلبه ، و يُردد لسانه و هو ساجدٌ .. ((ألهىَّ ، أرنى نور وجهك)) ، و قد باتت حواسه كلها ألسنة تتضرع إلى الله أن يَمن عليها بالنور .

و ذات مساء ، و القمر يتوسط السماء بنوره الخافت ، و عيسى شاخص فى السماء ، سمع هذا الأخيرُ حفيف صوت ، فقطع خلوته و شروده ، وقد التفت حوله خافق القلب ، فرأى جبريل ، فجفل فى خوفٍ ، ثم أخذت الطمأنينة تعود إليه رويدًا رويدًا ، فلما أفرخ روعه ، قال له الروح الأمين :

- إن الله أرسلك رسولا إلى بنى إسرائيل .

و راح يُعلمه الكتاب و الحكمة و التوراة و الأنجيل ، و عيسى يُصغى فى تؤودةٍ و صبر ، و قد أحس بشفافيةٍ داخله و نقاء .

تصرمت أربعون ليلة و عيسى مُنغمسًا فى مُناجاتهِ ، يتعلم من جبريل ما يُمليه عليه ، و قد استرسل شعره ، و طالت لحيته ، و غاضت تلك الوداعة التى كانت تشع من وجههِ ، و قد تحولت لقوةٍ و بأس شديد ، و ها هو يُودع أيام الدُعة و الهدوء ، و يستقبل أيام النضال و الجهاد ، حيث ودع خلوته قاصدًا إسرائيل ، حاسبًا الإضطهاد الذى سيُلاقيه من أهلهِ ، فما جاء أحدٌ بمثل ما جاء به إلا اضطهده الناس و عادوه ، ليُفجع

فيما حدث للمدينةِ و قد حل بها الخراب ، فلم يبق الزلزال على أى قائم إلا و أقعده ، و جعله رمادًا يُعانق رماد ، لتمسى المدينة نزلا للأشباح ، أو أطلالا تبكى عندها العيون على ماض انقضى .

عندما علم عيسى بما حدث لزكريا و ابنه يحي ضاق صدره ، و اكفهر وجهه و قد لمس فى مُصابهما مُستقبله ، فما أهين نبى إلا فى قومهِ ، ولكن ما كان يُعزيه قصاص الله من بنى إسرائيل ، مُحللى دم الأنبياء والمبعوثين ، و قد أصبح العبوس و التجهم آياتهم ، و كساد التجارة ورواج الجوع مشاعهم ، بعدما فقدوا الشعور بالأمان مع قتلهم زكريا ، و الإحساس بالضياع ، و غضب الرب عليهم مُنصب بصمتهم و عزوفهم عن الأخذ بثأر يحي من قتلتهِ ، و قد سكن جثمانه جوار بيت الرب ، ليُصبح آية بعد مماته كما كان آية فى حياتهِ ، و قد ظل عنقه يجود بالدماء دون توقف ، صانعًا بركة عظيمة حوله ، و كأن الدم ينبع من بئر لا تنضب لا من جسد إنسان واهن .

لمس عيسى حاجة الناس الماسة لوجود نبى يُعضدهم و يُؤازرهم ويُسوقهم لدرب الرب ، كى يرفع عنهم غضبه و مقته ، فعمد إلى بيتِ الربِ فى أحدِ أيام السبت ، و قد ارتقى الدكة التى أعتاد الكتبة و الكهنة التكلم منها ، و قد أشار بيده إيماءًا ليصمت الحضور ، فقال مُتنحنحًا وصوته يجرى فى الآذان كأنه النغم ، لحلاوة ما فيه من صدق المشاعر التى تناساها العامة :

- (تبارك اسم الله القدوس الذى من وجوده و رحمته أراد فخلق خلائقه ليمجدوه ، تبارك اسم الله القدوس الذى خلق نور جميع القديسين

و الأنبياء قبل كل الأشياء ليُرسله لخلاص العالم كما تكلم بواسطةِ عبده داود قائلا .. قبل كوكب الصبح فى ضياء القديسين خلقتك ، تبارك اسم الله القدوس الذى خلق الإنسان من طين الأرض ، و جعله قيمًا على أعمالهِ ، تبارك اسم الله القدوس الذى طرد الإنسان من الفردوس ، لأنه عصا أوامره الطاهرة ، تبارك اسم الله القدوس الذى برحمتهِ نظر بإشفاق إلى دموع آدم و حواء أبوى الجنس البشرى ، تبارك اسم الله القدوس الذى قاص بعدل قايين قاتل أخيه و أرسل الطوفان على الأرض ، وأحرق ثلاث مدن شريرة ، و ضرب مصر ، و أغرق فرعون فى البحر الأحمر ، و بدد شمل أعداء شعبه و أدب الكفرة ، و قاص غير التائبين ، تبارك اسم الله القدوس الذى برحمتهِ اشفق على خلائقهِ فأرسل إليهم أنبياءه ليسيروا فى الحق و للبر أمامه ، الذى انقذ عبيده من كل شر و أعطاهم هذه الأرض كما وعد أبانا إبراهيم و ابنه إلى الأبد ، ثم أعطانا ناموسه الطاهر على يد عبده موسى لكى لا يغشنا الشيطان ، و رفعنا فوق جميع الشعوب ، و لكن أيها الإخوة ماذا نفعل اليوم لكى لا نجازى على خطايانا ؟) ، لقد تكاسل العامة فى التقرب من الله ، ليضلوا السبيل و يُضيعوا كلمة الله ، لينغمسوا فى ملذاتِ الدنيا الزائلة ، مُتناسين عقاب الآخرة الدائم الذى أعد للخارجين عن تعاليم الله التى هداها لموسى النبى ، اتقوا الله حق تقاته ، و تسابقوا على طلب الرحمة و المغفرة منه ، عله يسمع منكم و يتوب عليكم ، لقد أهلك الكهنة روح الدين بصراعاتهم الجانبية للحصول على متاع الدنيا ، ليتحول الدين بفضلهم لتجارة كاسدة ، نازعين منه القدسية ، لقد أصبح الكهنة أسوء مثال للعبد العابد الضال ،

الذى يتعبد فى محراب الله لغير الله ، أى سوء أنتم فيه أخوتىَّ !! .. توبوا معىَّ إلى الله ، فرُب دمعة حرى من عين تائب حق تغفر له ما أتى من ذنبٍ ، حتى و لو كان مثل زبد البحر الذى لا ينقضى و لا يزول .
انهى عيسى كلماته الخشنة التى أثرت فى العامةِ ، الذين انهالت دموعهم الحرى ، و تعالت أصوات نواحهم ، و الكل يدعو من قلبهِ طالبًا الرحمة و المغفرة من الله ، راجين أن ينقذهم من الجوع و التشرد و الأوبئة التى تسعى بينهم ، ناهلة منهم الصحة و البدن ، الكل بكى ما خلا الكهنة والكتبة و العلماء الذين اضمروا لعيسى الشر ، لتطاولهِ عليهم بالمقال ، و قد حسبوه آخر العقبات التى تحيل بينهم و بين العامة و التسيد فى إسرائيل ، على حين استطرد عيسى قوله ، قائلا :
- لقد شاهدتم ما أتيت به من معجزاتٍ أيدت كونى المسيا المُنتظر ، و ملك اليهود المُرتقب ، الحق أقول لكم .. و أنا على جبل الرب أطلب عفوه و رحمته مَنَ علىَّ بالرسالةِ و بكتاب رشيد يسود على البشر ، مُكملا ما أتى به موسى النبى ، اسمه الإنجيل ، الحق أقول لكم .. لقد أذن لىَّ الرب أن أنال عرشىَّ و مُلكىَّ فى الأرض ، أن أنال عرش اليهود ، ولا تحسبن مملكتىَّ فى الأرض بل تحسب عند الله فى جنتهِ ، و جندى ممن سيتبعونى فى درب الهدى .
بكى الشعب و هم يُرددوا بصوتٍ واحد قوى ، دب الرعب فى قلب الكهنة و العلماء :
- ليكن كذلك يا رب .. ليكن كذلك يا رب .

* * *

مضت بعض أيام ، و عيسى يُلاحظ تحرش الكهنة به ، و تربصهم لأفعاله ، فى مُحاولةٍ منهم للنيل منه ، فعمد إلى جبل الزيتون بعدما ضاق ذرعًا بالناس ، و قد تسلل خلسة أثناء غفوة تلاميذه ، و أخذ يُصلى أثناء الليل ، غير عابئ بوحشةِ الجبل ، و صَمتُ الليل و سكونهِ الذى يجعل الرجفة تدب فى الأوصال ، و قد لهاه التضرع للهِ عن ملاحظة نور الشمس الذى يغزو الدنيا من حولهِ ، بأساطيل من الأشعةِ الدافئةِ ، و هو يقول خاشعًا ، و الدمع يُزين وجنتيه :

- (يا رب إنىَّ عالمٌ أن الكتبة يبغضونىَّ ، و الكهنة مُصممون على قتلىَّ أنا عبدك ، لذلك أيها الرب الإله القدير الرحيم اسمع برحمةِ صلواتُ عبدك ، و انقذنى من حبائلهم لأنك أنت خلاصىَّ ، و أنت تعلم يا رب أنىَّ أنا عبدك ، إياك أطلب يا رب ، و كلمتك أتكلم ، لأن كلمتك حق هى تدوم إلى الأبد) .

انهى عيسى كلماته ، ماسحًا العبرات التى تفشت على وجههِ ، مُبللة لحيته ، ليفتح عينيه ليجد أمامه الملاك جبريل ، فارتعد جسده لوهلةٍ ، قبل أن يعتاد الوضع ، مُصغيًا لقولهِ ، و قد ردد قائلا :

- (لا تخف يا يسوع ، لأن ألف ألف من الذين يسكنون فوق السماء يحرسون ثيابك ، و لا تموت حتى يكمل كل شئ ، و يُمسى العالم على وشك النهاية) .

خر عيسى على وجههِ إلى الأرض ، كعبد يسجد لسيده فى طاعةٍ محمودةٍ ، مُرددًا بصوتٍ مُفعم بالتردد :

- (أيها الرب العظيم ، ما أعظم رحمتك لىَّ ، و ماذا أعطيك يا رب

مُقابل ما أحسنت به إلىَّ) .

- (انهض يا يسوع ، و اذكر إبراهيم الذى كان يُريد أن يُقدم ابنه الوحيد إسماعيل ذبيحة لله ليتم كلمة الله ، فلما لم تقو المدية على ذبح ابنه قدم عملا بكلمتىَّ كبشًا ، فعليك أن تفعل يا يسوع خادم الله)

- (سمعًا و طاعة ، و لكن أين أجد الحمل و ليس معىَّ نقود و لا تجوز سرقته) .

أشار الملاك جبريل نحو تلة قريبة ، فأسرع عيسى نحوها ، ليجد كبشًا أملحًا ، سمينا ، يرقد فى هدوء و سكينة ، مُستسلمًا ليد عيسى ، التى عقرته فى سرعةٍ ، مُقدمًا إياه ذبيحة لله ، حامدًا و مُسبحًا له .

فور إنتهاء عيسى من إبتهالاتهِ شعر بالسكينةِ تغزو صدره لتبدد ظلمة الخوف ، الذى عشش به ، و لكن هدوءه و سكينته لم تدم طويلا ، فقد رنا إلى سمعهِ صوت واهن يُشبه صوت تكسر الأعشاب ، فشعر أن هناك مَنْ يُراقبه ، و يتربص به ، فتوارى خلف شجرة ضخمة ، و قد أرهف سمعه مُتعرفا على مكان المُتلصص ، و بعدما حسبه هرول نحوه بخفةِ النمر وشجاعة الأسد ، مُنقضًا عليه بغتة ، و قد قبض على رأسهِ ، و ...

- أنت .. ماذا تفعل هنا ؟ .. و لماذا تتربص بىَّ ؟

كان يهوذا الأسخربوطى مَنْ يتعقب خطوات عيسى دون سائر التلاميذ ، وقد بدا عليه الاضطراب ، و هو يُحاول أن يتوارى بنظراتهِ حتى لا تلق نظرات عيسى ، مُحاولا البحث عن إجابة لأسئلةِ هذا الأخير ، فقال بحروفٍ موتورة ، ودت لو سكنت حلقه و لم تخرج :

- لقد .. لقد رغبت فى حمايتك سيدىَّ ، فنحن نعلم جميعًا رغبة الكتبة

و الكهنة فى التخلص منك ، فوددت أن أكون سيفك الذى تضرب به ، والدرع الذى يحميك من بطش المُعتدين .

- حسنا يا يهوذا .. حسنا ، و لكن لا تقرب هذا المكان مرة أخرى ، فما يُقره الرب لا يُبطله إنسان ، فإن كُتب علىَّ أن ينالنى كهنة اليهود لن يطرحهم عنىَّ بشر ، و إن كُتب لىَّ النجاة لن يُسلمنى لهم كائن .

- عذرًا سيدىَّ ، و لكن ...

- صهين ، و دعنا نمضى حيث المدينة .

* * *

سقطت سالومى على الأرض مغشيًا عليها ، بعدما نال منها الإرهاق ، و قد سكنت الأحراش ، لتعدو من بقعةٍ إلى آخرى دون هوادة ، مُحتمية بدموعها من خوفها و ظلمة الغابة ، و صورة أمها هيروديا و قد قطع رأسها والدم يُكللها تطاردها أينما حلت ، مُعلنة أنها قاتلة ، أتت على أمها دون وجه حق ، و قد استطاعت يداها عقرها دون رحمة كما تعقر الشاة ، حتى دوى أنين خلاياها المُتعبة مُستجدية إياها أن تكف عن العدو ، و لكن الذعر الذى حل عليها حال بين أمانيها فى راحةِ البدن و سكينة العقل ، فظلت تعدو دون واجهة تقصدها ، حتى اعلنت خلاياها العصيان عليها ، لتنهار فى حدةٍ مُسقطة إياها فى غيبوبةٍ .

و بين عتمة أحلامها رأت رأس أمها و قد سكنت كفى امرأة ، غطى النور المُشع من وجهها ملامحها ، و قد زينه إبتسامة واسعة ، فرددت فى عطفٍ و استجداء :

- أمىَّ ، حنانيك بىَّ ، ما فعلته كان رحمة بك ، و ما كان السيف إلا

لخلاصك .

ترنمت رأس هيروديباس بكلماتٍ تقطر حروفها بشر و سعادة ، و هى تقول :

- حنانيك بنفسك يا أبنتىَّ ، ما تسميه أثمًا كان خلاصًا و نجاة لىَّ فى الدنيا و فى حياة ما بعد الموت .

- كيف يا أمىَّ ؟

- لقد كانت قسوة الأرض المُعبدة و هى تعتصر جسدىَّ كفارة عن آثامىَّ و ذنوبىَّ فى الدنيا ، بينما كان سيفك إيذانا بنهايةِ عذابىَّ و آثامىَّ فى الأرض ، و إعلانا لمولدى فى عالم آخر ، لا يُجدى فيه الجسد شيئا ، و لا يُوجد فيه مكانا للآثام .

انحدرت دموع سالومى الحارة على وجنتيها ، و قد عانقت نظراتها الأرض فى إنكسار و هى تردد بصوتٍ واهن ، انهارت حروفه من شدة التعب :

- لقد ساء الحال بىَّ يا أمىَّ ، و أصبحت منبوذة و مكروهة من الجميع ، و اليهود يطلبون دمىَّ كرامة ليحي ، الذى أمرت بقطع رأسه دون وجه حق .

- لقد تجبرنا على ذلك الناصرى يا ابنتىَّ .

- ماذا أفعل يا أمىَّ ؟

- عليك بهيرود .

- لقد فر بنفسهِ حيث أتباعه و جلاوزته فى روما .

- عليك بالمدينةِ و الناس .

- سيقتلونى كرامة ليحي الناصرى .

- اهبطى على دار النبوة ، دار التقوى و الصلاح .. اهبطى على دار داوود .
- و أين دار داوود هذه ؟ .. و كيف أصل إليها ؟
- إنها دار يحي يا أبنتىَّ ، تلك الدار التى أحلناها لدار حزن و أسى .. اقصدى البتول .. العذراء .
- من ؟
- من شفعت و دعت أن يُغفر لىَّ .. من ضمدت جروحىَّ و أسكتت أنينىَّ و سامحتنى ، إنها مريم أم ملك اليهود .

قالت سالومى فى استهجان مزيج بالدهشةِ :

- اليهود ؟
- اذهبى ، و ضعى حملك بين يديها ، إن كان وليدك ذكرًا فليكن يحي ، و إن كانت أنثى فلتكن مريم ، تيمنا بالبتول خير النساء .
- و لكن ...
- اذهبى ، فلتكن نجاتك .

استيقظت سالومى من غفوتها ، و التجهم يعتلى وجهها ، و قد بدت مُتخشبة فى مكانها كأنها تمثال حى ، و هى تحاول أن تعقل ما شاهدته أثناء غفوتها ، و لم يدم تجهمها طويلا ، فقد تحاملت على نفسها آلام جسدها المُضرم بالقروح ، و هي تجتاز الغابة المُوحشة قاصدة المدينة ، و أصابعها تقبض على رأس يحي بإصرار ، و قد عمدت أن توارى ملامحها بقطعةٍ من الحرير كانت تزين منكبيها ، عامدة إلى طرق نائية هجرها العامة ، حتى لا يتعرف عليها أحد فيتكالب عليها اليهود ، و يقتصون منها شر قصاص ،

حتى باتت أمام منزل مُتواضع ، رابض على الأرض فى وقار بطابقهِ الوحيد ، فطرقته طرقة واحدة ، واهنة ، أعقبتها بأن سقطت على الأرض مغشيًا عليها ، ليسقط الرأس معها ، ليتدحرج على الأرض حتى استكان أمام الباب فى هدوء ، كأنه حن لأيامهِ الخوالى .

بعد حين ، فتحت سالومى عينيها فى بطئ شديد ، و آلام حادة احتلت رأسها أخذت تخامرها ، فبدت الرؤية بادئ الأمر مشوشة ، و قد هالها أن امرأة تجلس بجوارها و قد طبع على وجهها شبح إبتسامة مريرة ، فاعتدلت فى جلستها و قد تحسنت الرؤية ، لتجد نفسها بين يدى مريم ابنة عمران ، وعلى مقربةٍ منها رأس مَن أحبت و هوت ، فأشاحت بوجهها و هى تردد بلسان مُتلعثم ، و عين تحن لوجهِ حبيبها :

- أنا لا أستحق عطفك يا سيدتىَّ ، فأنا سبب أحزانكم ، أنا ...

قاطعتها مريم مُربتة على كتفها :

- إن حياتنا مخطوطة بمعرفة الرب ، فإن أصابنا خير فمن عنده ، وإن مسنا شر فمن عندنا .

- سيدتىَّ أنا ...

قاطعتها مريم للمرة الثانية و هى تقول :

- أعلم ما تريدين قوله ، أما الأن فعليك بالراحةِ و السكينةِ .

- و لكن ...

- أعلم يا ابنتىَّ كنيتك ، فأنت سالومى ابنة هيروديا زوجة هيرود ، و التى امرت رجالها بقطع رقبة يحي بن زكريا دون وجه حق .. أعلم يا ابنتىَّ .

- إذا لماذا استقبلتنى فى بيتك ؟ .. أللقصاص داويتنى أم للعذاب تأوينى ؟

- لا هذا و لا ذاك ، فأنت مَن حضر إلى هنا و طرق الباب ، فما كان منىَّ إلا استقبالك ، لقد دخلتى دارىَّ و أنتِ مغشيًا عليك فما كان لىَّ إلا تمريضك حتى تتماثلى للشفاء ، و الأن لماذا أتيت إلى ديار داوود و بينك وبين أهلها ثأر لن يخمد إلا بالقصاص منك ؟

بدت سالومى شاردة بوجهها الساكن ، و هى تعقل كلمات مريم ابنة عمران ، و تبرر خوفها من آل بيت داوود و هى التى ارتمت فى أحضانهم بمحض إرادتها ، فقالت مُجاوبة على سؤال مريم :

- لقد .. لقد زارتنى أمىَّ فى حلم ، و أوصتنى أن آتى إلى دارك بحثا عن الخلاص ، مُلتمسة كفارة عن ذنبىَّ مع آل داوود ، كما أوصتنى أن أضع حملىَّ بين يديك مُعلنة براءة يحى منه ، فإن كان المولود ذكرًا كان يحى ، و إن كان أنثى كانت مريم تيمنا بك سيدتىَّ ، لعل مُستقبلها يكون أنقى و أوضح من أيامىَّ الغابرة .

انهت سالومى عبارتها المُسهبة ، لتطلق العنان لدموعها لتنهار فى غزارةٍ ، على حين تبسطت مريم مع حدة الحديث ، و قد وضعت كفها على بطن الأولى ، لتجس حملها ، و قد قالت لها :

- بمشيئةِ الرب حملك أنثى ، سترعى و تتربى فى كنفِ دم مقدس ، وستحمل سر من أسرار الأرض .

استرعت كلمات مريم إنتباه سالومى ، و لكن إحساسها بالجُرم جعلها تلتزم بالصمت ، على حين قرأت مريم حيرتها و شرودها ، فقالت حاسمة ذلك

الصراع الذى يعتمل بداخلها :

- طالما أنتِ ساكنة أحد بيوت داوود فأنت فى مأمن تام من غضب أهلها و بطشهم ، و لن تجدى منهم إلا الترحاب و كرم الضيافة ، و قد قبر الغضب فى معقله ، هذه تعاليم اليهودية .

ثبطت مخاوف سالومى مع إتساع إبتسامة مريم ، و قد لاذت بالصمت فترة وجيزة قبل أن تقول مُتسائلة :

- هل لىّ بسؤالك عن دين يحي الناصرى ؟

أومأت مريم برأسها آن نعم ، على حين استطردت سالومى أسئلتها قائلة :

- هل يسمح دينكم بوطء الأجساد دون علاقة شرعية ؟

- إن فى وطئ الأجساد دون علاقة شرعية إختلاط فى الأنساب ، وإهانة للجسد البشرى ، و طواعية للشيطان الذى يسعى لجعل المرأة سلعة رخيصة الثمن ، يواقعها من يملك ثمنها ، و الرجال كلاب شهوانية تسعى خلفهن فى وثنيةٍ .

- و ماذا عن الحق و العدل ، السماحة و الطهر ؟

علمت مريم أن سالومى تطرق باب الإيمان باليهودية تشبهًا بيحي و تقربًا منه ، فأخذت تسرد لها مآثر دين موسى ، و رسالة ابنها عيسى ، آخر من سيُبعث فى بنى إسرائيل من دم داوود و من بيتهِ ، و قد أتت رسالته مكملة لناموس موسى ، هذا و الدهشةُ تحتل الأخيرة لتتحول لإنبهار جعل عيناها تبرق ، و فاهها يفغر ، بعدما طرب مسمعها و حن قلبها ، ليزداد حبها لآل بيت داوود ، كما ازداد حزنها على يحي ، و رغبة القصاص من نفسها كفارة عن أثمها تراودها ، على حين قرأت مريم فى عينيها رغبتها فى

التطهر من آثام حياتها السابقة بالنيل من أيامها القادمة ، فقالت لها :

- إن مآثر الإنسان مكتوبة عند الرب ، فكل ما يلم بنا قدر و مكتوب ، فالخير من عند الرب ، و الشر من عند الإنسان ، فحبك ليحي الناصرى قدر ، و هلاكه بيدك مكتوب .

ارتمت سالومى فى حضن مريم ، و الدموع الملحية تستقر على مكنب هذه الأخيرة ، و قد قالت الأولى فى إيجاز :

- دثرينى بفضيلةِ دينكم .

* * *

تفشت الأوبئة و الأمراض بين الناس ، و قد أصبحت أورشليم كأنها قاعًا صفصفا ، و قد باتت الناس كجذوع نخل منقعر ، لا تملك إلا أن تتهادى فى الشوارع حاملة أمراضها معها .

بعدما فشل الكهنة و الكتبة فى مُداواة العامة أو إدخال الطمأنينة و أمل الشفاء و إنقشاع الغمة عنهم ، ألتفوا جميعًا حول عيسى ، طالبين منه أن يدعوا ربه أن يُخفف عنهم آلامهم ، و أن يرتضى منه كفارة عن تخاذلهم فى نصرة زكريا و ولده يحي ، حينئذ أجتاحت رغبة عظيمة فى مساعدة الناس قلب عيسى ، الذى كان يعلم من جبريل أن ساعته قد دنت ، فأراد أن يبث بعض تعاليم الرب فى القلوب المريضة ، حتى لا يرحل و يترك الجهلاء منهم ليدِ الكهنة من الفريسيين و الصدوقيين ، يتلاعبون بهم كما يتلاعب الطفل بدميتهِ ، فقال بنبرات مُنفعلة :

- (ادعوا المرضى ما بلغوا لأن الله رحيم و قادر على شفائهم)

قال أحد الشيوخ بصوتٍ مُتهدج ، أحاله المرض لهمس واهن :

- (لا نعلم إنه يُوجد مرضى آخرون هنا فى أورشليم) .

سقط عيسى على أقرب صخرة ، و الدموع الملحية تبلل لحيته ، و هو يقول راثيًا حال مدينته البائس :

- (يا أورشليم .. يا إسرائيل ، إنى أبكى عليك لأنك لا تعرفين يوم حسابك ، فإنى أحببت أن أضمك إلى محبة الله خالقك كما تضم الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدى لذلك ؟ .. يقول الله لك هكذا .. أيتها المدينة القاسية القلب ، المُرتكسة العقل ، لقد أرسلت إليك عبدى لكى يُحولك إلى قلبك فتتوبين ، و لكنك يا مدينة البلبلة قد نسيت كل ما أنزلت بمصر وفرعون حبًا فيك يا إسرائيل ، ستبكين مرارًا عديدة ليُبرئ عبدى جسمك من المرض ، و أنت تطلبين أن تقتلى عبدى لأنه يطلب أن يشفى نفسك من الخطيئة ، أتبقين إذا وحدك دون عقوبة منىّ ، أتعيشين إذا إلى الأبد ؟ .. أو يُنقذك كبرياؤك من يدى ؟ .. لا البتة ، لأنىّ سأحمل عليك بأمراء و جيش ، فيُحيطون بك بقوةٍ ، و سأسلمك إلى أيديهم على كيفية تهبط بها كبرياؤك إلى الجحيم ، لا أصفح عن الشيوخ و لا الأرامل ، لا أصفح عن الأطفال ، بل أسلمكم جميعًا للجوع و السيف و السخرية ، و الهيكل الذى كنت أنظر إليه برحمةٍ إياه أدمره مع المدينة ، حتى تصيروا رواية و سخرية و مثلا بين الأمم ، و هكذا يحل غضبىّ عليك ، و حنقىّ لا يهجع) .

فاق عيسى من ثورتهِ و غضبهِ على صوت نواح الحضور ، و عباراتهم المُستجدية ، فكان الرجال يبكون بحرقةٍ و النساء تلطم على وجناتهن بأصابع كالصخر ، حفرت بصماتها بقسوة على الوجوه ، و قد تقدم البعض منهم من الأول مُقبلين قدمه ، و قد لطخت الدموع الملحية أصابع قدمه ،

، التى نفرت من أياديهم ، و نبذت من شفاههم ، و قد أشار لهم بيديهِ أن ألزموا الصمت ، و هو يُردد من بين دموعه الحارة ، التى حنت لحال العامة :

- (ألا تعلمون إنه يوجد مرضى آخرون ؟ .. لعمر الله أن أصحاء النفس فى أورشليم لأقل من مرضى الجسد ، و لكى تعرفوا الحق أقول لكم : أيها المرضى لينصرف باسم الله مرضاكم عنكم)

قالها عيسى لينهض القعيد ، و يبرأ المريض من مرضهِ ، و قد علت صيحات الفرحة لتصم الآذان غير مُصدقة ما حل بالأبدان ، و من بين حشود العامة الغبطة تقدم كهل يتكأ على عصاه ، و قد كان وجهه عبوسًا قمطريرًا ، و قال مُوجهًا كلماته المُوجزة لعيسى ، قائلا :

- و ماذا عن لعنة إسرائيل ؟

قالها الرجل كأنها الناقوس الذى قرع ليصمت الجميع ، مُنتبهين لمُصابهم العظيم ، و العبارات المُتضرعة التى تبغى الرحمة تنهال على مسمع عيسى ، الذى قال :

- (يقول الله .. إذا بكت أورشليم على خطاياها ، و جاهدت نفسها سائرة فى طرقىَّ فلا اذكر آثامها فيما بعد ، و لا ألحق بها شيئا من البلبلة التى ذكرتها ، و لكن أورشليم تبكى على دمارها لا على إهانتها لىَّ ، التى بها جدفت على أسمى بين الأمم ، لذلك زاد حنقىَّ إحتدامًا ، لعمرى أنا الأبدى لو صلى لأجل هذا الشعب .. أيوب و إبراهيم و صموئيل و داود ودانيال و موسى عبيدى لا يسكن غضبىَّ على أورشليم) .

قالها عيسى و انصرف عائدًا من حيث أتى ، تاركا الحضور الذى ألتف

حوله فريسة للخوف و الرعب ، الذى احتل نفوسهم أوسوء إحتلال ، فإن برأت أجسادهم من المرض فقد أصبحت نفوسهم مطية للخوف من غضب الله عليهم و وعيده لهم .

* * *

عمد الكهنة و الكتبة إلى مُضايقة نساء بيت عيسى من أمهِ مريم ابنة عمران و مريم المجدلية ، التى سكنت

بجوار الأولى ، تتعلم منها مآثر اليهودية و قصص الأنبياء و الرُسل ومُعجزاتهم ، فكانوا يتحرشوا بهن عند خروجهن من البيت لقضاء حاجة ما ، و يلقون على مسامعهم أسوء الكلمات التى يندى لها الجبين ، ويتجرأوا عليهن بالفعال التى يبرأ منها الصغار من مشانتها ، و نساء البيت يمضين فى سكون دون مُجاراة المُعتدين فى عدوانهم .

و مع سكون نساء عيسى على تطاول الكهنة ، تمادوا فى عصيانهم و قد سلطوا عليهن الأطفال ليقرعوا الأبواب و النوافذ فى أوقات مُتأخرة ، فتقلق مريم ابنة عمران فتنهض من غفوتها داعية لمُتربصيها بالرحمة و المغفرة ، على حين توترت أعصاب مريم المجدلية و سالومى ، و ما زاد من توترهم إلقاء البعض بالقاذورات و الأشواك على باب دارهم ، فإن لم تدم الأشواك أقدامهن عند الخروج من الدار لقضاء الحاجة أذتهم رائحة القاذورات ، و جعلت أنوفهن تتأذى من رائحة الطيب و تعتاد على الكريه .. كل هذا و الصبر يعضد قلوب نساء المؤمنات .

و ذات ليلة و مريم تسكن محرابها مُتعبدة و مُتصفحة التوراة زارها الملاك جبريل ، و قد ألفت زيارته المُتكررة فلم ترهب رؤيته ، و لكنها كانت تعلم

أن زيارتـه لا تكن إلا بوحى من الله لينذرها أمرًا شديد البـأس ، و صدق حدسها ، فقد قص جبريل على مسامعها الإضطهاد الذى حاق بعيسى من اليهود ، و الذى إن دل فيدل على إقتراب نهاية رسالته ، و دنو ساعته ، وعند هذا الحد بكت مريم حُزنا على وليدها ، ظنا منها بأنه سيُقتل على يد اليهود من فريسيين و صدوقيين ، و لكن الملاك جبريل قال مُطمئنا :

- (لا تخافى يا مريم ، لأن الله سيحميه من العالم) .

* * *

أصر سمعان الذى كان أبرصًا و برأ على يد عيسى بإذن ربه على دعوة الأخير و تلاميذه على العشاء فى داره ، و قد قبل عيسى و جلس هو وتلاميذه خلف مائدة الأول ، و كانت أخته تدلف بصحاف الطعام الواحدة تلو الأخرى ، حتى عمرت المائدة بما لذ و طاب .

ظهرت أخت سمعان عند باب الغرفة و بيديها طبق كبير تتصاعد منه الأبخرة ، و أخذت تتحسس خطاها و هى تدنو من المائدة لتلقى ما بيدها ، ولكن القدر عاندها ، فقد تعثرت قدماها ليسقط الطبق من يديها ليستقر بطيبه على عيسى ، مُلطخا ثوبه الأبيض ، الذى تصاعدت منه الأبخرة .

و من فوره ، ساد الهرج و المرج ، و انتفض تلاميذ عيسى مُلتفين حوله ، مُحاولين تطهير ثوبه ، على حين سارعت أخت سمعان فى طلب قطعة من القماش نظيفة لتطهر بها رأس عيسى و ثوبه ، و لكن يهوذا الأسخربوطى جذب منها قطعة القماش عنوة وسط دهشة الجميع ، و هو يُردد بعين تلمع ببريق الطمع :

- (اذهبى و بيعى الطيب و أحضرى النقود لكى أعطيها للفقراء) .

قال عيسى و الدهشة ترسم آياتها على جبينهِ :

- (لماذا تمنعها ؟ .. دعها فإن الفقراء معكم دائمًا ، أما أنا فلست معكم دائمًا) .

- (يا مُعلم ، كان يُمكن أن يُباع هذا الطيب بثلاثين قطعة من النقود ، فانظر إذا كم من فقير كان يُمكن مُساعدته) .

- (يا يهوذا ، إنيَّ لعارف قلبك ، فاصبر أعطك الكل) .

انهى عيسى حواره مع يهوذا الأسخربوطى ، و قد ربت على كتفِ أخت سمعان ، التى أخذت تقبل قدماه مُستجدية مغفرته ، و قد دعا الجميع للطعام بدا الوجوم على وجوه تلاميذ عيسى ، و أصابع أيديهم تتباطئ على الصحاف ، و حزنهم على رحيل مُعلمهم يُؤلمهم ، على حين بدا وجوم وشرود يهوذا لغير ما انجذب له أترابه ، فقد شعر بالهزيمةِ لأنه خسر ثلاثين قطعة من النقود بعدما رفض عيسى بيع الطيب الذى سقط عليه ، وقد احتل ذهنه صورة العامة خاصة من مَسهم إعجاز عيسى و هم يتصارعوا على شراء أى شئ يمسه ، لنيل بركته .

انفض مجلس عيسى ، و رحلوا من بيت سمعان الأبرص ، و قد تبع التلاميذ عيسى فيما عدا يهوذا الأسخربوطى ، الذى تعلل بقضائه بعض الأمور لآل بيته لينفصل عنْ جمعهم ، و قد أتجه للهيكل حيث الكهنة و الكتبة ، و قد دخل عليهم مُقتحمًا مجلسهم دون إلقاء التحية ، فقال له صدوقيا فى دهشةٍ أكتسبها ممن حوله :

- ماذا هناك يا سيد يهوذا ؟

- (ماذا تعطونى و أنا أسلم إلى أيديكم يسوع ، الذى يُريد أن يجعل نفسه ملكا على إسرائيل) ، هكذا صَرّحَ لنا فى مجلسهِ الأخير .

اعتدل صدوقيا فى مجلسهِ ، مُحاولا استيعاب ما سمعه ، على حين تعالت الهمهمات المُستنكرة حديث يهوذا ، على حين قال واحد من الكتبةِ ، و قد عقد حاجباه دهشة و استنكارًا مُوجهًا سؤاله ليهوذا :

- (ألا كيف تسلمه إلى أيدينا ؟) .

- (متى علمت إنه يذهب إلى خارج المدينة لِيُصلى أخبركم و أدلكم على الموضع الذى يُوجد فيه ، لأنه لا يُمكن القبض عليه فى المدينةِ بدون فتنة) .

تهللت أسارير الكهنة و الكتبة ، و قد أومأ صدوقيا برأسهِ أن نعم ، و هو يقول فى جزل طفولى :

- (إذا سلمته ليدنا نعطيك ثلاثين قطعة من الذهب ، و سترى كيف أعاملك بالحُسنى) .

برقت عينا يهوذا ببريق الجشع ، غير مُصدق إنه سينال مبلغا كهذا وحده دون شريك يُنازعه فيه ، فسال زبد الطمع من شدقيهِ و قد لوح بيده أن أعطونى المال ، فقبض صدوقيا على كيس نقود كان يستقر فى حزام سرواله ، و قذفه نحو هذا الآخير ، الذى فشل فى إلتقاطهِ من فرط سعادته ، ليسقط على الأرض ، و تنفرط القطع الذهبية من داخلهِ ، ليرقص قلب يهوذا طربًا على إيقاعها ، و هو ينحنى جامعًا إياها فى نهم جعله كلبًا يلهث خلف فريسته ، و الأنظار تتعلق به ، مُبصرة جشع الإنسان ، الذى خلق به ، و به وحده سيموت .

و فى صباح اليوم التالى ، تقدم عيسى و خلفه تلاميذه من الهيكل ، الذى عمر بالناس ، الذين أمتدت خطاهم خارجه ، و الكل مُجتمع ليُبصر عيسى ، الذى وعدهم برحمةٍ من الله ، تنجيهم من الأمراض و الأوبئة التى أخذت من أجسادهم مرتعًا .

هبط شمعون كبير الفريسيين من المنبر الرئيسى فى الهيكل ، و كان يخطب فى الناس عندما أبصر عيسى يدنو منه ، و قد تعلقت به عيون العامة و هو يُثنى على الله و يحمده على نعمهِ ، تمهيدًا لحوار جلل استوقفه قيافا بسؤالهِ الذى طرحه على عيسى أمام الملأ ، و قد قال :

- (قل لىَّ يا يسوع ، أنسيت كل ما كنت قد اعترفت به من أنك ابن الله و المسيا المُنتظر ؟)

- (لا البتة لم أنس ، لأن هذا هو الإعتراف الذى أشهد به أمام كرسى دينونة الله فى يوم الدينونة ، لأن كل ما كتب فى كتاب موسى صحيح كل الصحة ، فإن الله خالقنا أحد و أنا عبد الله ، و الذى تسمونه المسيا)

قال قيافا و هو يلوح بيده على إمتدادها :

- (فما المُراد من المجئ إلى الهيكل بهذا الجم الغفير ؟ .. لعلك تريد أن تجعل نفسك ملكا على إسرائيل ؟ .. أحذر من أن يحل بك خطر) .

تحفز تلاميذ عيسى للتهجم على قيافا و من معه من كهنةٍ و كتبةٍ ، بعدما اشتموا فى كلمات هذا الآخير نية الغدر بمعلمهم ، الذى أخبرهم قبل ذلك أن ساعته قد دنت ، فحسبوا أن ساعته ستنقضى فى هذا اللقاء ، فغلبتهم الحمية برد السوء عن معلمهم ، و لكن عيسى أشار لهم أن توقفوا قبل أن يقول ردًا على سؤال قيافا :

- (لو طلبت مجدىَ و رغبت فى نصيبىَ فى هذا العالم لما هربت ، لما أراد أهل أورشليم أن يجعلونى ملكا ، حقا صدقنى أنىَ لست أطلب شيئا فى هذا العالم) .

هنا انتفض حنان من بين الكتبة ، و قد قال بصوتٍ جهورى رنت حروفه فى أركان الهيكل ، و قد سمعه مَن يسكن خارج الهيكل :

- (نحب أن نعرف شيئا عن مسيا)

عند هذا الحد ألتف جميع الكهنة و الكتبة من فريسيين و صدوقيين حول حنان و قيافا ، صانعين حلقة مركزها المنبر الذى يعتليه عيسى ، الذى بدا الخوف يطرق باب قلبه ، و قد أحس أن سويعات حياته تكر منه ، و مع هذا بدا صامدًا ، ثابتا و هو يقول بملئ صوته :

- (ما هو ذلك الشئ الذى تريدون أن تعرفوه عن مسيا ، لعله الكذب ، حقا أنىَ لا أقول لك الكذب ، لأنىَ لو كنت قلت الكذب لعبدتنى أنت و الكتبة و الفريسيون مع كل إسرائيل ، و لكنكم تبغضوننى و تطلبون دمىَ لأنىَ أقول لكم الحق) .

- (نعلم الأن أن وراء ظهرك شيطانا ، لأنك سامرى و لا تحترم كاهن الله) .

- (لعمر الله ليس وراء ظهرى شيطان ، و لكن طلب أن أخرج الشيطان ، فلهذا السبب يسير الشيطان على العالم ، و لأنىَ لست من هذا العالم بل أطلب أن يُمجد الله الذى أرسلنى إلى العالم ، فأصغوا السمع لىَ ، أخبركم بمن وراء ظهره الشيطان ، فالشيطان وراء ظهره و قد وضع عليه لجام إرادته و يُديره أنى شاء ، حاملا إياه على الإسراع إلى كل إثم ، كما

أن اسم الثوب يختلف بإختلاف صاحبه و هو هو الثوب نفسه ، هكذا البشر يختلفون على كونهم من مادة واحدة بسبب أعمال الذى يُعمل فى الإنسان ، إذا كنت قد أخطأت فلماذا لم توبخونىً كأخ بدلا من أن تبغضونى كعدو ؟ .. حقا إن أعضاء الجسد تتعاون متى كانت مُتحدة بالرأس ، و إن ما انفصل منها عن الرأس فلا يُغيثه ، لأن يدى الجسد لا تشعران بألم رجلى جسد آخر ، بل برجلى الجسد الذى هى مُتحدة ، لعمر الله الذى تقف نفسىً فى حضرتهِ أن مَن يخاف و يُحب الله خالقه يرحم من يرحمه الله الذى هو رأسه ، و لما كان الله لا يُريد موت الخاطئ بل يُمهل كل أحد للتوبةِ ، فلو كنتم من ذلك الجسد الذى أنا مُتحد فيه لكنتم لعمر الله تساعدوننى لأعمل بحسب مشيئته)

أخذ الكهنة و الكتبة يجزون على أسنانهم من الغيظ ، و هم يُشاهدوا آذان الناس مُصغية لكلام عيسى ، و قد طربوا له ، فأمتلأت نفوسهم بغضب جم حيال عيسى و أتباعه ، تحول لرغبة للخلاص منه ، على حين بدت رغبة حنان هى إنزال عيسى من المنبر ، حتى يفوق العامة من تأثير كلماته ، وما فت أن يصيح بعبارة ما مشتتا بها تركيز الناس ، حتى صاح فيه البعض بخشونةِ ألزمته الصمت ، على حين استطرد عيسى عبارته المُسهبة ، قائلا

- (إذا كنت أفعل الإثم وبخونىً يحبكم الله ، لأنكم تكونون عاملين بحسب إرادته ، و لكن إذا لم يقدر أحد أن يُوبخنى على خطيئة فذلك دليل على أنكم لستم أبناء إبراهيم كَما تدعون على أنفسكم ، و لا أنتم مُتحدون بذلك الرأس الذى كان إبراهيم مُتحدًا به ، لعمر الله أن إبراهيم أحب الله ، بحيث إنه لم يكتف بتحطيم الأصنام الباطلة تحطيمًا ، و لا يهجر أبيه و أمه ، و لكنه يُريد أن يذبح ابنه طاعة لله) .

انهى عيسى كلماته ليسود الصمت على الهيكل ، اللهم من الأنفاس المُتلاحقة من فرط النشوة ، على حين بدا قيافا جامدًا ، و هو يُبصر عيسى بعينٍ زجاجية ، و قد أيقن أن ثقة الناس فى عيسى لن تهتز إلا بإثبات إنه مُدعى و مُجدف ، و يُزايد على ناموس موسى ، فأخذ يعتصر رأسه بحثا عن آية يُجاريه فيها ، حتى برقت عيناه ، و فغر فاهه بابتسامةٍ صفراء ، وقد وجد ضالته فى كلماتِ هذا الآخير ، فابن إبراهيم فى ناموس موسى هو إسحاق ، فإن قال عيسى غير ذلك فيُمكنه أن يرميه بالتجديف و مُغايرة ناموس موسى ، كما أتى من قبل فيما يخص مريم المجدلية ، و مُخالفة نص موسى فى مُعاقبة الزانى و الزانية بالرجم حتى الموت ، فوجه سؤاله لعيسى كاسرًا الصمت المُطبق :

- (إنما أسألك هذا و لا أطلب قتلك ، فقل لنا من كان ابن إبراهيم هذا ؟)

أجاب عيسى :

- (إن غيرة شرفك يا الله تؤججنىَّ ، و لا أقدر أن أسكت الحق ، أقول أن ابن إبراهيم هو إسماعيل ، الذى يجب أن يأتى من سلالتهِ مسيا الموعود به إبراهيم ، أن به تتبارك كل قبائل الأرض) .

عندما سمع قيافا إجابة عيسى التى توقعها صاح بكل ما أوتى من قوةٍ ، و هو يُحاول أن ينال الأول من على منبره :

- (لنرجم هذا الفاجر ، لأنه إسماعيلى ، قد جدف على موسى و على شريعة الله) .

ساد الهرج و المرج ، و كل من الكتبة و الكهنة ، الفريسيين و الصدوقيين ،

و كذلك بعض شيوخ العامة ممن لا يؤمنون بعيسى يلتقطون الحجارة ليرجموا عيسى ، وقد نجح تلاميذه فى حمايته و إخراجه من الهيكل سالمًا ، و قد تسبب إختفائه فى إشعال جذوة غضب و حنق الكهنة ، فأحتدم الصراع بين العامة ممن آمنوا بعيسى و رأوا مُعجزاته و كهنة الجليل و ممن عادوه ، و قد أسفر الصراع عن سقوط العشرات ما بين جرحى و قتلى ، ليصبح الهيكل ساحة قتال و سفك دماء بدلا من باحة صلاة و تعبد ، على حين عمد عيسى و أتباعه إلى بيت سمعان الأبرص ليحتمى به ، و قد أشار عليه أحد المؤمنين به و كان يُدعى نيقوديموس أن يحتمى بضيعته التى تسكن خلف جدول ماء يُطلق عليه قدرون ، حيث قال له بصوت مُستجدى ، مستعطف عيسى أن يُصغى له :

- (يا سيد لىَّ بُستانا و بيتا وراء جدول قدرون ، فأضرع إليك أن تذهب إلى هناك مع بعض تلاميذك ، و أن تبقى هناك إلى أن يزول حقد الكتبة ، لأنىَّ أقدم لك كل ما يلزم ، و أنتم يا جمهور التلاميذ امكثوا هنا فى بيت سمعان و فى بيتىَّ ، لأن الله يعول الجميع) .

وافق عيسى على إقتراح الرجل ، و شعور الرحيل عن الدنيا يُغامره ، فأختار أن يمكث بعيدًا عن ابن الإنسان الذى ظلمه فى دنيا الله ، فعمد إلى بستان الرجل مع تلاميذه .

على حين خمدت ثورة الموتورين داخل الهيكل مع مضى الزمن و كثرة مَن سقطوا جرحى أو قتلى ، و قد أعتلى قيافا المنبر مُلوحًا بيديهِ للصمتِ قبل أن يستنشق نفسًا عميقا يُثبط ثورته و هو يُردد :

- ماذا نفعل أيها الإخوة ؟ .. ألا ترون أنه قد أضل العالم كله بعملهِ

الشيطانى ، إذا لم يكن ساحرًا فكيف أختفى من بيننا و قد كان يعتلى هذا المنبر و كنا نحن الكهنة و الكتبة نحاصره كما تحاصر جهنم الكافر ؟ .. حقا إنه لو كان طاهرًا و نبيًا لما جدف على الله و على موسى خادمه ، و ما كان أدعى إنه مسيا أمل إسرائيل ، و ماذا أقول ؟ .. فقد جدف على طغمةِ كهنتنا برمتهم ، فالحق أقول لكم إنه إذا لم يزل من العالم تدنس إسرائيل ودفعنا الله إلى الأمم ، انظروا الأن كيف قد تدنس هذا الهيكل المُقدس بسببهِ انهى قيافا عباراته المُحتجة ، التى نجحت فى أن تفت فى قلوب ضعاف الإيمان بعيسى ، فأرتد البعض عن ملته ، مُعلنا تعدى هذا الآخير على الله و نبيه موسى ، و قد شاع بين الناس أن عيسى مشعوذ و ساحر ، يأتى الناس بسحره ، فتحول الإضطهاد السرى لعيسى و أتباعه إلى إضطهادٍ علنى ، أخذ يزحف على المنازل ، طارقا قلوب ضعاف الإيمان ، ليُصبح هذا الآخير هدفا لكل مَن أراد أن يُصبح بطلا يُباركه الكهنة .

* * *

عمد قيافا و حنان و معهما صدوقيا و شمعون إلى الوالى الرومانى الذى تقلد أمور أورشليم و الناصرة بأمر من قيصر روما ، بعدما وقعت إسرائيل تحت الحكم الرومانى مرة آخرى بعدما فر هيرود منها ، و قد قصوا عليه ما بدر من عيسى داخل الهيكل ، و قد أدعوا عليه إنه يُخدر الناس بسحره ليُؤازروه لكى يُصبح ملكا على إسرائيل دون قيصر روما ، فما كان من الوالى الرومانىَ إلا أن دعا سائر أعضاء مجلس الحكم لإقامة مجلس عام لينظر فى نيةِ عيسى فى أن يُصبح ملكا على البلاد ، و كان هناك العشرات ممن عادوا هذا الآخير شهدوا عليه إنه كان يدعى إنه المسيا و ملك اليهود

المُنتظر ، فما كان من أعضـاء المجلس إلا أن اقروا أمران ، يتوعدوا فى إحداهما بالموت مَن قال أن عيسى نبيًا مُرسلا من عند الله رب اليهود ، ويتوعدوا فى الآخر بالموت من يُشاغب أو يتجمهر بشأن عيسى .

لم يُطرب الكهنة لقرارات المجلس الرومانى ، التى نالت من العامةِ دون عيسى بغيتهم ، ليبق الأمن سائدًا فى المدينة دون خراب قد تخلفه التجمهرات ، و هذا ما يسعى إليه الوالى دائمًا دون غيره من متاعب الحكم ، و هذا يتعارض مع رغبة الكهنة فى التخلص من عيسى نهائيًا ، حتى يخلو لهم وجه الهيكل و العامة ، فحاول جمع الكهنة فى استمالةِ رؤوس أعضاء المجلس الرومانى ، مُدعين ضرورة التخلص من عيسى ، لأن أنصاره فى تزايد مُستمر ، و ما يجعل قتله حتميًا علاقته بنبوخذنصر البابلى ، الطامع فى خير بلادهم ، كما أن اليهود يبغون القصاص منه لإنه جدف على الله و تعدى على نبيهم موسى ، و أدعى إنه المسيا المُنتظر أمل اليهود ، فكان الإنشقاق بين أعضاء المجلس ، فمنهم مَن رأى أن يُخاطبوا قيصر روما عارضين عليه الأمر ، و منهم مَن رغب فى ترك عيسى ، غاضين البصر عنه كأنه معتوه ، و كل جانب يُدافع عن وجهة نظره ليخلى وجهه أمام قيصر ، فقال الوالى فاضًا النزاع الذى كاد أن يتحول لصراع :

- كيفما كانت الحال ، فإن بين أيدينا مُعضلة ، لأننا إذا قتلنا هذا الباغى دون استئذان قيصر خالفناه ، و إن تركناه حيًا و جعل نفسه ملكا فكيف يكون المآل ؟

لمس حنان تردد الوالى و تحسبه لغضب قيصر روما ، فأراد أن يحسم الأمر دون دابر ، و بين طرفة عين و آخرى انقلبت سحنته ، و قد عقد

حاجباه فى شدةٍ ، مُشيرًا بطرف إنمله نحو الوالى مُرددًا :

- احذر من أن يكون عطفك على ذلك الناصرى باعثا على ثورة هذه البلاد ، لأنىَّ أتهمك بالعصيان أمام قيصر .

قرأ حنان آثر كلماته على وجهِ الوالى ، و قد بدا مُتخشبًا ، ساكنا دون حراك كأنه يعقل أمر ما ، و قد بدت نظراته للكهنةِ خاصة حنان كأنها كتل من نار تشتاق لعناق الأجساد البشرية ، و بعد صمت لم يدم طويلا قال :

- متى علمت أين الأثيم فأرسل إلينا نعطك جنودًا ؟

غزت السعادة قلوب الكهنة قبل وجوههم ، بعدما نجحوا فى استمالةِ الجانب الرومانى ليُؤازرهم فى التخلص من عيسى و أنصاره .

* * *

- (لقد دنت الساعة التى انطلق فيها من هذا العالم ، تعزوا و لا تحزنوا لأننىَّ حيث أمضى لا أشعر بمحنةٍ ، أتكونون أخلائىَّ لو حزنتم لحُسن حالىَّ ؟ .. لا البتة ، بل بالحرى أعداء ، إذا سُر العالم فاحزنوا ، لأن مسرة العالم تنقلب بكاءًا ، أما حزنكم فسيتحول فرحًا ، و لن ينزع فرحكم منكم أحد ، لأن العالم بأسره لا يقدر أن ينزع الفرح الذى يشعر به القلب بالله خالقه ، و انظروا أن لا تنسوا الكلام الذى كلمكم الله به على لسانىَّ .. كونوا شهودىَّ على كل مَن يُفسد الشهادة التى قد شهدتها بإنجيل على العالم و على عشق العالم) .

خاطب عيسى تلاميذه بهذه الكلمات بعدما استقروا ببيت نيقوديموس ، الرابض وراء جدول قدرون ، و بعدما فرغ منها نهض ليرتكن إلى ركن منزوى ، رافعًا يديه إلى السماء ، داعيًا فى خشوع ، قائلا :

- (أيها الرب ألهنا ، إله إبراهيم و إله إسماعيل و إسحاق ، و إله آبائنا ، أرحم من أعطيتنى و خلصهم من العالم ، لا أقول خذهم من العالم لأنه من الضرورى أن يشهدوا على الذين يفسدون إنجيلىَّ ، و لكن اضرع إليك أن تحفظهم من الشرير ، حتى يحضروا معىَّ يوم الدينونة ليشهدوا على العالم ، و على بيت إسرائيل الذى أفسد عهدك ، أيها الرب القدير الغيور ، الذى ينتقم فى عبادة الأصنام من أبناء الآباء عبدة الأصنام حتى الجيل الرابع ، ألعن إلى الأبد كل من يُفسد إنجيلىَّ الذى اعطيتنى عندما يكتبون أنىَّ ابنك ، لأنىَّ أنا الطين و التراب خادم خدمك و لم أحسب نفسىَّ قطا خادمًا صالحًا لك ، لأنىَّ لا أقدر أن أكافئك على ما أعطيتنى ، لأن كل الأشياء لك ، أيها الرب الإله الرحيم ، الذى تظهر رحمته إلى ألف جيل للذين يخافونك ، ارحم الذين يُؤمنون بالكلام الذى اعطيتنى إياه ، لأن كلمتك التى تكلمتها هى حقيقة كما إنك الإله الحقيقى ، لأنها كلمتك أنت ، فإنىَّ كنت أتكلم دائمًا كمن يقرأ و لا يقدر أن يقرأ إلا ما هو مكتوب فى الكتاب الذى يقرأه ، هكذا قلت ما قد أعطيتنى إياه .. أيها الرب الإله الذى بعنايتك تقدم كل الضروريات لشعبك إسرائيل ، اذكر قبائل الأرض كلها التى قد وعدت أن تباركها برسولك الذى لأجله خلقت العالم أحمد ، أرحم العالم و عجل بإرسال رسولك لكى يسلب الشيطان عدوك مملكته)

فرغ عيسى من كلماته ، و قد خُنت عيناه لإنفعالات قلبه ، الذى ارتجف من شدة الخشوع ، و قد قال خاتمًا دعائه :

- (ليكن هذا أيها الرب العظيم) .

فأجاب التلاميذ بعين باكية ، و صوت مُتهدج خلا يهوذا :

- (ليكن هكذا ، ليكن هكذا) .

سمع عيسى صوتا هامسًا يَسكن رأسه يُنادى بأن تضرعه لله سوف يكون آخر ما يدعوه لبنى الإنسان قبل رحيله ، فزاد حزنه ، و نشطت دموعه لتغرق لحيته ، و قد عَبَرت نهنهته الموتورة ، التى لم يعتاد تلاميذه عليها عن أمر جلل يُحزنه ، فاستشفوا أمر رحيله ، فسكنوا جميعًا دون حراك ، فيما عدا يهوذا الذى كان يتحسس كيس النقود الرابض أسفل مآزره .

فى اليوم التالى ، أرسل نيقوديموس حملا سمينا لتضرب مائدة ضخمة إحتفاءًا بعيسى و أنصاره ، و قد أبلغه الأول ما كان من أمر الكهنة و الوالى ، و تآمرهم عليه ، فأيقن عيسى أن ساعته دنت ، و يجب عليه أن يُودع الدنيا وداعًا حسنا استعدادًا للقاء ربه خالقه ، و من فوره رفع يداه إلى السماء فى تضرع و هو يُردد بصوت مشروخ ، و عين حابسة الدمع :

- (تبارك اسمك القدوس يا رب ، لأنك لم تفرزنىً من عدد خدمتك ، الذين اضطهدهم و قتلهم العالم ، أشكرك يا ألهىً لأنك قد أتممت عملك) .

ثم ألتفت إلى يهوذا الأسخربوطى قائلا :

- (يا صديق .. لماذا تتأخر ؟ ،، إن وقتىً قد دنا ، فاذهب و أفعل ما يجب أن تفعله) .

- (تمهل علىَّ يا سيد حتى أكل ثم أذهب) .

بدت الحيرة فى عيون التلاميذ ، التى تبحث عن ردًا السؤال المُلح على أذهانهم .. أى أمر موكول ليهوذا دونهم ؟ .. و قد قال بطرس أحد التلاميذ قاضيًا على هذه الحيرة :

- يبدو أن السيد يبغى شراء شيئا ليوم الفصح ، فأوكل الأمر ليهوذا .

على حين دعا عيسى الجميع لتناول الطعام ، و قد قبض على منشفة كانت تسكن طرف المنضدة و منطق حقويه ، و قد سكب بعض الماء فى طست ، و شرع إلى يهوذا ليغسل قدمه ، و قد تصنع التمنع ، و لكن أمام إصرار عيسى رضخ هو و سائر التلاميذ ، ما عدا بطرس الذى قبض على يد عيسى المُمسكة بالمنشفة و هو يقول مُستفسرًا ، مُستنكرًا :

- يا سيد أتغسل رجلىَّ ؟

- إن ما أفعله لا تفهمه الأن ، و لكن ستعرفه فيما بعد .

- لن تغسل رجلىَّ أبدًا .

نهض عيسى بغتة و قد تصنع الغضب و هو يقول :

- و أنت لا تأتى بصحبتىَّ يوم الدينونة .

قبض بطرس على كف عيسى ، مُحاولا استجداء صفحه ، و هو يقول على استحياء :

- لا تغسل رجلىَّ ، فقط يدىَّ و رأسىَّ .

انهى عيسى غسل تلاميذه ، و قد سكن على رأس المنضدة ، آذنا لهم بالمكوث ، و قد استطرد فى الحديث ببعض الأسى المنحوت على جبينهِ ، قائلا :

- (لقد غسلتكم ، و لكن مع ذلك لستم كلكم طاهرين ، لأن ماء البحر لا يُطهر مَن لا يُصدقنى .. الحْق أقول لكم ، إن واحدًا منكم سيُسلمنى فأبناء كخروف ، و لكن ويلٌ له لإنه سيتم كل ما قاله داود أبونا عنه ، إنه سيسقط فى الهوة التى أعدها للآخرين) .

حزن التلاميذ لكلمات عيسى ، و قد حسبوا أن نهايته ستكون جراء خيانة

أحدهم له ، فقال بطرس بأسى :

- من سيكون الخائن ؟

على حين قال يهوذا و قد إنتابه شعور أن عيسى يشك فى كونه الخائن :

- ألنا هو يا معلم ؟

قال عيسى :

- (لقد قلت لىَّ من هو الذى سيسلمنى ، أما الأحد عشر رسولا فلم يسمعوه) .

هنا أيقن يهوذا أن عيسى على دراية بإتفاقه مع الكهنة على تسليمه مقابل ثلاثين قطعة ذهبية ، فحسب أن الأول سيأمر التلاميذ بقتله كرامة لثأره ، فانتفض من مرقده كمن لدغه عقرب ، و فر صوب باب البيت فارًا بنفسهِ ، على حين أبتسم عيسى إبتسامة واهنة ، أضعفها الحُزن ، و هو يقول مُخاطبًا يهوذا قبل أن يغيب عن بصره :

- أسرع بفعل ما أنت فاعل .

عمد يهوذا لقيافا فى المعبد ، و أنفاسه تتلاحق فى ضراوةٍ أثرت على حروفه ، التى دمغت و هو يُردد :

- إذا سلمتنى جندًا سلمتك يسوع ، الذى تطلبونه هذه الليلة ، لأنه منفردًا مع أحد عشر رفيقا .

أسرع قيافا بإرسالِ نفرًا إلى الوالى طالبًا المدد ، فأرسل هذا الآخير كتيبة كاملة خشية ثورة الشعب تأتمر بأوامر يهوذا و تسير على هداه ، و قد أخذوا دربهم حيث عيسى ، الذى كان يتلو صلاته فى بستان البيت وحيدًا ، و قد كان الأحد عشر تابعًا نيامًا ، فدب الرعب فى قلب هذا الأخير ، فعمد

إلى كوخ صغير ينزوى فى طرف البستان ، و على إمتداد البصر لمحه يهوذا يهرول ، فأخبر جنود الوالى أن هذا الرجل بغيتهم ، و لكنه سيسعى لاستدراجه خارج البستان فى هدوء حتى لا يستيقظ أتباعه ، و يتحول الأمر لصراع قد يسفر عن هروب فريستهم و تدخل العامة ، فيصبح الأمر فتنة تضرم دون وجه حق .

و مكر يهوذا على الله ، و الله خير الماكرين ، فهو الخالق ، عالم ما فى النفوس ، و لم يكن الله - عز و جل - قد كتب على عيسى الموت ، فأرسل ملائكته و سفراءه جبريل و ميكائيل و رفائيل و عزرائيل ليأخذوا عيسى من دنيا البشر ، و يرفعوه إلى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة ، التى تسبح الله بكرة و أصيلة .

أقتحم يهوذا الكوخ فوجده خاليًا على عروشه ، فأزداد توتره ، و كاد أن يجن عندما لم يجد عيسى ، الذى أقتحم الكوخ قبله ، و بعد بحث مضنى بات بالفشل راوده إيمان عظيم بأن عيسى ساحر عظيم كما أدعى اليهود ، يأتى العامة بسحره ، و قد راوده الأن بسحره ، ليسخر منه و من رجال الوالى ، و قد تناسى قدرة الله التى تعلو قدرة البشر ، و التى عظمت بما حل على هيئة و صوت يهوذا ، و قد بات شبيهًا بعيسى دون أن يعلم ، ليخرج على الأتباع موقظا إياهم ، مُستفسرًا عن عيسى بلسانه و عينه تجول فى أرجاء البستان بحثا عنه ، عَلى حين أخذ التلاميذ يُحملقون فيه بدهشة عارمة ألجمت ألسنتهم جميعًا خلا برنابا ، الذى قال ظانا أن عيسى يمزح معهم :

- أنت يا سيد هو معلمنا .. أنسيتنا الأن ؟

أبتسم يهوذا إبتسامة رقيقة ، قلقة و هو يصيح ناهرًا أترابه :

- هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا الأسخربوطى ؟

هم برنابا أن يُجيب على يهوذا ، لولا إنه لمح عددًا غفيرًا من جنود الوالى فطفق يعدو هاربًا و خلفه سائر الأتباع ، و قد قبض الجنود على يهوذا ظانين إنه عيسى ، و هذا الأخير يصيح مُهللا كونه يهوذا ، الذى كان يُصاحبهم منذ قليل ، فقال أحد الجنود و هو يُوثقه بأغلال حديدية ساخرًا منه :

- يا سيدى لا تخف لأننا قد أتينا لنجعلك ملكا على إسرائيل ، و إنما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة .

- لعلكم جننتم ، إنكم أتيتم بسلاح و مصابيح لتأخذوا يسوع الناصرى كأنه لص ، أفتوثقوننى أنا الذى أرشدتكم لتجعلونى ملكا ؟

نفذ صبر الجنود فتكالبوا عليه بالضرب و الرفس ، و قد قادوه إلى أورشليم و الجراح تثخن كل بقعة فى جسده ، ليستلمه كهنة و كتبة المعبد و على رأسهم قيافا ، و قد تهللت أسارير يهوذا عند رؤيته لقيافا ، ظانا منه إنه سيتعرف عليه و سيأمر رجاله بفك وثاقه ، و لكنه وجد هذا الأخير يدنو منه بخطى ثقيلة ، و الإبتسامة العريضة تفترش وجهه ، و قد بصق فى وجهه قبل أن يصيح فى الحضور مُستعرضًا :

- ها هو ملككم الرعديد ، يتنصل من كونه عيسى بن مريم المسيا المُنتظر و ملك اليهود كما كان يدعى مُتمسحًا فى أحد أتباعه .

ثم أعقب عبارته بأن دنا من يهوذا و لطمه على وجهه لطمة قوية سقط على آثرها و خيط الدم يسيل من ركن فاهه ، ثم وجه له عبارته ، قائلا :

- لم التهرب من مصيرك يا ملك الملوك ؟

على حين أقترب شمعون منه و قد قبض على عصابة سوداء عَصَبَه بها ، و قد غمز بعينيهِ لقيافا مُعللا فعلته برغبتهِ المُلحة التى سيُشاركه فيها معظم الحضور فى العبث بعيسى ، و مجاراته فى دعوة الجنون التى بلج فيها ، فوافقه الأخير من فوره ، و البشر يعتلى وجهه ، فلطمه شمعون لطمة قوية أهتز لها قبل أن يقول له مُتهكمًا :

- يا يسوع يا نبى الناصريين ، قل لنا من ضربك ؟

كان بطرس و يوحنا يراقبا يهوذا و ما يفعله به الكهنة و الكتبة من فريسيين و صدوقيين ، و تكالب آل المعبد عليه و بعض الشعب ممن عادوه ، و الكل يُحاول أن ينال منه ، فمنهم من نعم بضربه و لطمه أو البصق عليه ، و مَن لم يستطع فرجمه بالحجارة ، و مَن لم يستطع نال منه بالسب و القذف ، وقد عجبا من غريب الكلام الذى تفوه به ، و لم يفهما سبب تنصله من كونهِ عيسى بن مريم و إقراره إنه يهوذا الأسخربوطى ، و مازاد من إبهام الأمر إختفاء هذا الآخير منذ رحيله أثناء العشاء الآخير مع عيسى ، على حين ذهب برنابا مُهرولا لمنزل مريم ابنة عمران أم المسيح ، و قد أخبرها بما حل بولدها ، فكاد قلبها يتوقف بين ضلوعها ، على حين أحست مريم المجدلية أن روحها تنسلخ منها ، بينما إنهارت إليصابات أم يحي و فقدت الوعى من هول ما سمعت ، على هرولت مريم أم المسيح و المجدلية بصحبة برنابا حيث المكان المُفترض أن عيسى يُهان فيه ، ليفجعوا فيما أصابه ، و قد بدا كحيوان ضعيف تكالب عليه الصيادون ، بوجهه المتورم ، المُثخن بالجراح .

انقضى الليل و يهوذا ينال من الأذى ما يجود به العامة و الخاصة ، ليفرد الصبح أشعته على البيوت فى إسرائيل ، ليعلم الجميع ما حل بعيسى ، ليتسابق الناس إلى الهيكل فى تجمهر لم تشهده إسرائيل من قبل ، و قد أجتمع أعضاء مجلس الحكم الرومانى المُعين من قبل قيصر روما ، و قد دفع آل الهيكل بالشهود الزور ليشهدوا على عيسى ، و يهوذا صامت ، لا يقو على الكلام ، كأن الحروف حشرت فى حلقه ، و قد سأله صدوقيا عن أتباعه و عن تعاليم إنجيله الذى ينشره بين العامة ، و يهوذا على صمته ، فجن جنون صدوقيا و قد أقسم برب إسرائيل ليقطع لسان يهوذا إن لم يتفوه ، فقال يهوذا بحروف مُتقطعة ، تقطر دمًا ، و قد فقدت قواها :

- لقد قلت لكم أننىَّ يهوذا الأسخربوطى ، الذى وعد أن يُسلم إلى أيديكم يسوع الناصرى ، أما أنتم فلا أدرى بأية حيلة قد جننتم لأنكم تريدون بكل وسيلة أن أكون يسوع .

- أيها الضال المُضل ، لقد ضللت كل إسرائيل بتعاليمك و آياتك الكاذبة ، مُبتدئا من الجليل و حتى أورشليم هنا ، أفيخيل لك الأن أن تنجو من العقاب الذى تستحقه و الذى أنت أهل له بالتظاهر بالجنون ؟ .. لعمر الله إنك لا تنجو منه .

قالها ثم أشار إلى جنوده ، الذين قبضوا عليه و جردوه من ملابسه على مرأى و مسمع من العامة ، و ألبسوه ملابس مُهرج ، لتتعالى ضحكات الحضور لتصدع لها جدران الهيكل ، لتضيع بينها دموع مريم ابنة عمران و المجدلية إضافة إلى تلاميذ عيسى ، و قد دوت صرخات و عويل الأولى و هى ترى الجنود يتكالبون على يهوذا - و قد حسبته عيسى - بالسلاح

بغلظة ، حتى سال دمه أنهارًا تروى أرضية الهيكل باللون الوردى ، و قد تحول إنشراح العامة لعبارات مُستجدية الرحمة و إعفاء يهوذا مما يُعانيه ، حتى جاء رسول الوالى الرومانى إلى قيافا طالبًا يهوذا ليمثل أمامه ، فأمر قيافا جنوده بالتوقف على مضض منه ، كما أمرهم بمُصاحبته حتى الوالى ثم العودة به مرة آخرى لينال عقابه .

إن الوالى كونه رومانيًا كان بطبعهِ وثنيًا ، و مع هذا كان يحترم عيسى كونه رجل يتقلد مجموعة من المبادئ التى يدافع عنها ، كما إنه سمع عن معجزاته و أعماله الخيرة مع العامة ، و مع هذا لمس فيه الفقر المُدقع و هو الذى إذا تمنى متاع الدنيا لناله ، على عكس الكهنة و الكتبة ، فعندما دلف عليه يهوذا قابله بالحُسنى ، سائلا إياه :

- أنىَّ أراك للمرة الأولى كما إنك ترانى للمرة الأولى أيضًا و مع هذا فأنا أكن لك إحترامًا عظيمًا ، لذلك صارحنى ، لماذا يسعى وراءك رؤساء الكهنة و الشعب ؟

- لو قلت لك الحق لما صدقتنى ، لأنك قد تكون مخدوعًا كما خدع الكهنة .

- ألا تعلم أنىَّ لست يهوديًا ، و لكن الكهنة و شيوخ الشعب أقحمونى فى التآمر عليك ، فقل لنا الحق لكى أفعل ما هو عدل ، لأن لىَّ سلطان أن أطلق صراحك أو آمر بقتلك .

عند هذا الحد دوى صوت عيسى فى رأس يهوذا مُعاتبًا إياه على خيانته ، ومكره به ، و لكنه أفهمه أن مكر الله كان عظيمًا و قد نفخ صورته فيه ليُصبح هو عيسى الذى تعرفه الناس ، ليذوق ما كان سيوقعه فيه ، فصاح

يهوذا مُخاطبًا الوالى ، قائلا :

- صدقنى يا سيدى ، إنك إذا أمرت بقتلى ترتكب ظلمًا كبيرًا ، لأنك تقتل بريئا ، لأنىَ أنا يهوذا الأسخربوطى لا يسوع ، الذى هو ساحر ، فحولنى هكذا بسحره .

دهش الوالى من كلمات يهوذا ، مُستنكرًا أن تصل قدرة الإنسان فى السحر مهما بلغت من أن ينسخ شبيهًا له ، و مع هذا خرج على العامة ليجد كهنة المعبد مُتربصون على رأسهم ، فابتسم و هو يقول :

- إن هذا الإنسان يقول إنه ليس يسوع ، بل يهوذا الذى قاد الجنود ليأخذوا يسوع ، كما يقول أن يسوع الجليلى قد حوله هكذا بسحره ، ليُصبح على هيئته و صوته ، فإذا كان كلامه صدقا يكون قتله ظلمًا كبيرًا لأنه يكون بريئا ، و لكن إذا كان هو يسوع و ينكر فمن المؤكد إنه قد فقد عقله ، و يكون من الظلم قتل مجنون .

صرخ رؤساء الكهنة و شيوخ الشعب مع الكتبة و الفريسيين مُهللين ، رافضين كلام الوالى ، الذى إن دل فيدل على تعاطفه مع عيسى ، على حين طلب الوالى رجلٌ واحد يُحادثه ليفهم مطلب اليهود من ذلك الرجل الماثل بين يديه ، فتقدم منه صدوقيا ، و آيات الغضب محفورة على وجهه ، و قد قال بصوت دلت نبراته على غضب شديد يعتمل بداخله :

- إنه يسوع الناصرى ، أننا نعرفه ، لأنه لو لم يكن هو المُجرم لما سلمناه ليديك ، و هو ليس بمجنون بل بالحرى خبيث ، لأنه بحيلته هذه يطلب أن ينجو من أيدينا ، و إذا نجا تكون الفتنة التى يثيرها شرًا .

أنهى صدوقيا كلماته ، مُصغيًا لهتاف الجمهور الذى يُؤيده ، و قد أيقن

الوالى أن الجميع .. كهنة و عامة يبغضون عيسى ، و لا حيلة له أن يُطلق سراحه ، و صعب عليه أن يأمر بقتله لمجرد خلاف مذهبى بينه و بين الكهنة ، فأمر رجاله بجلده فى باحة القصر ، و التشديد عليه ، ظانا أن دماءه المُنسالة ستجعل الكهنة يولون ظهورهم عنه .

نال الجنود من يهوذا بشدة ، كالمُشرف على الموت عطشا عندما ينال إبريق الماء ، و قد سال دمه أنهارًا مُغطيًا أرضية الباحة ، و مع كل جلدة تسكن جسده كان قلب مريم أمه ينخلع من صدرها ، و قد أحست أن نهايتها شرفت من هول ما ترى ، حتى انتهى الجنود من مهمتهم ، و قد ألبسوا يهوذا لباسًا أرجوانيًا مُهترءًا و حملوه و أقعدوه فى ركن مُنزوى لحين إصدار أوامر آخرى .

طال ميقات إنتظار الجنود بجوار يهوذا حتى تسلل الملل إليهم ، و بات النعاس يُداعبهم ، فدعاهم أحدهم أن يعبثوا قليلا مع يهوذا ، فصنع واحدٌ منهم أكليلا من شوك الورد يُشبه إكليل الملوك ، و قد دقه على رأسه غير عابئ بصرخات هذا الآخير التى تطلب الرحمة ، على حين مر الباقون أمامه و رؤوسهم محنية فى خفر ، كأنهم يمرون أمام ملك حقيقى ، و قد مدوا أيديهم نحوه لينالوا الهبات التى إعتاد إعطاءها الملوك الجدد ، فلما لم ينالوا شيئا انهالوا عليه ضربًا و هم يتلمظون قائلين :

- كيف تكون إذا مُتوجًا أيُها الملك إذا كنت لا تهب الجنود و الخدم ؟

عندما رأى رؤساء الكهنة مع الكتبة و الفريسيين أن يهوذا لم يمت من الجلد خشوا أن الوالى يكتفى بما ناله و يُطلق سراحه ، فتسلل شمعون خلسة من بين الجمع و دخل على الوالى و دفع إليه مالا كثيرًا بشريطة أن يدفع يهوذا

إلى الكتبة و الكهنة ، الذين حكموا عليه بالصلب ، و لكى يُصبح الأمر مقبولا لدى العامة حكموا على لصين معه بالصلب .

عبث الشيطان بنفوس تلاميذ عيسى و المؤمنون به حتى ارتدوا عن تعاليمه ، مُعتقدين أن يسوع كان نبيًا كاذبًا ،

و إنه فعل الآيات التى أتاها بسحره ، لأن ناموس موسى قال .. أن يسوع لا يموت إلى وشك إنقضاء العالم ، لأنه سيُؤخذ فى ذلك الوقت من العالم .

قاد الجنود يهوذا و معه اللصين إلى جبل الجمجمة ، حيث أعتادوا شنق وصلب المُجرمين ، و قد علقوه على الصليب عريانا ، مُبالغة فى تحقيره .

حمل مَن بقى على تعاليم عيسى من تلاميذه مريم ابنة عمران التى انهارت إلى جبل الجمجمة ، حيث شهدت صلب يهوذا ، فبكت كما لم يبك إنسان من قبل ، و قد تسارعت أيدى التلاميذ لإنزال جثة يهوذا - ظانين أنه عيسى - من صليبه و الحزن يُمزق القلوب تمزيقا ، و قد ضمخوا الجثمان بمئة رطل من الطيوب قبل أن يكفنوه ، و بينما كان التلاميذ يكفنوا جثمان يهوذا سقطت قطرة ماء وحيدة من السماء ، استقرت على الجثمان ، و قد دوى صوت بدا كالهزيع يُردد :

- لقد أضعتم تعاليمىَ ، لذلك سيُضيعكم الله ، النجاة فى مَن سيأتى بعدى ، إنه أحمد .

-١٥-

تكالبت الأحزان على أليصابات و قد فت حزنها على عيسى ومن قبله ابنها يحي فى صحتها ، ليشتد مرضها ، الذى لم يدم طويلا ، لتسكن الثرى ، مُورثة أحزانها لمريم ابنة شقيقتها حنة ، التى أثقلها خدمتها لسالومى ، التى أوشكت أن تضع حملها ، على حين بدت المجدلية هزيلة ، عجفاء ، و قد فت حزنها على سيدها عيسى فى نضارتها ، وقد أعتكفت على قراءة الإنجيل و دراسته ، سلوة لأحزانها .

و ذات مساء ، و تلاميذ عيسى مُجتمعين فى بيت مريم للتدارس فى أمور الإنجيل ، اعربت هذه الأخيرة عن رغبتها فى زيارة قبر ابنها ، فقد توحشته منذ رحيله ، فعهد التلاميذ بزيارة القبر معها ، ليلتمسوا قبسًا من معلمهم .

و فى الصباح الباكر عمد التلاميذ إلى ذلك القبر ، الذى يضم بين ضلوعه جثمان يهوذا الأسخربوطى و معهم مريم ابنة عمران و المجدلية ، و قد بدا لهم القبر على مرمى البصر ، قابع فى مكانه .

استوقفت مريم مسيرة الركب ، و قد قالت مُوجهة عبارتها الآمرة للمجدلية :

- ألا تستتر ؟

دهشت المجدلية من عبارة مريم ، فأخذت تتفحص ملابسها ، و قد يكون تعرى جزء من جسدها ، فقالت مُستنكرة :

- من ما استتر يا أماه ؟

- هناك رجلٌ عند القبر يُحملق فينا .

دمقست المجدلية و التلاميذ النظر تجاه القبر ، فلم يروا أحد ، فقالت الأولى في دهشة :

- و لكنيّ لا أرى أحدًا .

استنكرت مريم قول المجدلية و هي ما تزال ترى ذلك الرجل الرابض أمام القبر ، فرجت أن يكون الماثل جبريل ، الذى اعتادت لقياه ، فذهبت نحوه وحيدة خلا الباقين ، حتى سكنت أمامه ، و تيقنت إنه جبريل ، و قد قال لها مُستفسرًا :

- إلى أين أنت ذاهبة ؟

- أزور قبر المسيح ، فأسلم عليه و أحدث عهدًا به .

- يا مريم ، إن هذا ليس المسيح ، إن الله قد رفع المسيح و طهره من الذين كفروا ، و لكن هذا الفتى الذى ألقى شبهه عليه وصلب و قتل مكانه ، و دليل على ذلك أن أهله قد فقدوه ، فلا يدرون ما فعل به ، فهم يبكون عليه ، فإن كان يوم كذا و كذا فأتنى غيضة - مكان - كذا و كذا ، فإنك تلقين المسيح .

هرولت مريم إلى أترابها ، و قد قصت عليهم ما كان من أمر جبريل ، والذى أخبرها أن عيسى حى ، و الذى صلب شخص آخر ، فأيقن التلاميذ أن من قبر كان يهوذا الأسخربوطى ، و قد شبهه عليه غضبة لخيانته كما كانٍ يدعى قبل صلبه ، فزاد إيمانهم و تمسكهم بتعاليم عيسى ، فلما كان ذلك اليوم الذى أشار إليه جبريل ذهبت مريم و معها التلاميذ والمجدلية ، لتجد عيسى يقف أمام عينيها ، و قد أسرع نحوها مُنكبًا عليها ، مقبلا رأسها ، و جعل يدعو لها كما كان يفعل فيما مضى ، و قد

قال لها :

- يا أماه ، إن القوم لم يقتلونى ، و لكن الله رفعنى إليه ، و أذن لىّ فى لقائك ، و الموت يأتيك قريبًا فاصبرى و اذكرى الله كثيرًا .

و قص عليها و على التلاميذ ما كان من مؤامرة يهوذا مع الكهنة عليه ، و عندما فرغ من روايته أمر أمه و من معها بمغادرة إسرائيل ، لأن الله سيضربها برجل لا يعرف الرحمة ، سيبطش بكبيرها قبل صغيرها غضبة لما فعله اليهود بزكريا و يحي ، الذى مازال دمه يفور دون إنقاطع ، ليُصبح آية فى زمانه ، جعلت البعض يعبدون من دون الله ، وقد صعد مرة أخرى إلى السماء .

طربت مريم و التلاميذ كون عيسى لم يمت ، و قد خرج التلاميذ داعين فى الناس عن دين عيسى ، ناشرين إنجيله ، على حين انتظرت مريم أن تضع سالومى مولودها ، الذى كان فتاة ، اطلقت عليها مريم و قد نسبتها لنفسها ، لتصبح مريم ابنة سالومى ، و لم تلبث أن تسعد بها حتى وافتها المنية مُتأثرة بحملها ، فخرجت مريم ابنة عمران و معها المجدلية ومريم ابنة سالومى راكبات البحر إلى فرنسا ، قبل أن يُرسل الله عبده الأبق نبوخذنصر البابلى ، الذى حط على البلاد داككا أسوارها ، التى سقطت أسفل حوافر الخيل ، ليهاله جثمان يحي بن زكريا ، و الدم يفور من عنقه المنحور دون إنقطاع ، ليُعجب من هذه الآية ، فقرر أن يقتل من الرجال ما يقدر عليه سيفه ، الذى لم يكل يومًا من حصد الأرواح ، غضبة ليحى حتى يستقر الدم و يثبط .

قتل نبوخذنصر آلاف الرجال و النساء و الكهول دون أن يخمد الدم ،

حتى قتل سبعين ألف نفس من يهود بنى إسرائيل ، فدعا الجثمان أن يهدأ ، قبل أن يكفنه و يُطيبه و يأمر بدفنهِ .

تشرد اليهود على يد نبوخذنصر ، و قد سُبى من بقى منهم على قيد الحياة ، فعمل الرجال منهم فى أحقر المهن ، و إهينت فروج النسوة بحرشفته و حراشف رجاله .

تمت بحمد الله تعالى

كلمة الختام

و ختامًا عزيزى القارئ أود أن أنوه مرة أخرى أن هذا العمل لم يكتب للإعتناق ، لأن أحداثه مبنية على إفتراضات من خيال المؤلف ، الغرض منها التكهن بحياة الأنبياء و العظماء و كيفية حياتهم ، وصولا لمقتلهم والأسباب و الدوافع التى أدت إلى ذلك ، مرورًا بحياة الباغية سالومى ، التى أصبحت قديسة يوقرها اليهود ، و الذى أصبح عهرها رمزًا للعفة والشرف ، كما استغل أحداث هذه الرواية لإبراز جوانب كثيرة قد تجاهلها كتاب كثر ممن تناولوا حياة سالومى ، و على رأسهم الكاتب المصرى محمد سلماوى ، لتكون هذه الرواية ردًا عليهم و على تكهناتهم ، كما أود أن أنوه أننىَ حاولت أن أحافظ على قدسية الأنبياء والشخصيات الدينية ، لذلك استعنت ببعض الكتب السماوية لأتناول الحوار لبعض المناطق الحرجة ، فالعلامات التالية توضح الكتب التى أرتكنت عليها .

آيات من القرآن الكريم .

(   ) آيات من الأناجيل المُعترف بها عالميًا ، و إنجيل برنابا الغير مُعترف به من الفاتيكان .

و إعتمادى على إنجيل برنابا الغير مُعترف به دوليًا ، ليس معناه أننىَ مُعترف به و بصحتهِ و إنما وجدته أقرب إلى ما يقره الإسلامِ ، خاصة فيما يخص رفع السيد المسيح و ليس صلبه ، و هذا إن دل فيدل على أن العمل كتب من وجهة النظر الإسلامية فيما يخص ختام حياة المسيح فقط

و ختاما أود أن ينال العمل إعجاب كل من يقرأه بتمعن ، عاقلا ما به من أمور قد تبدو خفية ، واضعًا بين أيديكم مجهود عام و نصف العام من الصراع بين العقل و القلم ، الإلتزام و التعدى .

المؤلف

إسلام عامر على

الإسكندرية فى ٢٠٠٦/١١

من أعمال المؤلف

أولا . الأعمال الإبداعية

- آهات العرب (مسرحية) ١٩٩٩
- صمت الليل (مسرحية) ٢٠٠١
- نزق الثوار (رواية طويلة ج١) ٢٠٠١
- الفليسوف و المرأة (مجموعة قصصية) ٢٠٠١
- قديسة التوراة (رواية طويلة) ٢٠٠٢
- توراة الفيطوان (مجموعة قصصية) ٢٠٠٢
- ثامار (مجموعة قصصية) ٢٠٠٤
- رقصة المعبد الأخيرة (رواية طويلة) ٢٠٠٦

ثانيا . الأعمال الفكرية

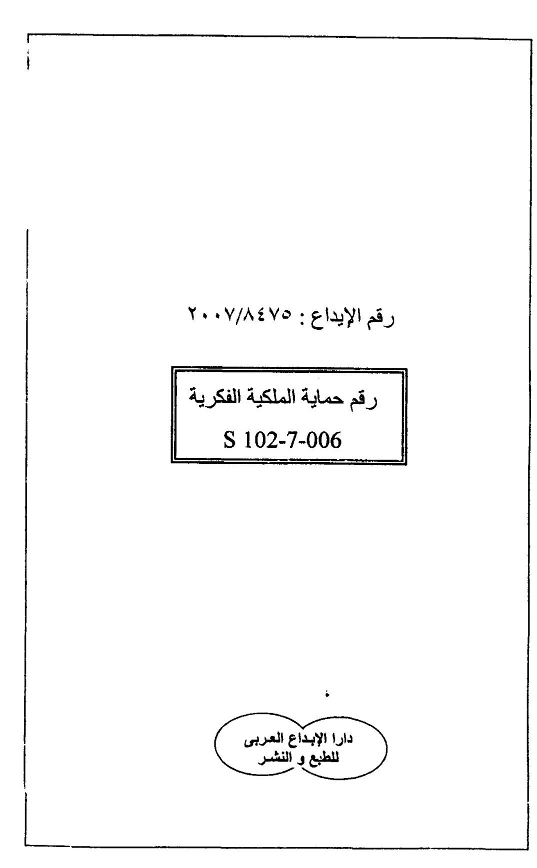
- إرهاصات يهودية (دراسات) ٢٠٠٢
- موسوعة الداء و الدواء فى تفسير القضية الفلسطينية
  ج ١ ، الرعيل الأول لبنى إسرائيل ٢٠٠٣
- صمتا أيتها النساء (دراسات) ٢٠٠٤
- عجائب الكلام فى كتاب الأوهام .. التوراة ٢٠٠٦
- كيفية الإبحار فى الأدب العربىً .. إبداعًا و نقدًا ... ٢٠٠٦

ثالثا . الأعمال التى ترجمة للمؤلف

- ثامار (مجموعة قصصية) ترجمة إلى اللغتين الإنجليزية و الفرنسية ٢٠٠٦

رابعا . أعمال تحت الطباعة

- المرأة بين الحضارة و الدعارة (دراسة) ٢٠٠٧
- الكفر .. امرأة (دراسة) ٢٠٠٧



رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٨٤٧٥

رقم حماية الملكية الفكرية

S 102-7-006

دارا الإبداع العربى
للطبع و النشر